

المركز القومي للترجمة

سارة كوتنر

نسخة معيبة

ترجمة وتقديم

ناهد الديب

2139

سلسلة
الإبداع
القصصي

نسخــة معيبــة

(رواية)

نسخة معيبة

(رواية)

تأليف: سارة كوتنر

ترجمة وتقديم: ناهد الديب



2013

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2139
- نسخة معيبة
- سارة كوتنر
- ناهد الديب
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

MÄNGELEXEMPLAR

Von: Sarah Kuttner

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 – 27354526. Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كوتنر، سارة
نسخة معيبة (رواية)/ تأليف: سارة كوتنر، ترجمة وتقديم:
ناهد الديب.
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٣٤٤ ص، ٢٤ سم
(أ) الديب، ناهد (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ٨٨٥٧ / ٢٠١٢

الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978-977- 216 - 079- 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

السعادة لا تترك خلفها ندبات

لا نتعلم من السلام الكثير

شاك بولانيك(*)

(*) كاتب أمريكي وصحفي حر، اسمه الحقيقي تشارلز ميشيل بالانيوك، من مواليد عام ١٩٦٢. تم تحويل باكورة إنتاجه الروائي "نادي القتال" **Fight Club**، والذي صدر عام ١٩٦٦ إلى فيلم سينمائي لاقى نجاحًا كبيرًا. تمت ترجمة روايته الثانية ***Diary*** إلى اللغة الألمانية بعنوان: البروتوكول الأخير.

تقديم المترجمة

تتسم الثقافة الألمانية بطابع معين له خصوصيته، مما يجعلها جديرة بالدراسة، حيث مرت دولة ألمانيا خلال القرن الماضي بحربين عالميتين، ثم عانت لفترة من تقسيمها إلى شطرين، تبعتها مرحلة إعادة توحيد الألمانيتين، وكان لكل هذه المراحل التاريخية مردود واضح على الثقافة والأدب الألماني، بالإضافة إلى كون اللغة والثقافة الألمانية ليست مقصورة على دولة ألمانيا الاتحادية فحسب، بل تضم كلاً من النمسا وسويسرا ودولة ليشتن شتاين.

لقد عُرف عن الألمان على مدى القرون أنهم شعب أنجب الفلاسفة والأدباء والموسيقيين، الذين تركوا بصمة واضحة في تاريخ الثقافة البشرية؛ فقيل عنهم: إنهم شعب "الأدباء والمفكرين"؛ أمثال: جوته صاحب قصة "فاوست"، وشيللر مؤلف مسرحية "دسيسة وحب"، وكذلك الأخوان هاينريش وتوماس مان، كاتبا ثلاثية "بودن بروكس"، وبرتولد بريشت الذي اقترن اسمه بالمسرح الملحمي، ومن الفلاسفة: ليبنتز، ونيتشه، وإيمانويل كانط، وشوبنهاور، وغيرهم..

أزعم أن القارئ العربي لم يتعرف على الثقافة الألمانية بالقدر الكافـــي، بسبب قلة عدد الكتب المترجمة عن اللغة الألمانية مباشرة–

أعتبر نفسي ضمن من قصّر في هذه المهمة - وقد حاولت من خلال ترجمة الكتاب، الذي أضعه بين يدي القارئ، أن أقوم بتعريفه بإحدى الكاتبات الشابات، التي أرادت أن تقدم للقارئ الألماني مثالاً واضحًا على عدم اقتناعها بالحديث الدائر في الأوساط الثقافية عن الكتابة الأنثــوية أو أدب المــرأة، باعتباره أدبًا يختلف عن الأدب الذي يكتبه الرجل.

الأدب الألماني بين الرجل والمرأة

ارتبط في أذهان الكثيرين أن الأعمال الأدبية التي تكتبها المرأة تدور في مجملها حول تيمات محددة ومكررة، أهمها الظلم والاضطهاد الذي تتعرض له المرأة، والمعاناة التي يسببها لها الرجل. ربما كان يمكن قبول هذه المقولة حتى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي، عندما تحقق بالانفتاح الثقافي والاجتماعي نتيجة من نتائج التطور الحضاري الذي شهده العالم، نشطت على إثر ذلك في الغرب عامة أصوات تنادي بتحرير المرأة.

صحيح أن المرأة قد نالت بعض حقوقها، كي تتساوى مع الرجل، إلا أنها في كثير من الأحيان ظلت أسيرة للنظام البطريركي، الذي يفرضه الرجل في كثير من مجالات الحياة بدءًا من الأسرة

وانتهاء بالمؤسسات. ربما لا يعرف الكثيرون أن المرأة الألمانية ما زالت تتقاضى راتبًا أقل من الرجل، رغم تساويها معه في نوع العمل وساعاته.

بعد قرون انفرد فيها الرجل بكتابة الأدب، بدأت المرأة تشاركه الكتابة الأدبية؛ لأنها على يقين أنها تملك الإمكانات الإبداعية نفسها التي يظهرها الرجل.

وقد تشعبت آراء الأوساط الثقافية الألمانية حول سؤال مهم وهو: هل يوجد فعلاً خطاب أنثوي في مقابل خطاب ذكوري؟ مع الأخذ في الاعتبار أن مفهوم الأدب العام يكمن في تصوير المشاعر وتشغيل المخيلة من واقع الخبرة الفنية والجمالية.

مر تعريف مصطلح الأدب النسائي الألماني بمراحل متعددة، بدأت في نهاية القرن الثامن عشر، عندما صدرت رواية "حكاية الآنسة فون شتيرن هايم (١٧٧١) لصوفي فون لا روش" دون ذكر اسمها. وكانت هي أيضًا أول امرأة تصدر مجلة نسائية ألمانية اسمها "بومونا لفتيات ألمانيا" ١٧٨٣ – ١٧٨٤ ***Pomona für Teutschlands Töchter***. استمر دور المرأة الأدبي هامشيًا على مدى الحقب الأدبية المختلفة، حتى المرحلة الواقعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكانت كاتبات هذه المرحلة يكتبن الروايات ولكن بهدف التربح وكسب العيش في المقام الأول.

ارتبط مسمى الرواية النسائية الألمانية في الثلاثينيات من القرن العشرين بالترويج للموضوعات التي ترتبط بحياة المرأة عامة، حتى لو كانت من تأليف الرجال. كانت المرأة خلال هذه الفترة هي المتلقي الأساسي، تكتب عنها ومن أجلها الرواية.

شهدت الفترة بين الستينيات والثمانينيات من القرن العشرين تحولاً جذريًا في الموضوعات الأدبية عامة بسبب الأحداث السياسية التي سادت العالم، وأصبحت مقاومة كل أشكال الاضطهاد سمة عامة في الأدب، ومن ثم فرضت موضوعات؛ مثل: الظلم الواقع على المرأة في المجتمعات، وأثر مشاكلها الحياتية نفسها على الأدب.

وبدأ من ناحية أخرى النقاش يحتد عند تحديد الفرق بين الجنس والنوع ***Sex and Gender***، وطرح السؤال: لماذا التفريق في المسميات؟ هل الأدب هو نوع ذكوري في الأساس، حتى نحتاج مسمى للأدب النسائي؟

أعادت مرحلة ما بعد النسوية خلال التسعينيات من القرن الماضي طرح مسمى الأدب النسائي، واتفق على تعريفه باعتباره: الأدب الذي تسطره يد النساء. وأثبتت الكاتبات الألمانيات من خلال أعمال أدبية عديدة أنهن قادرات على استخدام اللغة بوصفها وسيطًا، لكي يثبتن أنفسهن ككائن يفكر، ويفصح عن وجوده وعن ذاته، وأثبتن

أيضًا من خلال كتاباتهن، أنهن يملكن القدرة على خلق مسافة داخلية بين الأنا الواقعية وضمير المتكلم في كتاباتهن. صدرت في ألمانيا على مدى سنوات أعمال أدبية رفيعة المستوى، شهد لها القاصي والداني. ورفع من شأن الأدب النسائي الناطق بالألمانية فوز عدد من الأديبات بجائزة نوبل مثل ألفريدة يلينك (النمسا، ٢٠٠٤)، هيرتا موللر (ألمانيا، ٢٠٠٩).

أما القرن الحادي والعشرون فقد حمل معه، بعد أن أصبح العالم بأكمله قرية صغيرة، معالجة موضوعات جديدة فرضها عصر العولمة على الرجل والمرأة على حد سواء. إلا أنه لا أحد ينكر أن المرأة أثبتت من خلال أعمال أدبية عديدة، أنها قادرة على التعبير عما يدور حولها كما يدور بداخلها مثلها مثل الرجل على حد سواء.

جاءت رواية سارة كوتنر "نسخة معيبة" خير دليل على أن العبرة في نجاح العمل هي في الأساس اختيار الموضوع، وكيفية معالجته؛ والدليل على ذلك أن الساحة الأدبية في ألمانيا استقبلت الرواية بترحاب شديد، ولم يتطرق أحد إلى كون الكاتبة سيدة.

لقد اختارت كوتنر موضوع روايتها وعنوانها بذكاء شديد، يدل على أنها قد لمست وترًا حساسًا لدى الإنسان، الذي يعيش اليوم في ظل الظروف الحياتية المتشابكة، والتي فرضت على الجميع الانخراط في دوامتها.

ما النسخة المعيبة؟

ينص القانون الألماني المنظم لتسعير الكتب على تعريف النسخة المعيبة بأنها: نسخة من كتاب به عيب خارجي ظاهر، نتج عن التخزين أو النقل – وليس أثناء عملية التصنيع – مما يسمح ببيعه بسعر أقل من السعر المحدد، على أن يظهر ذلك للمشتري في شكل علامة واضحة للعيان.

لماذا اختارت الكاتبة الألمانية سارة كوتنر "نسخة معيبة" عنوانًا لأولى رواياتها؟

لم تطلق كوتنر هذا الاسم على نسخة الكتاب، ولا على الرواية، وإنما قصدت بها بطلة روايتها التي اختارت لها اسم كارو هيرمان.

ولما كانت الثقافة الألمانية تهتم بتتبع أصل الأسماء فقد وجدت بالبحث أن اسم كارو هو اختصار لاسم كارول؛ وأصله في اللغة الجرمانية القديمة كارلا. ثم تحور في اللغة اللاتينية إلى كارو لا، ويعني السيدة الحرة والقوية، وكذلك يعني السيدة الحالمة. فإذا حاولنا إيجاد تفسير لاختيار الكاتبة لاسم كارو لبطلة رواية بعنوان "نسخة معيبة"، لوجدنا أنها قامت ببتر الاسم الأصلي الكامل، ومن ثم أصبح ناقصًا ومعيبًا.

فكارو تقول عن نفسها إنها إنسانة متعِبة (بكسر العين). ويصفها صديقها الوفي بأنها نسخة معيبة، لما لمسه منها من عصبية، ونفاد صبر، فضلاً عن ثورتها لأتفه الأسباب، وكذلك شعورها بالحزن وبكائها بصفة مستمرة.

إذن، فالقارئ يعرف من الصفحات الأولى للرواية أنه أمام شخصية، تقر بما فيها من صفات معيبة، ومن ثم يستشف أن الكاتبة أرادت بذلك أن تقترب من موضوع شائك، اعتبر لفترة طويلة من التابوهات الممنوع الاقتراب منها، وهو موضوع الاكتئاب الذي انتشر بين فئات متعددة من المجتمعات، خاصة الغربية منها، بعد أن فقد الفرد شعوره بالطمأنينة على يومه وغده، مما جعله فريسة للاكتئاب، ذلك الشبح الذي أصبح يشكل تهديدًا للنفس البشرية، تلك النفس البشرية التي تشبه جبل جليد، يختفي الجزء الأكبر منه عن العيون، ولا يبدو منه على السطح سوى الجزء الأصغر.

فهناك كثير من البشر يعانون في صمت من اضطرابات نفسية متعددة، يمكن إرجاع أسبابها إلى طبيعة الحياة اليومية ذات الوقع السريع، وتعقيداتها المتنامية. يأتي على رأس هذه الأمراض الاكتئاب؛ ذلك المرض الذي أصبحنا نطلق عليه مرض العصر، الذي لم يعد يفرق بين كبير وصغير، ولا بين غني وفقير، الرجل والمرأة

أمامه سواء. ومن المعروف أن البعض يطلق على الاكتئاب "المرض الأخرس".

طالعتنا مؤخرًا بعض الإحصاءات التى تشير إلى أن هناك ١٤٠ مليون مريض بالاكتئاب على مستوى العالم، وفي مصر لا يقل العدد عن مليون و٤٠٠ ألف مريض بالاكتئاب. (راجع جريدة الأهرام ٢٠١١/١٠/١٩) مما يتضح معه أننا لسنا بمنأى عن هذا المرض اللعين الذي أخذ يزحف إلينا.

من منا لم يمر بمرحلة حزن شديد أو إحباط!! من منا لم يتعرض لهزة عصبية أو عاطفية، غير أن هذا لا يعني بحال، أن كل من مر بهذه التجارب يعاني من اكتئاب مرضى، إنما هي أعراض اكتئابية يمر بها الأشخاص بين الحين والحين بسبب ما يعانونه من أعباء الحياة وكروبها، لا تلبث أن تزول دون الحاجة إلى تدخل طبي.

ما الفرق إذن بين هذا وذاك؟ ماذا نعرف عن الاكتئاب بصفة عامة، وكيف صوره قلم الكاتبة الألمانية سارة كوتنر في روايتها الأولى "نسخة معيبة"، بصفة خاصة؟ ولماذا اختارت معالجة هذا الموضوع بالذات في الوقت الحاضر؟

حاولت كوتنر من خلال بطلة روايتها المرأة الشابة "كارو هيرمان" تناول موضوع الاكتئاب، الذي ربما اعتبره البعض

موضوعًا مكررًا، بأسلوب جديد، جعلها تلقى نجاحًا كبيرًا وتتصدر به قائمة الكتب الأكثر بيعًا لعدة شهور.

تعرضت كارو، بطلة الرواية، لعدد من المشاكل والأزمات، جعلتها لا تقوى على الاستمرار في حياتها اليومية بشكل عادي، فقررت أنها بحاجة إلى علاج نفسي متخصص، إلا أنها ترددت كثيرًا قبل الإقدام على هذه الخطوة، مثلها مثل كثير من المرضى النفسيين. فرغم أن الاكتئاب قد انقض عليها بوجهه القبيح، وأحال حياتها إلى جحيم لا يطاق، فإنها آثرت أن تعاني في صمت، في محاولة لإخفاء مرضها عن المحيطين بها، حتى لا توصف بالجنون.

يرجع السبب في هذا الخلط بين المرض النفسي والجنون إلى نقص المعلومات الصحيحة عن مرض الاكتئاب، الذي انتشر بشكل ملحوظ خلال السنوات الأخيرة، وأصبح يعالج كغيره من الأمراض مثل ارتفاع ضغط الدم أو السكر على سبيل المثال، إذا ما خضع للعلاج في مراحله الأولى. فالاكتئاب درجات يبدأ بفترات طويلة من القلق، ويتدرج إلى أن يصل إلى حالات الاكتئاب الشديد.

أما سارة كوتنر فقد استطاعت بقلم الأديب أن تنقل للقارئ صورة واقعية متناهية من الدقة العلمية عن أعراض الاكتئاب وأسبابه، وكذلك إمكانات علاجه، ولكن دون أن تخلو الرواية من

لمحات من المرح والفكاهة، مما يجعل الرواية مادة ثرية للمعرفة والتسلية في ذات الوقت.

نتعرف على بطلة الرواية في الصفحة الأولى من الرواية وهي جالسة أمام طبيب نفسي لتطلب منه العون. فتصف البطلة على مدى الرواية الخوف الذي ينتابها، كما لو كان بركانًا ثائرًا، أخذ يصب حممًا من الحزن واليأس وخيبة الأمل بداخلها، بعد ما تعرضت له من صدمات متتالية، فاقت طاقة احتمالها.

تستعرض الكاتبة أعراض المرض من خلال وصف البطلة للمشاعر المتباينة التي تنتابها، بأسلوب أدبي متميز. شعرت بطلة الرواية كارو برغبة في الانطواء والبعد عن حياتها اليومية المعتادة، وكذلك دائرة معارفها؛ بل وأصبحت تنظر نظرة تشاؤمية إلى حاضرها ومستقبلها، مما انعكس عليها في شكل أعراض عضوية؛ فأصبحت تعاني اضطرابات في النوم، وفي ضربات القلب، وكذلك فقدانًا للشهية وانعدام الرغبة في الحركة أو ممارسة أي نشاط.

أما أسباب المرض، فقد تمكنت سارة كونتر بحِرفية أن تدخل بعض المعلومات العلمية الموثقة في نسيج الرواية، بلغة أُدبية بالغة البساطة. فانطلاقًا من المعلومات التي أثبتتها الأبحاث العلمية بالأرقام؛ جاء فيها أن المرأة أكثر تعرضًا للإصابة بالاكتئاب من الرجل، وأن الاكتئاب مرض وراثي.

قامت الكاتبة بتصوير شخصية أم البطلة باعتبارها مريضة اكتئاب سابقة، تعرف معنى معاناة المرأة من هذا المرض المزعج، وتسعى جاهدة إلى إقناع ابنتها بطلب المساعدة الطبية دون حرج، بل وتقوم بدور المرشد لها أثناء فترة العلاج.

لم تغفل كوتنر دور التربية الخاطئة، وما تتركه من جروح غائرة في نفس الطفل، وكيف أنها لا تطفو على السطح، إلا عندما تظهر حالة الاكتئاب الفعلي. جاء على لسان الطبيبة النفسية المعالجة لكارو، بطلة الرواية، أن والديها كانا يتركانها وحدها لفترات طويلة، وهو ما تذكرته بطلة الرواية بالفعل، لقد استرجعت بطلة الرواية إحساسها الشديد بالوحدة، ذلك الإحساس الذي لم يفارقها، حتى وهي تعيش وسط الناس.

تذكرت كارو أيضًا أن أمها كانت تعاملها أثناء طفولتها بقسوة، لما كانت تعانيه من اضطراب مزاجها أثناء فترة الاكتئاب، التي مرت بها الأم، ومن ثم فإنها لم تمنح ابنتها الدعم العاطفي الذي يحتاجه الطفل من والديه.

يعد انفصال الوالدين أحد أهم الأسباب التي تؤثر في نفسية الأبناء بصورة سلبية. ربما يستغرق ظهور تأثيرها بعض الوقت، إلا أنه لا يمكن إغفالها، ولا تلبث أن تطفو على السطح، ويظهر تأثيرها

السلبي عند التعرض لهزة نفسية شديدة. يظهر ذلك واضحًا وجليًا في حالة كارو، بطلة الرواية. فبعد انفصال والديها شعرت الابنة أنها تفتقد الأب في حياتها. حاول الأب أن يظهر لابنته حبه وحنانه بطريقته الخاصة، إلا أنه لم يستطع توصيل هذه الأحاسيس إلى ابنته.

جاء قرار البطلة باللجوء إلى طبيب نفسي، بناء على نصيحة الأم – مريضة الاكتئاب السابقة – كأكبر دليل على زيادة وعي المجتمع الغربي بأهمية وضرورة الاستعانة بمتخصص، ليتولى العلاج بأسلوب سليم، أملاً في الشفاء الذي لم يعد بعيد المنال.

أيدت الكاتبة هذه الفكرة من خلال اطلاع القارئ على أساليب العلاج الحديثة، ووصفتها بصورة أدبية، لتزيل رهبة هذه الخطوة عن الذين يترددون في بدء العلاج، ولتكسب تعاطف القارئ مع البطلة، ومشاركتها معاناتها أثناء فترة المرض والعلاج، ثم ليسعد معها باقترابها من الشفاء.

حازت التجارب العاطفية التي مرت بها بطلة الرواية على نصيب كبير من الرواية؛ فاستطاعت الكاتبة أن تعرض أنماطًا مختلفة من الرجال، ولكن دون العزف على وتر ثنائية الرجل والمرأة، التي طالما طرحت للنقاش، ولا لفكرة الاضطهاد الذي تتعرض له المرأة في المجتمعات الذكورية.

يلعب الرجل في الرواية أدوارًا متعددة؛ فهو الأب الذي يهمل دوره في تربية ابنته، وهو الصديق الوفي، الذي يقف بجانب صديقته، ليظهر المعنى الحقيقي للصديق وقت الشدة، ثم هو صورة أخرى من الصديق الذي تقف سلبيته وأنانيته حائلاً في طريق ارتباطه برفيقته. وأخيرًا تعثر البطلة على رجل يحتويها، بكل ما لها وما عليها، ويشاركها معاناتها بسلوكه المتحضر، دون أن تشعر أنه يمن عليها.

ابتعدت الكاتبة في روايتها "نسخة معيبة" عن الإشارة بإصبع الاتهام إلى الرجل، باعتباره هو المسئول عن كل مشكلات المرأة ومعاناتها، ولم تحاول الانضمام إلى طابور طويل من الأديبات، يطلق على ما يكتبنه "الأدب النسائي" أو "الأدب النسوي"، وإنما اختارت لنفسها أسلوبًا خاصًا بها جعلها تفرض اسمها على الساحة الأدبية في ألمانيا.

من هي هذه الكاتبة الشابة، التي اقتحمت الساحة بروايتها الأولى؛ فاستطاعت أن تتقدم قائمة الكتب الأكثر بيعًا لعدة شهور؟

ولدت سارة كوتنر في برلين الشرقية في ٢٩ يناير عام ١٩٧٩. سافرت خلال سنوات دراستها إلى لندن للعمل كجليسة للأطفال، حيث سنحت لها الفرصة للتدريب في مكتب مجلة "شبيجل" الألمانية في لندن.

تعرف المستمع الألماني على سارة كوتنر عام ٢٠٠٠ من خلال صوتها كمقدمة لبرامج الشباب في إذاعة برلين، مقتدية في ذلك بوالدها، الذي يعمل مذيعًا في الإذاعة الألمانية. ثم عرفها المشاهد الألماني منذ ٢٠٠١ كمقدمة لبرامج حوارية متميزة. كان لسارة كوتنر حضور طاغ وقبول كبير لدى جمهور المشاهدين في عدد من قنوات التليفزيون الألماني.

اختصت كوتنر إلى جانب هذا النشاط بكتابة عامود ثابت في جريدة "زود دويتشة تسيتونج" المعروفة. لاقى هذا العامود نجاحًا كبيرًا، دفع دار النشر المعروف "فيشر" لإصدار المقالات مجمعة لما سبق نشره في كتاب من جزأين.

وفي عام ٢٠٠٩ فاجأت كوتنر الجميع بنشر أول رواية لها بعنوان: "نسخة معيبة". وعلى الرغم من أنها باكورة إنتاجها الروائي، فإن الرواية استمرت لعدة شهور على رأس قائمة الكتب الأفضل في ألمانيا. ربما يمكن إرجاع نجاح الرواية إلى كونها ليست مجرد وصف تجربة سيدة شابة، تفقد عملها، ويتركها صديقها فتصاب بحالة اكتئاب، استمرت لمدة عام، ولكنها جاءت في الواقع لتلمس روح العصر بصدق متناهٍ، وتخاطب الرجل والمرأة والشباب والشيوخ على حد سواء.

نالت الرواية إعجاب الجميع بسبب قدرة المؤلفة على استخدام لغة سهلة، استخدمتها في وصف أحداث الرواية وتصويرها، وثانيًا وهو الأكثر تميزًا: قدرتها على وصف الحالة النفسية للبطلة، وخاصة نوبات الخوف التي تنتابها.

وصف بعض النقاد أسلوب كوتنر بالسهل الممتنع، لدرجة جعلت البعض يتصور أن الكاتبة تصف تجربة شخصية تعرضت لها، مما جعلها تؤكد على الملأ، أن الوصف من وحي خيالها، وما جمعته من معلومات عن مرض الاكتئاب.

قدمت الكاتبة الدليل على تمكنها من أدواتها في حفل التوقيع على النسخ الأولى من الكتاب، الذي حضره ما يزيد على خمسة آلاف مشاهد. أدارت فيه الحوار بنفسها باقتدار كوتنر المذيعة والصحفية اللامعة ومؤلفة الكتاب في ذات الوقت، فاستطاعت أن تسيطر على الجمهور لمدة ساعتين كاملتين؛ تقرأ من روايتها والحاضرون يستمعون لها بانبهار شديد.

ملحوظة:

تفرض عليّ الأمانة العلمية في ترجمة الرواية أن أقر، بأنني سمحت لنفسي أن أتحرر في بعض المواقع - القليلة جدًا - من الترجمة الحرفية، فحاولت أن أوصل للقارئ المعنى الذي قصدته

المؤلفة، بأسلوب يتوافق مع طبيعة ثقافتنا العربية، ولا يخدش حياء القارئ، مسترشدة في ذلك بقول الكاتب الألماني الشهير جوته في شأن الترجمة، حيث قال ما معناه: الالتزام بالحرفية بقدر الإمكان، والتصرف بحرية عند اللزوم.

الاكتئاب حدث سخيف
يا للسماء!!

يتصرف طبيبي النفسي الجديد كما لو كان أحد نجوم البوب، يجلس خلف مكتبه بكل ثقة وثبات، وأمامه زجاجة مشروب من النوع الجديد "بيوناده"، ويرسم على وجهه ابتسامة شماتة.. تشبه ابتسامة مقدم البرامج الوسيم نيلز روف.

أفكاري تتشتت، فرغم أنني أعرف مشروب بيوناده كما أعرف نيلز روف من واقع الحياة اليومية، فإنني لا أتصور أن يوجدا في العيادة النفسية التي أتردد عليها.

أتوقع أن تكون العيادة النفسية التي أعالج فيها مكاناً أقل عصرية من هذه العيادة. لا أعرف ماذا يعني كل ذلك بالنسبة لي؟ أفكر فيما إذا كانت مصارحتي للطبيب بما يجول في خاطري سوف تخفف من توتر الموقف. قلت له:

- تشبه نيلز روف بعض الشيء ولكنك أكثر منه رجولة!

يبدو أنني عندما نطقت العبارة بدت كما لو كانت إساءة أكثر منها دعابة.

رأيه مشابه لرأيي.

بدأت أوجز في الكلام وأؤكد أنني أعتبر نيلز روف شخصًا ذكيًا جدًا وشديد الحضور، أما هو- أي طبيبي النفسي الجديد - فهو أقل من نيلز روف عجرفة، ولكنه على العكس منه تمامًا، فهو يتمتع بثقة بالنفس، وذلك برابطة عنقه الأنيقة مع قميصه الوردي ورأسه، بقصة شعره الشبابية.

عمومًا، فأنا أرى طريقته غير التقليدية في اختيار كلماته ليست بالأمر السيئ، ثم لو كان الاكتئاب حدثًا سخيفًا فإن الأمر بالتالي يعتبر عاديًا.

والآن أريد أن أعيد بيع تذكرة دخولي لهذا الحدث لدى وسيط إعلاني، فهل هذا ممكن؟

للأسف لا!

لذلك فأنا هنا، أنا هنا مرة أخرى.

لقد عدت أعاني من نوبات الخوف الذي ينتابني فضلاً عن شعوري بالتعاسة والحزن.. يزيد هذا الخوف من خوفي ومن حزني وتعاستي.

ربما يمكن أن نصفه بأنه شكل حلزوني من الخوف، إنه الخوف من الخوف.

أعرف كل ذلك وأفهمه جيدًا.

ومن الناحية النظرية، فطبيبي النفسي الذي يشبه نجوم البوب يعرف هو أيضًا كل ذلك ولكنه - وهو الأهم - لم يعرفني أنا بعد، أما أنا فقد اعتدت على عيادته وممرضيه؛ لذلك فأنا أستشعر ميزة ألفة المكان.

فهذا الطبيب ما هو إلا بديل لطبيبتي النفسية الدكتورة كليفه التي تعرفني منذ عام كامل، تعرف حكايتي وأوجاعي كما تعرف خوفي الحلزوني ودموعي، ولكنها لا تعرف مقدم البرامج نيلز روف. كانت طبيبتي تشرب المياه وتسمعني باهتمام وجدية، كنت معجبة جدًا بالدكتورة كليفه، ويبدو أن زوجها كان هو أيضًا معجبًا بها؛ فهي الآن ومنذ عدة شهور في إجازة لرعاية الطفل.

لقد بدأت معالم هذا الحدث السعيد تظهر عليها منذ عام، وقتها فرحت معها بهذا الحدث السعيد؛ فقد كنت مثل معظم المرضى في بداية مراحل علاجهم أعتقد أنني لن أكون بحاجة إليها بعد عدة شهور.

وداعًا يا دكتورة كليفه، حظ سعيد مع أطيب التمنيات للقادم الجديد، من المؤكد - وأنت الطبيبة النفسية - أن تربية طفلك ستكون على أفضل ما يكون. لن نلتقي خلال الفترة القادمة، وأعتقد أن ذلك أفضل! أليس كذلك؟

واليوم وبعد مضي عام، ها أنا ذا في الغرفة نفسها وفي عيني دموع جديدة، والخوف الجديد القديم في ذات الوقت يملؤني في حضور طبيب نفسي جديد.

أنا من أنصار التشخيص الواضح المحدد كالسيف؛ لأنه يعد بالشفاء، نسمع وعودًا كاذبة بأنهم - أي الأطباء - قد تعرفوا على أصل المشكلة وأن أمك سوف تتولى كل شيء إلى أن تتزوجي، وقتها سيكون كل شيء على ما يرام.

أنا شخصيًا أفضل - مثلاً - بتر ساق بسبب التشخيص الدقيق، عن إصابة بنوبات الخوف المتلاحقة والتي لا يفهمها أحد ولا يمكن بترها ولا التخلص منها!

الواقع أن هذا هو الوضع بالنسبة لي؛ فأنا ما زلت أسير على قدمي ولكني منغمسة في دورة جديدة من الخوف.

الأمر يبدو كما لو كان الفرد قد فاز بتذاكر غالية الثمن لحضور حفل غنائي لأحد المهرجانات، بينما هو ليس لديه رغبة في حضور هذا الحفل أصلاً.

إن حالة الاكتئاب تشبه حفلاً لمادونا: فهو فعلاً حدث عادي ولكنه حدث فظيع ولا ضرورة له. يبدو أن الطبيب النفسي يفهم عمله كما يجب.

لا بأس، لأنني مذبذبة وخائفة فقد خارت قواي وامتلأت بمعلومات عن نفسي من كل شكل ولون، معلومات تجمعت في رأسي وراحت تتأرجح على مدى عام من العلاج النفسي.

لقد كنت على مدى العام مطيعة، تناولت عقاقير ضد الاكتئاب، نظمت حياتي، وأحسنت لنفسي، كما حاولت أن أشعر بنفسي بدرجة أكبر؛ ولذلك ويا للعنة! فأنا أشعر بالرضا للمرة الأولى منذ فترة طويلة وربما بالسعادة. وفي هذه الفترة الرائعة من إحساسي بالرضا في مرحلة بدأ الحظ فيها ينمو ببطء، في هذه اللحظات الجميلة يطل الخوف الكئيب بوجهه القبيح بين قدمي اللذين ما زلت أسير عليهما فأنكب على الأرض بينما الخوف يسخر مني.

أنا فعلاً جادة؛ فأنا على استعداد أن أستقبل تشخيصًا بتارًا قاطعًا، ولا مانع أن يكون مفزعًا، أنا فعلاً على استعداد لاستقباله فهو كخبز الذبيحة في الكنيسة، لا طعم له ولكن وجوده أمر مؤكد.

يبدو أن طبيبي النفسي – نجم البوب – يملك أدواتــه وعنــده رغبة في تحديد التشخيص القاطع.

المشكلة الوحيدة: أنه ليس لديه فكرة عني، لا يعرف شيئًا عن التاريخ الخاص بالسبعة وعشرين عامًا التي هي ســنوات عمــري، وخاصة العام الأخير منها بكل ما ترتب عليه وكل ما أنا فيه في مثل هذا الزمن اللعين!

يبدو أن الأمر سوف يستغرق بعض الوقت وليس عشر دقائق فقط؛ فالطبيب النفسي لديه وقت، وزجاجة المياه الغازية مــا زالــت ممتلئة.

منذ عـــام مضى

أنا إنسانة متعِبة

يبدو أن الموضوع أمر عرضي.

يبدو الأمر طريفًا ومداعبًا بعض الشيء، بل وساخرًا من ذاته.

في واقع الأمر يبدو الموقف مثل صورة الحبيبة كما يريـــدها الحبيب: لا هي شديدة الظرف والعـــصرية وكـــوول (كمـــا يقـــول الشباب)، ولا هي بالمرأة الناضجة، ربما يريد الطبيـــب أن أشـــترك معه في تجربة فريدة.

أنا إنسانة متعِبة:

فأنا سريعة الغضب، حزينة، يمكن شحني بسرعة، فضلاً عن كوني جهورية الصوت.

يبدو الموضوع في أول الأمر لطيفًا بالفعل؛ فكارو – التي هي أنا – إنسانة حساسة جدًا؛ فبينما يشاهد بعض الشباب عنـــق زجاجـــة الكوكاكولا وهو يطير على شبكة الإنترنـــت دون أن يطـــرف لهـــم رمش، فمن الجميل أن يكون هناك من لا يزال مرهف الإحساس.

ولكني أستطيع أن أؤكد أن هذا الأمر مرهق للغاية، مرهق لمن حولي، ومرهق لي أنا على وجه الخصوص.

الأحاسيس مجهدة؛ فالكل يعرف أن الحزن والألم والصدمات كلها أمور صعبة جدًا، الكل يتفق على ذلك. ولكن الفرح أيضًا مجهد، فلا شيء يثير الإنسان أكثر من أن يكون بجانب شخص حبيب إلى نفسه ولكنه في ذات الوقت يشعر بحاجة شديدة إلى أن يكون أكثر قربًا منه، حتى لو عانق هذا الشخص واحتضنه بشدة فهو يحتاج إلى الاقتراب منه أكثر وأكثر. إنه ما يسمى بالتسلل داخل المحبوب (باستثناء التلاحم الجسدي عند الاتصال الجنسي) فإنه لا يمكن التسلل داخل المحبوب، وبالتالي لا يمكن الوصول إلى القرب المنشود.

الشوق إلى المحبوب، يا للرومانسية التي يوصف بها الاشتياق إلى الحبيب كريس دا بورج ***Chris-de-Burgh***(*)!

الاشتياق إلى المحبوب شيء فظيع، فإذا شعرنا بالاشتياق، فلا شيء يلهينا عن التفكير ولا حتى بالذهاب إلى السينما؛ لأن الأفلام تنتهي دائمًا نهاية سعيدة عندما يلتقي الحبيبان.

(*) اسمه الحقيقي كريستوفر جون دافيسون من مواليد عام ١٩٤٨. مؤلف أغانٍ ومغنٍ بريطاني، ذاعت شهرته بعد أغنية "السيدة ذات الرداء الأحمر" ١٩٨٦. (المترجمة)

أما فرحة اللهفة إلي اللقاء فليست هي الفرحة الكبرى كما يظن البعض، فما هي إلا الأخت التوأم للاشتياق، وبالتالي فهي أيضًا كلام فارغ.

هذه أنا، وهذه طريقة تفكيري. أنا إنسانة متعبة، ولا أدعي الظرف بقولي هذا، فأي إحساس داخلي سواء كان إيجابيًا أو سلبيًا يتضاعف في فترة وجيزة ليتحول إلى مأساة، فتتكون بداخلي كرة من نار، وأهيج كالثور لا أرى أمامي إلا اللون الأحمر.

الأشياء الصغيرة تثيرني، بل ويمكن أن أصبح كالفيل بسبب ذبابة، ليس أي فيل وإنما الفيل الذي يقتل للانتقام.

حدث ذات مرة أن أخذ شخص مكانًا لركن السيارة كنت أنا الأحق به وذلك بعد بحث استمر ثلاثة أرباع الساعة، فما كان مني إلا أن نزلت من السيارة وبدأت أقارع السيدة التي أخذت المكان بالحجة، ولما فشلت في ذلك بدأت أبكي من شدة ثورتي وأخذت أسب السيدة بأقبح الألفاظ. وحيث إنها كانت أمًا كما اتضح لي من بعض مقاعد الأطفال الموجودة داخل السيارة فقد أمطرت الأطفال رغم عدم وجودهم بالسيارة بوابل من السباب والشتائم. في هذه المواقف لا أستطيع التوقف، فالعرض يستمر بين صياح ونزاع، صراخ ووعيد، إلى أن تخور قوى الشخص الذي أمامي ويضطر إلى

الاعتذار. ولما كان هذا الاعتذار لا يرضيني في حالات كثيرة فأنا دائما لست راضية، بل وثائرة وأشعر بخيبة الأمل والحزن.

تسبب الضوضاء التي أثيرها ضيقًا لمن حولي، أما المشاهد للوضع عن بعد فالأمر مسلٍ جدًا: انظر تعالَ لترى كارو تخرج دخانًا من أذنيها، انظر كيف اكفهر وجهها واحمرّ وهي تصيح وتقفز، إنه حقًا مشهد ظريف!!

ربما كانت مراقبة الموقف عن بعد فعلاً شيئًا لطيفًا وظريفًا إلا أنني لا أقبل أن يراقبني أحد عن بعد. مجرد التفكير في كوني قد وقفت وأنا أشتعل غضبًا أمام أم تقود سيارتها الصغيرة بداخلها كرسي للأطفال وأسبها بأنها خنزيرة، مجرد هذا الإحساس يثيرني ويزيد من غضبي.

اعتاد الأشخاص الطبيعيون في مثل هذه المواقف أن يسارعوا بالعد من واحد إلى عشرة، أما أنا فلا يمكنني الوصول حتى إلى رقم ٢، وإنما أنفجر فورًا، كما لو كنت أنطلق بسيارة على الطريقة "الأمريكاني" – كما يقولون – من سرعة صفر إلى مائة، فلو كنت أقود سيارة سباق لالتف حولي شباب القرية لتشجيعي.

وبمرور الوقت أشعر بالحرج الشديد من اضطرابي وقلقي؛ صحيح أنني لا أشعر بالحرج ساعة أن أسب أطفال السيدة – سارقة

مكان ركن سيارتي – وأدعو عليهم ألا يتلقوا تعليمًا أبدًا ويبقوا جهلاء، كذلك لا أشعر بالحرج بعدها بعدة ساعات أمضيها في الاتصال بأصدقائي كي أحكي لهم الظلم الذي وقع عليّ، أما عندما أخلو إلى نفسي فإنني أبدأ في الإحساس بالخجل، ولكن بمجرد ظهور عدو جديد فإنني أنطلق بأقصى سرعة كما لو كنت أسرع موتور على وجه الأرض.

أنا لا أتعلم من أخطائي.

قررت الذهاب إلى طبيبة نفسية:

الواقع أنه ليس لديّ مشاكل كبيرة بالمعنى المتعارف عليه، ولكن هذا لا يعني أنني خالية من المشاكل؛ فذاتي الغاضبة والثائرة باستمرار تتعبني جدًا وتسبب لي نوعًا من عدم التوازن، لقد فقدت وظيفتي في وكالة لإدارة المناسبات. كانت وظيفة ممتازة، فبعد فترة التدريب تم تعييني، مما أسعدني أيما سعادة. كان عملي هو بيتي، ولكني فقدت الوظيفة منذ ثلاثة أشهر، والآن تقوم جدتي سرًا بتحويل قيمة إيجار المنزل الذي أعيش فيه، وأعمل أنا بين الحين والحين جرسونة في حانة.

كوني بلا عمل جعل لديّ من الوقت ما يمكِّنني من تنظيم حياتي؛ فبدأت بتصنيف بعض العلاقات التي كانت قد انقطعت، فمنهم

من أخذ جانبًا من تلقاء نفسه، ولديّ إحساس- لكي أكون أمينة في العرض- أنهم أرادوا أن يبحروا بعيدًا عن الكائن المخيف الذي هو أنا.

بالسلامة، لا بأس فأنا لست بحاجة إلى من لا يقدرني ويحبني، لن أتعثر بل سوف أصرّف أموري بنفسي بأي شكل كان، لا مفر من ذلك.. لا مفر.

جمرة أخرى تشتعل من مرتفعات حياتي ومنخفضاتها يشعلها صديقي فيليب. الواضح أننا لم نخلق لبعضنا، ولكننا نحاول منذ ما يزيد على عامين بنجاح أن نتغلب على هذه الخلافات البسيطة. في الواقع أن كل واحد منا يتصور أن الآخر أحمق، فكل شيء في فيليب يثيرني، بينما يجد هو في كثير من تصرفاتي ما يغضبه، يفكر كل منا في الفراق ولكننا لسنا قادرين على اتخاذ هذه الخطوة، أتصور أننا نشعر بالخوف من الشعور بالوحدة، فالأفضل أن نستمر في علاقة مليئة بالخلافات وتقتصر على الاهتمامات المشتركة عن ألا تكون بيننا علاقة.

هكذا نحن الشباب المتحفظين نحتاج للشعور بالأمان رغم أننا نتسم بالكسل والجبن. لست راضية عن حياتي ولكني لا أستطيع أن أقول إنني أشعر بالمعاناة، بالمعنى التقليدي، بل يمكن أن أقول إنني

لم أصل بعد إلى مرحلة النضج التي تسمح لي بتلقي العلاج. كل ما هنالك أن لديّ وقتا طويلاً وفضولاً شديدًا.

أريد أن أعرف رأي طبيبة متخصصة في شخصي أنا وكيف تقيّمني. يبدو كما لو أنني أريد أن يطرح لي أحد أوراقي أمامي على المائدة، أما أمي فهي خبيرة في الشئون النفسية عامة والاكتئاب خاصة، فهي ترحب بفكرة أن أتحدث إلى شخص متخصص؛ لأنها تعتقد أن شيئًا ما يدور بداخلي منذ فترة، وبالتالي رشحت لي طبيبة نفسية تعالج زميلة لها؛ وهي الطبيبة النفسية الحاصلة على شهادة التخصص.. إنها السيدة جورليش.

حصلت على موعد بالتليفون لإجراء اختبار، استخدمت الطبيبة مصطلحًا غير "اختبار" ولكن دعنا نقول الصراحة، فالمقابلة بالفعل هي بمثابة اختبار لتحديد وضع معين: هل أنا معتلة بما فيه الكفاية ليكون لي الحق في تلقي العلاج؟ هل في حياتي من العقبات ما يجعلني أحتاج إلى مساعدة؟ كل هذه الأفكار دارت في ذهني قبل اللقاء الأول مع الطبيبة، بل لقد وضعت بعض الموضوعات في الاعتبار وبدأت التجهيز لها، إلا أنني فشلت بسبب ما أحتفظ به من مخزون للملابس وعلى وجه الخصوص بسبب قلة خبرتي. ماذا يجب أن يرتدي الفرد بحيث يبدو أنه فعلاً بحاجة إلى مساعدة نفسية؟

والأهم من ذلك: هل أرغب فعلاً في أن أظهر بحاجة إلى مساعدة؟ أليس من الأفضل بالنسبة لي أن يبدو كل شيء لديّ على ما يرام؟

ربما تسري هنا أيضًا نفس القاعدة المستخدمة مع باقي الأشخاص: أن يبدو الشخص طبيعيًا بقدر الإمكان.. كن نفسك! أريد أن أبقى كما أنا! ***Make the most of now*** (استفد أقصى استفادة من الوضع الحالي).

استند إلى أربع دعائم للإفادة من الحاضر:

ارتديت ملابس عادية جدًا، ولكنني أعددت قائمة مكتوبة بدقة وضعت فيها نقاط الضعف في شخصيتي وعدّدت فيها مشاكلي (فأنا أميل إلى نسيان الأشياء المهمة، فأنا واحدة من هؤلاء الذين يعيدون الاتصال بالشخص الذي تعاركت معه لكي أقول له: أريد فقط أن أضيف أن ..) كذلك أضفت للقائمة التي أعددتها ملخصًا عن أهم الأحداث التي مرت بي خلال فترة طفولتي وشبابي. هذا ما أخذته معي وأنا ذاهبة لأول جلسة نفسية في حياتي.

ليس لديّ أي تصورات مسبقة أو مخزونة في ذاكرتي عن شكل الطبيب النفسي عمومًا، إلا أنني من الذكاء بمكان بحيث لا يمكن أن أتوقع وجود شيزلونج للاسترخاء عليه، ولا أن أتوقع

سيدة عجوز ترتدي نظارة طبية وتمسك بيدها دفترًا تدون فيه ملاحظاتها، فأنا متقفة وواعية.

أنا مؤمنة بأن العلاج النفسي ليس عارًا كي نخفيه، فأنا أعلم أن كل واحد من بين عشرة مواطنين يعاني من الاكتئاب أو من مرض نفسي آخر، وأعلم كذلك أن الروح يمكن أن تمرض، تمامًا كما تمرض المعدة أو الأوعية الدموية، كما أعرف جيدًا أن الشخص لا بد أن يكون على استعداد كامل لأن يكون واضحًا وصريحًا كي يتلقى المساعدة.

صعدت درجات السلم الحلزوني في طريقي إلى عيادة الدكتورة جورليش، يملؤني الحماس ولكنه ربما لم يكن بالقدر الكافي لأنني بدأت أشعر بالدوار. وجدت الطبيبة في انتظاري عند الباب بقولها:

- مهلاً، مهلاً!

لقد التقطت بذلك أول عيوبي، فأنا قلقة جدًا وقليلة الصبر، فكل شيء عندي لا بد أن يتم بسرعة وبدون انتظار، كل شيء لا بد أن يتم في التو واللحظة؛ فأنا أشتري ملابس دون أن أجربها، وأعرف ما يناسبني ويليق بي، فليس لديّ وقت لدخول غرف البروفة. أنا مثلاً لا أطبخ الطعام، ليس لأني لا أجيد الطهي ولكن أعصابي لا تتحمل

الجهد المبذول. أفضل البوفيه المفتوح، فالأكل جاهز باستمرار. إذا انزلقت من يدي البيضة أثناء القلي عن القالب المخصص لها، اشتعلت غضبًا لذلك فأنا أدفع في البوفيه المفتوح كي يكون كل شيء متوفرًا في التو؛ ففي هذه الحالة عليكم إعطاء الطباخ تعليمات أن تكون البيضة البديلة جاهزة في الحال، وهكذا.... إذن شكرًا!!

هذه السرعة لا تعني أنني لا أولع بالأشياء؛ فأنا أحب الملابس وأحب الطعام، السرعة عندي تعني أكثر من ذلك.. شراء ملابس جميلة أكثر والتهام طعام شهي أكثر، لا وقت لديّ لأضيعه، لن أنتظر أكثر من ذلك.

جلست في مقعد جلدي أمام الطبيبة وأنا أشعر ببعض الدوار. المقعد الذي أجلس عليه لا يشبه تلك المقاعد الوثيرة التي كان الأجداد يجلسون عليها، وإنما كان مقعدًا من المقاعد الحديثة مثل ذلك الذي يظهر في المسلسلات، مقعدًا دوارًا يقف على رجل واحدة. أعتقد أن المقعد يناسبني تمامًا؛ فأنا قلقة ومتململة وأحتاج دائمًا أن أحرك أي شيء؛ فأثناء وجودي في غرف الانتظار على سبيل المثال أتأرجح بالكرسي إلى الخلف وإلى الأمام. لو كنت أتأرجح على كرسي جدي العميق لتصور البعض أنني أعاني من التوحد، ولكنني لا أريد أن أترك هذا الانطباع عند أول مقابلة مع الطبيبة، رغم أن ذلك يمكن أن

يكون تذكرة مرور لمنحي فرصة للعلاج. ولما كنت أريد أن أظهر مشاكلي الحقيقية فإنني اكتفيت بأن أدير الكرسي يمينًا ويسارًا ببطء.

السيدة جورليش لها عينان زرقاوان واسعتان حادتان ووجه عريض؛ دار في ذهني تساؤل: هل يحدد اختيار اللجان الطبية للأطباء النفسيين الجدد الذين يتعاملون مع المرضى بناء على مظهرهم؟ إذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن تمتلك هذه الطبيبة عيادة خاصة، فهي في الأربعينيات من عمرها، تسريحة شعرها القصير المموج بطبيعته، تسريحة جميلة، كل شيء فيها يبدو طبيعيًا بحيث شعرت بجانبها أنني ضخمة وملابسي غير منسقة. بدأت الطبيبة حديثها قائلة:

سيدة هيرمان، لماذا حضرت إلى هنا؟

لقد استعددت لهذا السؤال على أكمل وجه؛ بدأت الحديث كما لو كنت فتاة في الثانية عشرة من عمرها طلب منها أن تلقي محاضرة مملة. سردت لها مشكلاتي الحالية مع نفسي، وظيفتي التي كنت أحبها وفقدتها، ثم الأصدقاء الأغبياء الذين لم يعودوا أصدقاء، والصديق الذي لا أحبه ولكنني ما زالت مرتبطة به، حكيت لها كل ذلك بالإضافة إلى ذلك الجزء من حياتي الذي أعتقد أنه مهم نفسيًا، لقد عشت طفولة مملة مع أم تشعر بالتعاسة، تذكرت أمًا كانت تنزلق

من بين يديها بين الحين والآخر صفعات لتستقر على وجهي، كـذلك استرجعت صورة أب حنون كان خلال سنوات صباي الأولى والتـي كنت فيها بحاجة شديدة إلى بعض الحب، يهتم أن يعرفنـي بأمهـات كتب الأدب العالمي.. بالمناسبة فوالدي ووالدتي منفصلان وبعـد أن تزوجت أمي أصبح لي زوج أم يحبني كابنته ولكن كما لا يجـب أن يكون الحب. أما جدي الحبيب فقد توفي عندما كنت في السابعة.

أخذت نفسًا عميقًا ثم اتكأت بظهري على المقعد.

هذه عينة بسيطة من العثرات التي وضعت في طريق إنـسان في مقتبل حياته وبصحة جيدة. لا أعتقد أنني قادرة على أن أقنع أحدًا بأنني أحيا هذه الحياة منذ عدة سنوات. حالي على مـا يـرام، لقـد مررت بكل هذه المراحل، ولكن كان ذلك منذ فترة من الزمن.

أعتقد أن جزئية زوج أمي تحتل مكان الـصدارة فـي هـذه الموضوعات، ولكني - والحمد لله - قد تمكنت من أن أنهـي هـذه المرحلة بسلام.

أما حياتي الجنسية فهي رغم كل شيء سـليمة وتـسير بـلا مشاكل، بعد أن قاطعت هذا الجزء الكئيب من عائلتي نهائيًا، رغم أن ذلك جاء متأخرًا بعض الشيء.

ألقيت نظرة مترددة على القائمة التي أعددتها خوفًا من أن أكون قد نسيت شيئًا منها وأنا انتظر أول رد فعل متخصص في شأن حياتي.

أنا راضية عن أدائي اليوم ولكني قلقة، هل أحمل على ظهري ما يكفي من البلاء لأمثل بين يدي آخرين؟ هل يكفي أن أثبت أنني وصلت لهذه الدرجة من المعاناة كي أطلب من التأمين الصحي أن يدفع للدكتورة جورليش مائة يورو في الساعة؟ أم أن مشاكلي تعتبر مشاكل رفاهية زائدة؛ فأنا لست الوحيدة في هذه الدنيا التي انفصل والداها، ووالدها مريض، فضلاً عن أن بداية حياتها الجنسية مشكوك فيها. هل يعالج كل من له مثل هذه المشاكل على نفقة التأمين الصحي؟

في البداية لم تقل الدكتورة جورليش أي شيء ثم قالت لي:

- خذي نفسًا عميقًا!

مدهش!! فالتنفس يعتبر بالنسبة لي من الأشياء القليلة التي أجيدها دون الحاجة إلى مساعدة. ولكني أريد أن أكون مطيعة وغير متضجرة، لذلك فقد أطعت وأخذت نفسًا عميقًا.

- والآن: حاولي التنفس إلى الداخل!

لا بأس، إذا كان ذلك سوف يساعدني؛ ولكنني في الحقيقة لا أفهم معنى أن أتنفس إلى الداخل. ثم إني في الوقت الحالي ليس لديّ من الأعصاب ما يجعلني أمارس تدريبات للتنفس، أنا في حاجة إلى تشخيص!

لكي أملأ رئتي بالهواء اضطررت أن أبرز بطني إلى الأمام، أجيد ذلك فأنا كما سبق أن ذكرت أحب الأكل، فإذا كان الأمر كذلك فباستطاعتي أن أتنفس من مؤخرتي، ولكن لم يطلب مني أحد ذلك.

وأخيرًا، تنطق السيدة جورليش بشيء صحيح، شيء مفاجئ لشدة بساطته.

- يبدو أنهم كانوا يتركونك وحدك مددًا طويلة!!

لديّ ما يكفي من الوقت كي أتعجب من هذا التشخيص المختصر. ثم، ثم انخرطت في البكاء، كما لو كان شيئًا قد انفجر بداخلي فانهمر فجأة خارجًا مني فأجهشت بالبكاء مثل الأطفال. كل شيء بداخلي كان ضئيلاً وحزينًا، اجتاحتني موجة كبيرة من الألم؛ ألم العالم بأسره، شعرت بأنني مثل الذي يمسك بلوح خشبي لركوب متن الأمواج المنكسرة فابتلعته الأمواج، المياه تحيط بي من كل جانب؛ مياه منهمرة.

ولأني لا أريد أن أضيع الوقت فقد فكرت أثناء انهمار الفيضان: كيف وصلت إلى قاع المياه؟ يا للعجب!! لا أعلم كيف وصلت إلى هنا. راجعت كل مشاكلي المهمة كي أتوصل إلى الوعاء المناسب لهذا الغطاء المبلل، ولكنه لا يناسب أيهم. فالماضي أصبح بعيدًا بحيث لا أشعر بأي ارتباط به؛ لذلك استمررت في البكاء دون الوصول إلى نتيجة مرضية. إن محاولتي تحليل الذات جاءت في شكل طاعة متعجلة لم أتوقعها من نفسي.

تأملتني الدكتورة جورليش في هدوء وناولتني منديلاً فما كان مني إلا أن ضحكت؛ لأن الموقف يبدو نمطيًا؛ علبة المناديل على مقربة مني، ولكني لم ألبث أن انغمست في حاضري المبلل.

الواقع أنني لا أعاني من شيء ولا أشعر بالألم، ولكن البكاء يعتبر عيدًا كبيرًا وارتياحًا شديدًا بالنسبة لي.

لقد شرح لي أحدهم ذات مرة أن الرأس تفرز عند التوتر الشديد دهونًا ومواد أخرى بغزارة، وتساعد الدموع على إخراجها من الجسم، تمامًا مثل غسيل المعدة ولكنه غسيل للرأس، بعدها يشعر الشخص بالهدوء ويكون مستعدًا لمصائب جديدة.

ولكنني عندما تكون لدىّ الرغبة للبكاء، فإنني أريد أن أعرف لماذا.

أما الآن، وحيث أنا، فالأمر ليس كذلك.

استمرت الدكتورة جورليش في النظر إليّ بهدوء وتركتني أذرف الدمع للنهاية.

وبعد مضي فترة، عندما تحرك مفتاح الإغلاق في جهاز الطرد الخاص بي، انزلقت مني كلمة "هه" (خلاص).

ابتسمت الدكتورة جورليش ولكنها لم تقل أي شيء. لقد نظر جهاز التحكم العجيب بداخلي من منطلق الإحساس بالمسئولية إلى الساعة، فجففت دموعي وحاولت إحياء الحديث السابق وقلت: ماذا بعد؟

- خذي نفسًا عميقًا مرة أخرى!

حسنًا، توفيرًا للوقت بدأت مرة أخرى أتنفس إلى الداخل، ولكني الآن أريد إجابة قاطعة.. ممَّ أعاني؟ لماذا حدث ذلك؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل اجتزت التجربة؟ هل يمكن مساعدتي؟

ابتسمت الدكتورة جورليش ابتسامة خبير.

أتمنى أن أكون قد أعجبتها جدًا، ولكني أعرف أنها تبتسم بسبب قلة صبري. لقد كنت هذه المرة أيضًا أسرع مما يجب، فقالت في هدوء:

– راقبي نفسك على مدى الأيام التالية، كيف سيكون حالك بعد جلسة اليوم. ثم فكري إذا كنت ترغبين في الحضور إلى هنا بانتظام، هل تشعرين أنني الشخص الصحيح بالنسبة لك؟ إن هذا شيء مهم جدًا.

وددت لو أنني صحت قائلة: نعم أريد، أريد جدًا! كيف تسألين مثل هذا السؤال؟ متى يمكنني أن أحضر مرة أخرى؟ ومتى تتصورين أنك يمكن أن تشفيني؟

إلا أن مشاهدتي للتليفزيون على مدى سنوات طويلة منعتني أن يكون رد فعلي على النحو الذي كنت أريده.

أنا الآن في حالة استدعاء إلى هنا مرة أخرى، ولكن هذا لا يعني بحال أننا سوف نشترك في تسجيل ألبوم معًا. إن الاستقامة الجديدة تكمن في الاسترخاء، لذلك قلت لها:

حسنًا. وسجلت لنفسي الموعد التالي بعد أسبوع.

لقد تعلمت من أخطائي وهبطت السلم الحلزوني بهدوء وبخطى منتظمة.

وعلى الرغم من أنني بكيت بما فيه الكفاية وأصبحت منهكة القوى، فقد شعرت وأنا أسير في الشارع كما لو كنت نسخة مصغرة

من فيلم درامي فرنسي لمخرج متواضع من هوليوود، فيلم درامي ولكنه ليس بالكئيب؛ فأنا أذهب الآن إلى جلسات العلاج النفسي. هكذا! الأمر إذن ليس مؤلمًا.

سيطر عليّ الأسبوع التالي شعور بحزن عميق، بما يمكن أن أشبهه بالبطانية الصوف البنية اللون عليها رسومات رؤوس أحصنة. أشعر باستمرار بأنني مثل جمرة النار.

انقبض قلبي فجأة أثناء جولة للتسوق مع صديقي وملأت الدموع عيني، فقررت على سبيل الاحتياط أن نجلس معًا في أي مكان ونشرب قهوة، اعتدنا أنا وفيليب أن نجلس متقابلين في صمت، يدخن هو وأدخن أنا أيضًا، فالتدخين يعتبر من الأشياء القليلة التي تجمعنا. بدأت محاولة متأنية أن أشركه في تفاصيل حياتي فأخذت أحكي له عن جلسة العلاج النفسي الأولى وما أشعر به من اكتئاب. بدا رد فعله كأداء ممثل غير محترف جال بنظره بسرعة ما بين جبهتي وشيء ما خلفي. أخذ يدق بأصابعه على سطح المائدة الزجاجية المتسخة التي نجلس حولها ثم بدأ الحديث ونطق ببعض العبارات التقليدية دون أن يتدبرها:

- يعني أن أمورك لا تسير على ما يرام، انتظري ماذا سيحدث، فغدًا يوم آخر!

يا سلام! فكرة رائعة يا أيها البوق الأجوف.

صَحْت قائلة بصوت عالٍ: غدًا يوم آخر، يوم آخر لا يمكنني فيه أن أتوصل إلى سبب هذا الأسى الذي يزحف إلى داخلي.

لا أجد ما أقوله في سري سوى: فعلاً يا صبر أيوب معك يا فيليب!

أعتقد أننا ضللنا الطريق داخل غرفة المرايا التي تعكس صورًا ضاحكة، فعندما نكون معًا لا يكون الواحد منا هو ذاته، وإنما يصبح صورة ممسوخة لما يريد الواحد منا أن يرى الآخر عليه؛ فبينما يقوم فيليب بمحاولات لإرضائي لا يفكر خلالها فيما يقول، ولا ينطق إلا بكلمات كفقاعات الصابون. بينما هو يفعل ذلك يمنعني عنادي أن أرضى بما يقول وأحاول دائمًا أن أضعه تحت الاختبار على أمل أن أجد فيه شيئًا يفاجئني ويمكن أن أحبه من خلاله، إلا أنني كل مرة لا أجد فيه أي شيء.

في الواقع أن هذا سبب كاف للحزن الذي أشعر به؟ إلا أن هذا في الواقع ليس هو السبب الحقيقي، فأنا أحاول باستمرار أن أرتب هذا الإحساس الملعون وأوازن بينه وبين حياتي الحالية ولكن بلا جدوى، تمامًا مثلما أمسك بقطعة من لعبة البازل ***Puzzle*** لأضعها في مكانها الصحيح. أحاول أن أجد في حياتي المكان المناسب لهذا

الحزن فلا أتعرف على مكانه. أحمل الهم وأشعر بالتوتر عندما أتذكر جملة الدكتورة جورليش التي ظلت تدور في رأسي طول الوقت:

"يبدو أنهم كانوا يتركونك وحدك مددًا طويلة!"

وأخيرًا فهمت! أنا أرثى لحال نفسي، أنا حزينة على نفسي؛ فأنا أرثى لحال الطفلة الصغيرة كارو التي كانت أمها تضربها بحذاء المنزل عندما لا تقوم بترتيب سريرها!!

أرثي لحال كارو الصغيرة التي كانت بحاجة إلى حضن أبيها قبل أن تحتاج لمعلومات أدبية!!

أرثي لحال كارو الصغيرة التي استطاعت أخيرًا وهي في الثانية عشرة من عمرها أن يكون لديها الجرأة على مصارحة زوج أمها بأنها لن ترضى بعد الآن أن يقبل مؤخرتها.

لقد بدأت دون وعي أخجل من نفسي؛ فرثاء الشخص لنفسه يؤدي إلى حزن لا يمكن أن يتحمله أحد وهو مرفوع الرأس، رثاء الذات ليس من الأناقة في شيء ولا يزين صاحبه إنما هو كئيب وممسوخ.

في الوقت المناسب، وقبل أن أسمح لنفسي أن أحمل رثائي لنفسي مثل تاج على رأس وأبدأ في العويل جالت بخاطري المعلومة

التالية: ربما كنت مثل ضرس العقل المزمن الذي اختبأ طول الوقت تحت الجلد وجمع الصديد، إلى أن جاء شخص ما وفتح الجرح. من المؤكد أنه سوف يؤلم في البداية ويخرج صديدًا ورائحة عفنة، ولكن المهم أن نعرف جذور المشكلة ونبدأ بتطهير الجرح كي نساعد على التئامه.. من هنا تكون البداية، الخطوة الأولى نحو التحسن.

فالجرح الأول هو الأعمق ***The first cut is the deepest***. ولكن ماذا يعرف كات استيفنز (*) ***Cat Stevens*** عن هذا الموضوع؟!

قمت بتحويل الأمل الجديد إلى عمل متصل وبدأت في أداء تدريبات منزلية لنفسيتي، واجبات لم يكلفني بها أحد.

أريد أن أزور قبر جدي.

لقد توفي وهو في السابعة والخمسين من عمره، كنت وقتها في السابعة ولم أشترك في جنازته ولم أزر قبره حتى الآن. أعتقد أنني كنت في البداية ما زلت صغيرة في السن، ثم بعد ذلك كان عدم الزيارة بسبب الكسل أو النسيان. الواقع أن هذه وقاحة مني؛ فقد كان جدي شخصية قوية وعنيفة.

(*) ستيفن ديمتري جورجيو، من مواليد عام ١٩٤٨، اشتهر باسم كات استيفنز: مغن إنجليزي ومؤلف أغان وعازف على أكثر من آلة موسيقية.

لقد عرفت مما يُحكى لي عنه أنه اعتاد أن يلعب البوكر مع جدتي وبعض المعارف في حديقة المنزل الصغير الذي يقضون فيه عطلة نهاية الأسبوع وهم جميعًا عرايا، كذلك اعتاد أن يختبر شجاعة أبنائه ويقدم لهم الرشا؛ فعلى سبيل المثال كان يطلب من أمي وخالي أن ينزلقا من فوق جبل مرتفع أو أن يقفا مددًا طويلة على ساق واحدة.

أما أنا فقد كان يصطحبني خلفه على دراجته ونسير داخل الغابة حتى نصل إلى الحانة التي اعتاد أن يرتادها وكان يحكي لي عن الحرب وعن الطبيعة. وهناك كنا نأكل السجق وسلاطة البطاطس فيأكل هو وجبة الكبار كاملة، بينما يقدم لي مشروبًا خفيفًا. كنا نراقب معًا الخنازير الوحشية ونجمع عش الغراب من الأرض.

عندما كان يحين وقت النوم كان يلفني في لحافي المحشو بالريش ويقول لي إنني أنا المربى الحلوة داخل الكعكة.

أذكر أيضًا أنني كنت أرفض تناول الساندوتشات التي كانت جدتي تعدها لي للعشاء فكان جدي يختبئ ويأكلها هو نيابة عني.

كانت هناك وجهات نظر مختلفة للحكم على شخصية جدي؛ فأمي مثلاً تعطيني انطباعًا أنه كان أبًا صارمًا جدًا كما كان قاسي

القلب كزوج. ربما كانت هذه ذكريات مؤلمة لدى الآخرين عن جدي، أما أنا فلا أحمل له سوى أجمل الذكريات.

وهذه الذكريات الجميلة هي أكثر ما يؤلمني الآن ويشعرني باستمرار بتأنيب الضمير بسبب عدم وداعي له الوداع اللائق.

الآن جاء الوقت لأعوض كل ذلك، فالخضوع للعلاج النفسي يعني إعادة البحث في الماضي ومواجهة شخصياته، وما إلى ذلك مما اعتاد الناس أن يقولوه في هذه الحالة.

أريد أن أفعل كل ذلك، أريد أن أكون أفضل، أريد أن أكون شجاعة وأن أفعل كل ما هو صواب. أريد أن أصل إلى مواقع الألم والخوف حتى لو لم أكن أعلم ماذا يعني ذلك؟ المهم هو التغلب على الماضي.

الواقع أنني لا أعرف المكان الذي دفن فيه جدي، طلبت من أمي أن تصفه لي فرسمت لي رسمًا كروكيًا للموقع، فهي تجيد رسم المواقع.

ذهبت إلى المقابر فوجدت نفسي أترنح على غير توقع، يبدو أنني تصورت أنني سوف التقي بجدي، أن أظهر أمامه بعد كل هذه السنين. ها أنا يا جدي، أنا المربى الحلوة داخل الكعكة - يعني

اللحاف – وقد أصبح سني ستة وعشرين عامًا. على الجانب الآخر انتابتني مخاوف أن جسمي يدّعي أنه يهتز خوفًا، بينما هو يتمنى أن تكون هذه الحركات مصحوبة في السر بإيقاع موسيقى ***Coldplay*** (*)، فالواجب في مثل هذه المواقف أن يشعر الإنسان بالرهبة. خجلت من نفسي بعض الشيء وحاولت أن أبدو طبيعية بقدر الإمكان.

رغم رسم أمي الكروكي لم أستطع أن أعثر على قبر جدي، وبغض النظر عن صبري الذي ينفد بسرعة فقد لاحظت أنني كلما استمررت في البحث زاد بداخلي شيء يريد أن يفاجئني ويتغلب عليّ. ولكني أعرف أن هذا الوحش المتربص بي لن يتمكن مني إلا عندما أعثر على قبر جدي، ومن ثم أخذ هذا الوحش يعتمل في جوفي ويهددني، يتحفز للوثب بينما أنا أسير في خطوات مرتعدة كسيدة عجوز حاملة في يدي الورقة التي رسمتها أمي وأتفحص القبور واحدًا تلو الآخر. وأخيرًا وجدته؛ عبارة عن قبر بسيط، له شاهد كبير من المرمر الأسود مكتوب عليه اسم جدي وتاريخ ميلاده ووفاته بحروف ذهبية، ثم جاء ما كنت أتوقعه، ولم أدهش له:

(*) فريق موسيقى الروك، تكون عام ١٩٩٦ بقيادة المغنى كريس مارتن. فاز الفريق بالعديد من الجوائز، ويعتبر واحدًا من الفرق الأكثر مبيعًا، وزع حوالي ٥٠ مليون نسخة على مستوى العالم.

انطلق الوحش الكاسر الذي يكمن بداخلي؛ فقد جاء وقت تقديم العرض. انتهت المقدمة وعلى صاحب الدور الرئيس أن يظهر قدراته، وأي قدرات؟ لقد انخرطت في البكاء، بكيت بصوت عالٍ بينما أنفي يفرز بغزارة، تفوهت بعبارات مؤلمة؛ لأني رغبت في أن أتحدث إلى جدي، ثم أصمت لحظة؛ لأني لا أعرف كيف السبيل إلى الحديث معه، هل أؤمن بمثل هذا الأمر، هل نتحدث إلى الموتى؟ أم أننا نفكر فيما نريد أن نقول، آملين أن يصل ما نقول إلى العنوان الصحيح؟

بدأت أتوتر وأرتبك لأنني لم أعد أقتنع بما أقصد وما أشعر به؛ هل أبكي حزنًا أم رثاء على نفسي؟ هل هو الشوق أم أني أفعل ذلك لأني أشاهدهم يفعلون ذلك في التليفزيون؟

هل أريد بالفعل التواصل مع جدي؟ أم لأنه يناسب ***Coldplay*** ومتوقع منه؟ وإذا كان الأمر كذلك، من الذي يتوقع؟ وماذا يتوقع؟ فليس في المكان سواي أنا.

هذا شيء بغيض.

بينما أنا أفكر في كل ذلك لم أتوقف عن النحيب بشدة. تدور في رأسي أفكار لا أصدقها، وأشعر بأحاسيس لا تقنعني مائة في المائة.

جاء موعدي الثاني في عيادة الدكتورة جورليش بعد أسبوع من الموعد الأول، بدأت الجلسة في جو لطيف؛ فقد عرضت عليّ الطبيبة أن أخاطبها باسمها الشخصي أي "آنيت" إذا رغبت، وفي المقابل سوف تناديني باسمي أيضًا وهو كارو، عرضت عليَّ هذا الأمر وهي تنظر إليَّ نظرتها التي تشع طيبة وهدوءًا وعيناها الزرقاوان لا ترمشان أبدًا.

الحقيقة أنني لا أعرف إذا كان هذا الأمر يمكن أن يريحني، ولكن اختصارًا للوقت قلت لها: لا مانع يا آنيت.

نطقت اسمها بوضوح وابتسمت ابتسامة المضطر لها. أردت أن أبدأ الجلسة بمرح وهدوء ولكني رأيت آنيت تبتسم ابتسامتها المعتادة.

عاهدت نفسي ألا أتحدث إلا في المفيد وأن أكون أكثر أمانة في الحديث، أليس هذا هو الهدف من وجودي هنا، أن أتجرد أمامها؟!

فعندما سألتني آنيت: كيف كان حالي خلال الأسبوع الماضي، بدأت أحكي لها بحماس كيف أني كنت أشعر بالحزن المفاجئ طوال الوقت وأذكر لها المعلومات التي اكتسبتها. كنت أحكي لها وأنا أشعر بالفخر، أعجبت آنيت بالتشبيه بضرس العقل جدًا، لم تعجب للحزن الذي شعرت به وتتصور أننا التقينا معًا عند نقطة حساسة وأن علينا أن نتتبعها، ثم قالت:

- هذا إذا كنت تعتقدين أننا يمكن أن نسير في هذا الطريق معًا.

إذن، لقد قبلت أن تعالجني؛ لأنها تتصور أن قليلاً من العلاج سوف يساعدني.

بينما نحن في جلسة العلاج الجادة جال في ذهني أن أتصل بأمي لأبلغها الخبر، وتصورت أنها سوف تصرخ فرحًا خلال سماعة التليفون وتقفز سرورًا. ولكنني لم أفعل، بل بدأت في مناقشة بعض الأمور الإدارية مع آنيت.

لقد جهزنا بعض الأوراق المطلوبة لتقديمها إلى التأمين الصحي كي نطلب منه السماح بدورة علاجية قصيرة تستمر جلساتها على مدى خمس وعشرين ساعة. اتفقنا على ألا أحضر بانتظام بسبب عدم إمكانية تخصيص موعد ثابت لي في الوقت الحاضر، وأكدت لي أن كل شيء يحتاج إلى وقت خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالحالة النفسية، فلا يمكن ربط (صامولة) هنا أو فكها هناك فيدور المحرك وانتهينا!!

فالسلوك المعتاد والمخاوف التي تساور الإنسان راسخة بداخله، فنحن نحملها بداخلنا على مدى سنوات وسنوات ولا يمكن التخلص منها، الأمر كله يكمن في إمكانية التعامل معها. قلت في

نفسي: معك حق، فعلاً، سوف نستطيع أن نفعل شيئًا؛ فالأمر ليس بهذه الصعوبة، وفي النهاية فأنا مستعدة للعلاج ولديّ الوعي الكافي لذلك.

مضى الأسبوع التالي بدون مشاكل تذكر؛ فليس لديّ أعمال كثيرة أقوم بها، اقتصر الأمر على عملي في الحانة خلال فترات كريهة إلى نفسي، فضلاً عن ضيقي من صديقي. أشعر في معظم الأحيان بالحزن بينما بدأت حدة القلق تقل بعض الشيء، وأنا أعلم الآن لماذا؟ فأنا ضرس ملتهب وأتلقى الآن العلاج المتخصص.

تحدثنا أنا وآنيت كثيرًا خلال الجلسات التالية، وتعرفنا أنا وهي على نفسي بطريقة أفضل، حكيت لها بالتفصيل عن حياتي السابقة، وتعرفت بفضلها على بعض الأنماط التي ظهرت أمامي كخطوط حمراء تمر عبر تصرفاتي.

لقد أكدت لي آنيت أنني أخاف من الشعور بالوحدة وأفتقد إلى الوعي بذاتي والاعتداد بنفسي. ولما حكيت لها عن خجلي من الرثاء لذاتي قالت لي بحماس:

- وما العيب في ذلك يا كارو؟ أنت حزينة على نفسك، حزينة على موقفك من الحياة، وحزينة على ماضيك!!

لقد أدانتني آنيت بذلك فحاولت أن أوضح موقفي. لا أعـرف الأمر بالضبط ولكني أشعر بأن شيئًا ما غير صحيح؛ فالرثاء للـذات من صفات الأشخاص المنطوين والبلهاء.

رمقتني آنيت بنظرة خاصة كما لو كانت تقول لي:

- هذا هراء يا كارو وأنت تعلمين ذلك جيدًا.

فهي ترى أن لي كل الحق أن أحزن وأن أرفـع الظلـم عـن نفسي في معظم الحالات، وأنني أستهين بأحاسيسي.

أشعر بعد كل جلسة أن رأسي تدور بشدة. كل هذه البـدايات، كل هذه الأنماط، كل هذه الإمكانيات، وكل واحد منها له معنى ولكني أشعر بالقليل منها فقط وأتفهمه أو حتى أتتبعه، إلا أنني رغـم ذلـك أرغب بشدة في التقدم في العلاج.

ورغم كل شيء فقد وقعت في غرام كوني في مرحلة علاج؛ فأنا أؤمن بمبدأ المعاناة من أجل النجاح وكلي ثقة في ذلـك. أتحـدث كثيرًا إلى الأصدقاء الذين ظهر منهم من تصور أنه خبير فـي هـذا المجال، فبدأنا في تنظيم جلسات لهواة العلاج النفسي استمرت علـى مدى ساعات. وفي النهاية بدأت أفكر كثيرًا في ذاتي بهدف الوصول إلى نجاح علاجي النفسي في أسرع وقت.

ولكن الحقيقة أنني لا أفعل إلا كل ما هو خطأ.

تعرفت على فيليب منذ عامين في لقاء نظمته المؤسسة الإعلامية التي أعمل بها. تلتقي في مثل هذه اللقاءات، مختلف الوكالات الإعلامية بينها ممثلات بلا عمل، ومقدمو برامج مغمورون (نجوم الدرجة الأولى يعرفون جيدًا أن مثل هذه اللقاءات لا يحضرها سوى الصعاليك من العاملين في حقل الإعلام الذين لا توجه لهم الدعوى لحضور المناسبات الكبرى). هؤلاء من أشباه الفنانين يحضرون إلى مثل هذه المناسبات لتقديم ما يعتقدون أنه يستحق الإعلان عنه. ولكنهم لا يجدون إلا مراسلين إعلاميين من الدرجة الثانية الذين يعرفون بدورهم أنه ليس من بين الحاضرين من يجذب الانتباه. يسعد الحاضرون لمثل هذه اللقاءات بشيئين: أولهما البوفيه المفتوح، وثانيهما المشروبات المجانية التي يقدمها لهم رعاة مثل هذا اللقاء. في الحقيقية هذه هي الأسباب نفسها التي تجعلني أسعد لحضور مثل هذه اللقاءات؛ ففيها يمكن أن نتذوق أحدث المشروبات.

التقينا أنا وفيليب بطريقة تقليدية؛ أي عند البار، كنت أحتسي مشروبي المجاني الثالث، وكنت لحظتها على وشك الثورة بسبب بطء الفتاة المتدربة التي كانت تقدم المشروبات خلف البار والذي يختلف عن مفهومي أنا للسرعة.

كان فيليب يقف بالقرب مني فأطلق دعابة مهذبة استطاع بها أن يسحب البساط من تحت قدمي. بدأ بيننا الحديث واستمر ونحن واقفان نشرب من أكوابنا؛ وحيث إنني لست متجدثة لبقة فقد استأذنت للانصراف قبل أن يتأزم الموقف.. انصرفت وأنا أقول كلمات مبتكرة جدًا:

- "سأحاول العثور علي شخص ألهو معه قليلاً، ليتك تعثر لي على أحدهم. أنا في انتظار ردك!!".

لم يتقبل فيليب الدعابة على نحو ما تصورت وبادرني بقوله:

- طبعًا، بكل سرور، سأكتب لك قائمة بالأسماء ونلتقي بعد ساعة بالضبط في نفس المكان عند البار.

لقد أعجبني الموقف ولذلك سرت بعد ساعة أتسكع نحو البار، نظرت حولي فلم أجده، لذلك طلبت في حركة غير محسوبة مشروبًا آخر من هذه المشروبات البشعة، وبعد الكأس الرابع لم يعد شريط الفيديو الغنائي المرح ***Doner Red Bull*** مسليًا بالقدر الكافي.

ها هو مرة أخرى فيليب، فبادرته بالسؤال:

- يا ترى هل عثرت لي على أحد؟

وجاء الرد:

- للأسف، واحد فقط!.

- من هو؟

أشار بكل ثقة إلى نفسه.

قلت في نفسي: يا ولد! ثم قلتها بصوت عالٍ: يا ولد!.

واضح أن الدعابة دارت وعادت مرة أخرى.

سعدت لهذا الاختيار الجديد، الواقع أنني لم أكن أسعى للوصول إلى أن تربطني علاقة بشخص ما، ولكني كنت أعتقد أن وجود مثل هذه العلاقة في حياة الشخص أفضل بكثير من ألا يكون على علاقة بأحد؛ ولما لم تكن تربطني علاقة بأحد فقد جاءت هذه العلاقة الآن في التوقيت المناسب.

بدأنا الحديث ونحن نلف وندور حول الموقف وتبادلنا المعلومات عن بعضنا بعضا.

يبلغ فيليب ستة وعشرين عامًا؛ أي أنه يكبرني بسنتين، يدرس تصميم الإعلان، نزح من الريف إلى المدينة ويقيم في شقة صغيرة من حجرتين بالقرب من هنا. يعشق فيليب الجانب الفني في دراسته ويهوى الرسم. أما أنا فلا أعرف أي شيء عن تصميم الإعلان من قريب أو من بعيد ولا أفهم عن الفن شيئًا، ولكن يستهويني الشيء الذي لا أعرفه.

شربنا كأسين من الفودكا المخففة ثم الفودكا المركزة، بينما نحن نخطط لباقي الأمسية التي سوف نقضيها معًا، لم يكن كل واحد منا متأكدًا من جدية الآخر إلا أن أحدًا منا لم يدعُ للنزال، وفي النهاية وجدنا أنفسنا نجلس في تاكسي ثم في شقة فيليب.

تلا ذلك احتساء بعض الكئوس ثم اتصال جنسي غير مكتمل، بعدها راحت عينانا في نوم هادئ، هذا هو الشيء الذي شعرنا بالارتياح إليه منذ أول يوم؛ فقد كان جسدانا متناسقين وهما بجانب بعضهما بعضًا.

لم يكن الأمر مفاجأة؛ فقد عشقت فكرة أن أعشق، أما فيليب فقد تمنّع لبضعة أسابيع إلا أنه رضخ في النهاية لفكرة الحب. لقد أصبحنا حبيبين وبدأت خلافاتنا بعد أسابيع قليلة، احتدت الخلافات بيننا بصفة مستمرة.

أصبحت أغتاظ لكل صغيرة وكبيرة منه؛ مثل الصوت الذي يصدره من أنفه وهو في الحمام، وإعجابه الزائد بنفسه. كذلك أثارني عدم استماع فيليب لي أثناء حديثي، فقد كان يتململ في عصبية وينتقل بنظراته بين أركان الحجرة. لم يكن ينظر في وجهي أبدًا، فقد انتابني شعور بأنني أطارده أثناء حديثي، أما عندما يتحدث فيليب عن

نفسه فكان يطلب مني أن أكون كلي آذانٌ صاغية خاصة وأنه كـان كثير الكلام ولم يكن يمل الشكوى ولا النقمة على وضعه.

لم يكن من الممكن أن تذكر أي تشنيع أمام فيليـب، فالتـشنيع مرتبط بالدعابة وبابتسامة شماتة على استخيـاء. فيليـب لا يـستحي ولا يفهم الدعابة، كان فيليب يحب أن يكره. لم نكن نتحـدث كثيـرًا عني أنا شخصيًا؛ وذلك لأني لم أتعود أن أتحدث عن نفسي مـا لـم يسألني أحد. كنت أحب أن توجه لي الأسئلة لأعـرف أن الـشخص الذي أمامي مهتم بما أقول، حتى عندما يوجَّه لي سؤالٌ فأنـا أجيـب بسرعة واختصار حتى لا يمل الشخص الذي أمامي، أما فيليب فلـم يكن يسألني وإنما كان يحب أن يتحدث عن نفسه.

ففي ذات مرة وأثناء حديث تليفوني بيني وبين فيليب أثـارني الموضوع؛ لأن فيليب لم يكن يعلم ماذا كنت أفعل أثناء حديثه الـذي كان مفعمًا بالرومانسية التي شعرت بها من صوته. صمت لفترة ثـم قلت له: ماذا أفعل؟ فغضب لأني لم أنصت إليه.

من المؤكد أننا قد عشنا أوقاتًا سعيدة أو أننا كنا نحاول أن نقنع أنفسنا بذلك. الواقع أننا كنا نحاول على مدى سنتين أن نكون معًا. كل واحد منا كان يعتقد أن الحال سيتحسن بمرور الوقـت؛ فلـيس مـن الممكن أن نمحو سنتين طويلتين من عمرنا.

كل ما أحتاجه هو الشعور بالحنان والأمان وأن يكمل الواحد منا الآخر، أشتاق إلى عش هادئ. الواقع أن فيليب يرغب في الشيء نفسه، وبعد ذلك سوف يجمعنا لهيب الاشتياق. إلا أن الشيء الوحيد الذي جمعنا معًا هو تناسق أجسامنا أثناء خلودنا للنوم.

لم تبت آنيت في موضوعي مع فيليب رغم أنني تمنيت لو أنها فعلت وفصلت في شأنه. تمنيت أيضًا لو أنها قالت لي في حنو:

- كارو: الحقيقة أنني لا أفهم كيف تستطيعين تحمل مثل هذا الأمر؛ فتاة شابة وجميلة مثلك تستحق من هو أفضل منه، تستحق شخصًا يحملها على كفوف الراحة. إنما، ليس هذا الرجل الأناني!!

الواقع أن الأمر مختلف معها؛ ففي كل مرة أشكو وأنتحب كانت ترد عليّ قائلة: احتكاككما بهذا الشكل يؤلم الطرفين. أو تقول:

- واضح أن فيليب إنسان قلق.

أو تبادرني بقولها:

- كارو: أعتقد أنك تريدين أن يكون كل الناس على شاكلتك أنت!

إلى هنا ولا أستطيع الصمت فأرد عليها بقولي:

- آنيت، أنا هنا لأني أعتبر نفسي غبية ولا أطاق؛ أنا لا أريد بأي حال أن يكون كل من حولي صورة مكررة مني.

أعتقد أنها تقصد أنني أتوقع حسًا أخلاقيًا عاليًا من الجميع، والواقع أنها محقة في ذلك؛ فأنا هنا الرائدة في الأمر المطلق.

علمتني آنيت أن البشر يختلفون فيما بينهم؛ فما أراه أنا صحيحًا يبدو لغيري خطأ وسخيفًا؛ لذلك يجب أن أقبل أن يكون الآخرون مختلفين عني. ولكن: لا أستطيع أن أفعل ذلك، بل إنني لا أريد ذلك. كل ما أستطيع أن أقبله هو كون بعض الناس يفضلون أكل البيتزا بالأناناس أو يحبون ***R'n'B***(*) أو يتعاطون المخدرات.. أقبل كل ذلك، أما كون أن الشخص لا يستطيع أو لا يرغب في الاستماع إلى صديقه أو أن يكون شديد التشاؤم أو غير قادر على العطاء لمن يعطيه بسخاء؛ فهذا ما لا أقبله بحال.

فهذه في نظري أشياء خطأ من الأساس وليست أسلوبًا آخر من أساليب الحياة أو ذوقًا مختلفًا، وإنما هي في نظري بكل بساطة وقاحة يستحق أن يكون جزاؤها عقابًا من العقاب الذي توقعه الشرطة على الجناة.

(*) اختصار لاسم ***Rhythm and Blues*** الذي يطلق على نوع من موسيقى البوب، سادت خلال الفترة بين ١٩٤٠ و١٩٧٠، وتتسم بالإيقاع الأفروأمريكي.

كان فيليب قد سافر إلى أهله في الريف وسوف يعود اليوم، وما أفظع ما يحدث عندما يعود من زيارة مسقط رأسه! فهو هناك الكل في الكل. نعم هذا الشخص الذي استطاع أن ينتقل من القرية إلى المدينة، الشخص الذي يعمل في مجال الإعلام ويتردد على حفلات نجوم الدرجة الثالثة والذي يشاركهم الشرب، الشخص الذي يعتبر فنانًا، كل ذلك هو فيليب الذي لم ينس أنه من القرية.

أتساءل في نفسي: هل يعرف أصدقاء فيليب القدامى أنه يبول في المواصلات العامة مثلما يرسم على الحوائط؟ أعتقد أنهم يعلمون ذلك وينحنون أمامه احترامًا لأن هذا الأمر كبير بحجم نيويورك في الثمانينيات، هل يعلمون فعلاً النحو الذي كانت عليه نيويورك في الثمانينيات؟

يحظى فيليب في قريته بالشيء الذي تمنى أن يجده في المدينة من احترام وتقدير؛ لا عجب فأنا لا أمنحه هذا أو ذاك. ربما كان هذا هو السبب في نظرات فيليب الزجاجية عند عودته.

وكان اليوم هو أحد هذه الأيام، فقط اصطحبت فيليب من محطة القطار وكنت سعيدة فعلاً بذلك؛ فبعد خمسة أيام بدون فيليب جعل قلبي يشعر أنه يحبه فعلاً، وأن علينا أن نبذل جهدًا أكبر للاحتفاظ بعلاقتنا.

أشعر بأن مدة العامين ليست بالمدة القصيرة لاستمرار علاقة، وأن عليّ أن أتحكم في نفسي وأن أكبح جماحي. عليّ أن أقتنع أن فيليب مختلف عني، فهو ليس سيئًا ولكنه مختلف.

شعرت بنفسي فجأة وكأني واسعة الصدر وحاذقة، فقد تمكنت من اتباع نصائح طبيبتي النفسية وأستطيع الآن أن أتحكم في تصرفاتي بلا خجل.

هذه الكارو الجديدة تسبب لعقلي بعض البلبلة، فجهازي العصبي يتوقف للحظة عند توصيل المعلومات اللازمة، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى العمل كأن شيئًا لم يكن ويقوم بتوصيل الأكذوبة إلى عيني التي تشع حبًا.

أعلن ميكروفون المحطة عن دخول قطار فيليب إلى الرصيف وتلقيت رسالة قصيرة على المحمول تقول: سوف أصل خلال خمس دقائق، أنتظر لقاءك بلهفة يا حبيبتي.

- يا سلام، فيليب يشعر بسعادة اللقاء!

ثم قلت لنفسي: لماذا سوء الظن؟ ربما يشعر فيليب فعلاً بسعادة للقائي.

خجلت من نفسي للحظات مع دخول قطار فيليب إلى الرصيف، دخلت أحاسيس ملؤها الحب إلى محطة قلبي. نزل عدد

كبير من الركاب من القطار ولكن أين فيليب؟ وكما هو الحال على سير الحقائب في المطار، حقيبتك آخر حقيبة تصل، الأمر ببساطة يحتاج أن يقف الشخص قبل الوصول إلى المحطة بفترة كافية بحيث يكون أول من ينزل من القطار. أما فيليب فعلى رسله، لا يعبأ بأن حبيبته تقف بين مئات من رواد المحطة في انتظاره. لا أفهم لماذا يفعل ذلك، أليس من المفروض أن يفكر أكثر قليلاً؟ هل هذا طلب صعب؟.

أخيرًا ظهر سيادته! وجهه يبدو عليه القرف. شعرت برغبة شديدة في ترك المكان، إلى أين، لا أعلم. حتى لو اضطررت لأن أصطحب الشاب الصغير الواقف بجانبي إلى منزله. وهناك يمكننا أن نستمع لبعض الموسيقى أو نرى فيلم عنف.

بدا فيليب أكثر امتعاضًا عندما وقع نظره عليّ، فقد كان يكره كل ما يتعلق بالأحاسيس. ربما تصور أنه وجد فيّ أنا من يمكن أن يعبر له عن كراهيته، ولكني لست أنا هذا الشخص. فأنا أحب أن يتأبط ذراعي وأن يشعرني بذلك - حتى لو حدث له أثناء رحلة القطار ما يعكر صفوه - فلا يمكن أن تكون تعبيرات وجه أسوأ مما عليه وجه فيليب الآن.

يا للقرف! جلست في طريق العودة بجانب شخص تنبعث من

فمه رائحة كريهة، فضلاً عن أن الفحل كان يقرأ طوال الوقت صحيفة "بيلد" المعروف أنها جريدة نازية. لذلك لا أريد الجلوس بجانب مثل هذه الأشكال، ولكن المضطر يركب الصعب، فليس هناك مكان خال غيره. هذه هي بالضبط المواصلات في ألمانيا: كلهم رأسماليون وضيعون.

لقد عاد فيليب. أشعر بأنني اليوم قادرة على تفهم الأمور، فقلت له مداعبة: يا ليتك جلست ولو لنصف المسافة بجانب صاحب رائحة الفم الكريهة، أما أنا فقد غسلت أسناني اليوم خصيصًا لك، فلا روائح كريهة باقي اليوم، وتنفست في وجهه وضممت شفتاي انتظارًا لقبلة كان المفروض أن تكون منذ وصوله، إلا أن فيليب لم يبتسم للدعابة وأرسل لي قبلة في الهواء.

قلت له: هل تريد أن أرسل لك خارطة لمعالم وجهي كي تتمكن من الوصول إلى الهدف في المرة القادمة؟ حاولت أن يكون صوتي هادئًا لأنها الفرصة الوحيدة، بينما كنت أود وللحق أن أصفعه على وجهه.

قال لي: يا حبيبتي، لا تغضبي، فالرحلة كانت طويلة ومرهقة وجلس بجانبي خلالها شخص رائحته كريهة، حتى فنجان الشاي لم يكن متوافرًا في كافيتريا القطار، حاولت أن أتماسك وقلت له:

- يؤسفنى أن رحلتك كانت متعبة، ولكن لا تجعل من كـون شخص يفتقد الوعي بصحة الفم قضية شخصية، المهم أنك معي الآن وأنني سعيدة بعودتك، هيا بنا نذهب كي نأكل أي شيء.

ما زال فيليب يمط فمه ممتعضًا وفي هذه المرة نجحت محاولة القبلة بنسبة الثلاثة أرباع.

ذهبنا إلى أفضل مطعم إيطالي في المدينة (لم يفهم فيليب سبب إعجابي بهذا المطعم ويقول إنه أكل مكرونة أفـضل فـي مطـاعم أخرى. طبعًا مفهوم).

جلسنا في ركن مظلم من المطعم قليل الإضاءة أصلاً.

طلبنا الطعام وأكلنا وتحدثنا معًا. تحدثنا عـن فيليـب وعـن قطارات ألمانيا، ثم تحدثنا طبعًا عن فيليب وعن ترحاب الجميع بـه في قريته، تحدث أيضًا عن مدى التخلف الذي يعيش فيه أهل القرية، ثم قال فيليب:

- أقصد التخلف الثقافي.

ملأت فمي بالمكرونة حتى لا أتقيأ، ولكن بعد فترة لـم يعـد هناك مكرونة في الطبق وأخشى أنها أخذت صبري معها. ثم ذكَّرتـه بأنه هو شخصيًا قادم من الريف.

- ماذا تقصدين يا كارو. لا تنسي أنني أمضيت السبع سنوات الماضية تقريبًا في المدينة، ثم إنني طورت من نفسي على عكس أهل القرية.

- لقد طورت من نفسك في مجال آخر وفي اتجاه آخر. من أين لك أن تعرف إذا ما كان أصدقاؤك قد طوروا من أنفسهم في اتجاه آخر! ربما كانوا قد تعلموا كيف يقودون الجرارات الحديثة أو أي عمل من الأعمال التي يقومون بها هناك.

- لكن الأمر يختلف فلا أحد منهم يعرف معنى ***Tagging*** ولا ***Masterpiece*** ولا حتى ***Fill-ins***.

- ولا أنا أيضًا أعرف ماذا تعني هذه الكلمات، ورغم ذلك أعجبتك وتجدني على ما يرام.

- إنك تشبهين شيئين مختلفين كالتفاح بالكمثرى.

قلت له مداعبة:

- أرجوك لا تقارني بالكمثرى، فأنا أتمتع بمؤخرة رائعة.

لقد كانت محاولة مني للسيطرة على الموقف رغم أنني كنت في قمة الغضب وخيبة الأمل؛ استخرجت آخر ما لديّ من بواقي الرومانسية بعد أن قررت أن أغير من نفسي تمامًا. لا أريد أن ألقي

العبء على فيليب وأتوقع منه أكثر مما يجب. حاولت أن أحول إحساسي بالشوق إليه إلى طاقة مشاعر إيجابية: وجبة حلوة، ثم لقاء غرامي، وفي النهاية نوم في وضع متناسق.

إنها بداية محاولة، سوف أكون لطيفة وحبوبة مرة أخرى ولكن بشرط أن يكون لديّ فيليب الرغبة في الاستمرار. فلا أنا أخطأت ولا هو أخطأ، لذلك فالعلاقة يمكن أن تستمر، ولكن الواقع غير ذلك؛ فأنا أحاول منذ ساعتين أن أكون لطيفة، أما فيليب فكل تصرفاته خاطئة، لذلك لم أعد احتمل أكثر من ذلك.

بادرته قائلة:

– منذ اصطحبتك من محطة القطار يا فيليب وأنت تمد شفتيك، وليس لديك إلا الشكوى، كل شيء عندك سيئ وكل الناس ضدك. ألا تستطيع ولو لمرة واحدة أن تنزل من برجك العاجي؟ أليس بإمكانك أن تداعبني قليلاً وأن نشعر بسعادة وجودنا معًا؟!

فتمتم فيليب قائلاً:

– ألست أنت التي بدأت النقاش؟.

– لم أناقش إلا بعد أن سمعت كلامك العنصري الغبي؛ ثم إذا كنت لا تطيق هؤلاء الناس، لماذا إذن تسافر بصفة مستمرة إلى

هناك؟ ربما لأنك تحصل على جرعة دفع مجانية من هناك. المؤكد أنك لست غبيًا ولا عديم الموهبة بدليل أن هناك أشخاصًا أقل شهرة منك. يمكن أن أسمي سلوكك هذا سلوكًا نرجسيًا عقيمًا!

جاء جرسوني المفضل في المحل واسمه زورا يـو ليسألني وهو لا يشعر باندلاع الموقف:

- أي أوامر أخرى يا سيدة كارو؟

رددنا في نفس واحد:

- لا شكرًا، ولكن الحساب لو سمحت!

ذهبنا إلى السينما وكل واحد منا ثائر على الآخر وبعيد كل البعد عن الرومانسية ورغم ذلك ذهبنا إلى السينما، اعتدنا أن نفعل ذلك كما لو كان كل شيء على ما يرام، تأملت الشارع بأسارير متقلصة بينما فيليب يتململ في غضب.

كنت أتمنى لو أنه سألني كيف أمضيت الأيام الخمسة التي غاب فيها عني، وهل ما زالت حالة اليأس والتعاسة التي كنت عليها تسيطر عليّ، كذلك تمنيت أن يسألني عن جلسات العلاج، وعما إذا كانت علاقتي بالطبيبة على ما يرام. ولكن فيليب لم يسأل عن أي من هذه الأشياء، وإنما كل ما جال بخاطره ليكسر الصمت الرهيب الذي

ساد بيننا هو أن صاح: يا له من أحمق وغبي! وكان يعني سائق الدراجة الذي اضطر إلى الاقتراب من سيارتي أثناء تغيير الحارة التي كان يسير فيها.

ثم بدأت في تغيير اتجاه السيارة كما ورد في تعليمات المرور، تركت المشاة يتقدمون، ثم نظرت خلفي وأدرت السيارة في طريقي إلى العودة من حيث أتيت.

- ماذا تفعلين؟

- سأعود إلى المنزل؟

- لماذا؟ ألن نذهب إلى السينما؟

- لا يا فيليب، لم نرد الذهاب للسينما، وإنما كنا ندعي الرغبة في الذهاب إلى السينما! الواقع أننا نكره بعضنا البعض، ثم إني مللت منك، ومن مزاجك المنحرف، ومن شكواك المستمرة من تصرفات الآخرين، وإحساسك أنك لا تخطئ، أو أن تهون من أخطائك.

لقد كنت أشعر بالسعادة لعودتك وقلت في نفسي إنني سأحاول مرة أخرى تحسين العلاقة بيننا، ثم إنني منيت نفسي بيوم جميل معك يقرب بيننا. أما أنت فلا يبدو عليك سوى القرف وتعكر المزاج! من أجل كل هذا: أريد العودة إلى المنزل!

اغتاظ فيليب من كلامي وقال:

- هكذا أنت، إرضاؤك مستحيل، تنتقدينني باستمرار، كل شيء أفعله غلط في نظرك ولا يعجبك!

- أنت لا تعمل شيئًا سوى إظهار قرفك وكرهك! ولكن لا! هذا شيء أصبح صعبًا جدًا ولا يعجبني، ولم أعد أتحمل تشاؤمك هذا، أنت تشدني إلى أسفل. كنت أتصور أني شخص دائم الشكوى ولكنك تفوقت عليّ بكثير!

مم تشتكي؟! حالك على ما يرام، تستطيع أن تدفع إيجار شقتك، وعندك دراستك التي تحبها وهواياتك والتي رغم أني لا أفهمها تملأ وقتك. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وصلنا إلى منزلي، أوقفت السيارة ونزلت منها.

- سألني فيليب: ماذا بعد؟

- فرددت عليه: لا شيء، أنا أدخل شقتي وأنت تعود إلى منزلك!

- كيف أعود إلى منزلي من هنا الآن؟

- نحن في مدينة كبيرة بها حافلات وقطارات وسيارات أجرة وكذلك هناك عربات ريكشاس(*).

(*) الريكشا: عربة نقل تعمل بقوة الإنسان حيث يجر شخص عربة لها عجلتين ومقعد لشخص أو شخصين. (المترجمة)

- كنا نريد الذهاب إلى السينما!

وددت هذه اللحظة لو أن كل ما دار بيننا الآن لم يكن سوى حلم، أو ربما تصورت أنا ذلك، وتصورت أنني ظلمت فيليب؛ لأنه لم يقل لي إلا كلمات لطيفة ومزاجه كان على ما يرام.

لهذا فهو لا يفهم لماذا أردت أن أعود إلى المنزل ولم أذهب معه إلى السينما.

سألته بلهجة خطابية: ألم تفهم كل ما قلته لك في الطريق إلى هنا؟ أنا لا أريد أن أراك أمامي الآن. ربما من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا لفترة ما. نحن لا نصلح لبعضنا البعض.

قلت هذا وأنا أفتح باب العمارة.

كيف سيستقبل فيليب هذا الكلام؟ هذا شيء لا يعنيني!

أدرت ظهري وصعدت إلى شقتي وما أن وصلت إلى الشقة فإذا به يتصل بي، فلم أرد عليه؛ لأني كنت فعلاً في منتهي الغيظ، ولكني للحق أشعر بارتياح وفخر بنفسي. بعد فترة أرسلت له رسالة على الهاتف الجوال:

- ربما كان من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا لعدة أسابيع، لم أعد أحتمل، لا نستطيع أن نسعد ببعضنا البعض، وهذا لا يلزمني في الوقت الحاضر.

لقد قطعت نصف الطريق نحو النهاية. قلت لنفسي وأنا في سريري: ليس الموضوع بهذا السوء، انتظرت الألم الذي لا بد منه والذي لا يمكن تجنبه في مثل هذه الحالة، ولكنه لم يأتِ.

انتظرت خلال الأيام التالية ما يسمى ألم الفراق، ولكنه لم يأتِ، بل أشعر الآن بنشوة لدرجة أنني أضبط نفسي بين الوقت والآخر أدندن بكلمات بعض الأغاني.

ذهبت إلى عيادة الدكتورة آنيت وأخذت أحكي لها بصوت عال وبسرعة عن التقدم الذي أحرزته، وأنني أخيرًا جرؤت على التغلب على الخوف من الوحدة. ثم إني أنهيت علاقتي بفيليب تقريبًا والموضوع عادي جدًا. أعتقد أنني أفضل مما كنت أتصور. وأنهيت بهذه الكلمات حواري الداخلي وأنا أشعر بالخوف.

- لست سيئة على الإطلاق يا كارو. مخاوفك طبيعية واستطعت الآن لأول مرة بعد سنوات أن تواجهي هذه المخاوف، ثم ماذا تعنين بأنك أنهيت علاقتك تقريبًا بفيليب؟

توقَّعت أن أسمع منها كلمات كلها أخوة ومودة تقول لي فيها: أحسنت! أخيرًا تخلصت من هذا المخلوق؛ ولكني وجدت نفسي الآن في موقف يحتاج مني تبرير هذا الانفصال.

حكيت لها عن الرسالة التي أرسلتها له على الهاتف الجوال، وأن هناك صمتًا في الاتصال بيننا منذ ذلك الحين وأن الأمر بالنسبة لي أكثر من عادي.

نظرت لي آنيت نظرتها المعتادة التي تنم عن هدوء متعقل. خطرت لي فكرة ولكن قبل أن أعبر عنها كانت جلستنا قد انتهت. داعبتها قبل أن أودعها، ولكنها نظرت إليّ كما لو كانت تقول لي: أتوقع دعابات أقل وأحاسيس أكثر. خرجت من العيادة وقد كست وجهي حمرة الخجل.

تنفست بعمق ليملأ الهواء رئتاي وأشعلت سيجارة، ثم خطرت لي فكرة: لم أُنهِ علاقتي بفيليب بعد، ولا حتى شبه أنهيتها، لقد تركت الباب الخلفي مواربًا أو شبه موارب بالنسبة لي بحيث أستطيع العودة في أي وقت، فلا عجب أنني لم أشعر بالأسى والحزن.

ثم فجأة بدأت أفتقده، أفتقد فيليب الغبي!

ملعونة هذه الدنيا!!

أجيد إثارة الاهتمام ولكني لا أجيد كيف أكون أنا نفسي مثيرة للاهتمام؛ بمعني أنني لا أعرف كيف أجعل نفسي أقل ترددًا. فأنا دائمًا حاضرة الذهن، رأسي دائمًا واعية بحيث لا أستطيع أن أنكر

ذلك لا أمام نفسي ولا أمام الآخرين؛ فأنا من أشد مشجعي لعبة: لا تتصلي به وسوف يعود للظهور. ولكني أشجع كذلك هؤلاء الذين يستطيعون استخدام الفهلوة. إنه أمر رائع ولكن للأسف لا أجيده؛ لأنه يتطلب أن أتعود على الصبر كي أتعلم ذلك. أما أنا، فأريد النجاح وفورًا دون انتظار!

فلو كان لديّ بعض الصبر لكنت قادرة على قفز الحواجز وعلى الغناء وعلى الاطلاع. ربما كان عليّ أن أقبل المثل القائل:

You can get it if you really want (يمكنك الوصول إلى ما تسعى إليه إذا كنت تريده فعلاً). ولكن الواضح أنني لا أريده فعلاً بالقدر الكافي.

ولكن من ناحية أخرى أريد الوصول بما فيه الكفاية، بدليل أنني غير راضية عن عدم الوصول إلى ما أسعى إليه.

لقد مضت خمسة أيام على هذا الفراق السريع بيني وبين فيليب ولكن الأمر لم يعد يعجبني؛ لأني أصبحت أشعر بالغربة بدونه، وأريد أن أعرف ماذا يفعل هو وأريده أن يعرف هو ماذا أفعل أنا، ولكنه لم يتصل بي. وهذا يعني أنه إما يعرف قواعد اللعبة جيدًا، أو أنه مستريح للوضع الحالي وللبعد، ولكن مستحيل أن يكون الأمر كذلك.

قررت أن أتصل به ولا حرج.

- جاء صوته غير مبالٍ: هاللو.

- وبعدين؟

- وبعدين؟

الأمور تسير إذن على ما يرام. واضح أنني كنت غبية.

سألته بصوت أهدأ:

- كيف حالك؟

فأنا لا أريد أن يأخذ انطباعًا خاطئًا.

- حتى الآن تمام التمام. معي الآن بعض الضيوف وأعد الطعام لجيني وإسا!

- جميل، هذا دليل على أنك على ما يرام إذا كنت تستقبل زيارات حريمي، بل وتعد لهم الطعام، معنى هذا أن الأمور تمام التمام.

قلت لنفسي: مهلاً لقد ارتفع صوتك أكثر من اللازم.

- يا كارو، نحن نستذكر دروسنا معًا وقمت بإعداد بعض الطعام لهما. تعرفين جيدًا أنه ليس بيني وبينهما أي شيء!

أعلم ذلك جيدًا، فجيني وإسا زميلتان لفيليب. فتاتان ظريفتان وعاديتان، ولكن هذا لا يعني أنني لم أحسدهما؛ فأنا لم أشعر بالغيرة منهما ولكن حسدتهما على أنهما الآن بجانب فيليب وتمضيان الوقت معه بالقرب منه ويشتمان رائحته. هذه الرائحة تخص أنفي أنا، وحتى مزاجه المنحرف يخصني أنا، رغم أني متأكدة أنه يتعامل بظرف شديد مع الفتاتين كعادته مع الآخرين؛ فالجميع يقدره.

النجدة. من الخوف؛ فحياة فيليب تسير بشكل عادي، ربما بدا صوته مرهقًا بعض الشيء ولكنه لا يحمل نبرة حزن تنم عن أنه يفتقدني. النجدة. النجدة. النجدة.

قلت له بنبرة طفولية انطلاقًا من خطة الطوارئ التي وضعتها:

-أفتقدك بشدة.

-كارو. ثم تصورت أن يكون رده هو:

وأنا أيضًا أفتقدك بشدة. تعالي حالاً وتناولي الطعام معنا، هل تقبلين أن تتزوجيني؟ سوف أغير من نفسي من أجلك وسوف نعيش حياة كلها سعادة!

لكنني انتظرت ثانيتين أو ثلاثًا لأسمع إحدى هذه الإجابات التي تخيلتها أو أن أسمع منه ما يفاجئني به لكنني لم أسمع سوى أصـوات البنتين في الخلفية.

ولما لم أسمع منه أي رد بدأت أشعر بالتوتر:

- ألم تشتق إلي؟.

- طبعًا وحشتني يا كارو.. ولكن..

سمعت ما يمكن أن يأتي بعد كلمة لكن ولو لم يقل شيئًا؛ فأنـا أعرف أن ما سوف يأتي بعد لكن. . مجرد كـلام لـن يرضـيني.. سمعت ما لم يقله. وفجأة شعرت أنني أريد أن أذهب لقضاء حاجتي؛ فأنا أعرف نفسي، إذا توترت أسرعت إلى المرحاض؛ فذلك هو مـا يطلقون عليه القولون العصبي.

سألته في هدوء:

- لكن ماذا يا فيليب؟ هل عليك أولاً أن تعد أطبـاق الحلـوى للبنات؟

- يا كارو: دعينا نتصل غدًا في هدوء.

- لا أريد أن نتصل غدًا في هدوء. أريـد أن نتحـدث الآن، أريد أن أعرف ما مصير علاقتنا!

لقد ردد فيليب اسمي خلال الدقائق الثلاث الأخيرة أكثر مما نطقه على مدى السنتين الماضيتين.

- لا يمكنني الآن الحديث، لديّ ضيوف. سوف أتصل بك بعد ساعتين مرة أخرى، أوكي؟.

ولما كان العند يلقى رد فعل عند الرجال، قلت له بصوت متكاسل:

- سوف أكون قد استغرقت في النوم.

- أرجوك، سوف أتصل بك عندما يسود الهدوء هنا.

- في المشمش. قلتها ووضعت السماعة.

تصاعد التوتر في داخلي تمامًا مثل الفقاعات التي تطير في كوب به مياه غازية.

ذهبت إلى المرحاض وتمنيت أن يكون ذلك تفريغًا من الطعام وتفريغًا من الخوف. ولكن للأسف الأمر ليس كذلك؛ فالخوف لم ينضج بعد لكي أتخلص منه.

فيليب لا يفتقدني. فيليب راضٍ بالبعد عني. لقد كان الفراق بناء على رغبتي، كنت أريد فترة ابتعاد عنه لأني لم أكن سعيدة معه.

أما الآن فقد انقلبت الأمور لصالحه. حاولت أن أبدو أنني ألملم شتات نفسي. قلت لنفسي: اهدئي يا كارو، لا تكرهي النهار قبل أن يأتي المساء، هدئي اللعب، الجزاء لا يكون إلا على قدر العطاء.

دعني ألخص الوضع الحالي:

- ماذا أريد بالضبط؟

- أن يشعر فيليب بأنه يفتقدني.

- لماذا؟

- لأني أنا أفتقده.

- لماذا أفتقده؟ هكذا!

- إجابة أكثر دقة إذا سمحت.

- لا أعرف، هكذا وحسب.

- هل يمكن أن أفتقده أنا بسبب أنه لا يفتقدني؟

- لا أعرف، ولكن الأمر سيان والمحصلة النهائية واحدة.

- هل أشعر بالخوف من الوحدة؟ اتركني في حالي.

لا أريد الاستمرار في التفكير، أريد فقط أن أدخن أكثر وأكثر، ثم أستغرق في النوم قبل أن يتصل بي فيليب.

ولكن فيليب اتصل بالفعل حتى قبل أن أدخن بالقدر الذي أريده.

تركت جرس التليفون يرن لمدة خمس وعشرين ثانية وبعدها بخمس ثوان فتح صندوق الرسائل المحمولة، لقد انتصرت، فرددت بصوت منهك:

ألو:

قلت كسبًا للوقت:

- وبعدين؟

قال كما لو كان هو أيضًا يريد أن يكسب بعض اللحظات:

- وبعدين؟

- هل انصرفت السيدات الزائرات؟ أم أنهن ما زلن في سريرك؟

وكما لو أني سمعته يقلب عينيه وتصورته وهو يقول:

يا كارو؟ وفعلاً سمعت صوته يقول:

- يا كارو؟

قلت في نفسي: لكل مقام مقال؛ لذلك لا أريد أن أوجه لفيليب أسئلة جادة لأني أخشي أن تأتي إجابات جادة؛ لذلك سألته:

– ماذا طبخت لهن؟

وبينما هو يجيب عن سؤالي كنت أنا أفكر في السؤال التــالي. فكرت أن أسأله إذا كان قد بال مرة أخرى في المواصلات العامــة؛ لأن ذلك سيحتاج إلى إجابة طويلة.

ولكن فيليب ليس من الحساسية بمكان بحيث يشعر بمنــاوراتي لصرف انتباهه؛ لذلك أخذ يتحدث عن تماسك الفاصــوليا الخـضراء أثناء الطبخ.

– ما هذا الهراء! أنت لا تتحدث طوال الوقت إلا عن الطعام؟ ألم تستوعب أننا أمام مشكلة؟ هذا التباين والاختلاف بيننــا؟ فبينمــا علاقتنا تترنح ما زلت تتحدث عن نفسك!

أعلم جيدًا أنني بذلك أظلم فيليب؛ لأنــني لا أريــد أن أواجــه الواقع. لقد قررت أن أبدأ بالهجوم؛ فهو خير وسيلة الآن، سأســتخدم الكراهية كمعطف للتمويه، سأستعمل الكراهية كسلاح جديد.

– ماذا تريدين أن أقول يا كارو؟ لقد طلبت أن نبتعــد لفتــرة وأنا... أعتقد أن هذا القرار كان صحيحًا!

– ولكن كنت أتحدث عن فترة استراحة ولم أقــصد الفــراق؛ الفراق الذي تجده حلاً بالنسبة لك كي تتمكن أن تطبخ للبلهاءتين.

- الأمر ليس كذلك يا كارو، تتصورين أنك كنت تريدين فترة استراحة ولكن الحقيقة أنك كنت تريدين الفراق. لقد قلت إنك لست سعيدة معي ولا أنا سعيد معك. وكان معك في ذلك كل الحق، أنا فعلاً تعس. ولا يمكن للحال أن يستمر على ما هو عليه. نحن لا نصلح لبعضنا.

لقد صدمتني هذه الكلمات، فليس هذا هو فيليب الذي أعرفه، لقد كنت أتصور دائمًا أنه جبان.

- ولكني افتقدك يا فيليب، وهذا سوف يغير الأمر تمامًا.

وفجأة شقشقت كلمات الدكتورة آنيت في أذني: هل سيتغير الأمر فعلاً؟ رد فيليب بصوت لم أتوقعه: هل سيتغير الأمر فعلاً؟ أعتقد أن الفراق هو الأفضل بالنسبة لنا.

أن تستيقظ في الصباح مكتئبًا أسوأ بكثير من أن تكون مكتئبًا على مدى اليوم. الأفضل أن تكتئب في المساء بحيث تستطيع أن تدخل سريرك وتخلد إلي النوم، ساعتها سيكون أمامك عدد من الساعات تكون فيها بعيدًا عن الاكتئاب. وتحلم أثناء النوم أنك نجم أو لاعب كرة شهير (هذا ما يحلم به الشباب)، ولكن للأسف لا أرى هذه الأحلام. فعندما أمر بمشاكل عاطفية أحلم بأن الأمور سوف تعود إلى ما كانت عليه، بل ربما أفضل مما كانت؛ فأحلم مثلاً أننا أنا

وفيليب قد عدنا إلى بعضنا وأننا نعيش قصة حب كما نراها في الأفلام, أرى فيليب دائمًا في حالة مزاجية رائعة. أحلم أننا انتقلنا لنسكن معًا وأنني حامل. ثم أرى الصديقتين جيني وإسا وهما تنظفان منزلنا وتدلكان لي قدمي، حتى لو لم تكن نظيفة بالقدر الكافي. أقصد قدمي وليس الصديقتين. أشعر أنني منتشية وسعيدة طوال اليوم، أرى كل ذلك في الحلم.

وفي الصباح، بعد أن أكون قد نمت لمدة ثماني ساعات، أشعر بأنني وحيدة. ينتابني هذا الشعور كل صباح، أستيقظ وكلي حيوية ونشاط ومليئة بهرمون السعادة، ولكني بمجرد أن أستيقظ، يتجشأ الواقع برائحة فمه الكريهة في وجهي صائحًا: لقد خدعتك! وسوف أمضي اليوم بأكمله معك. أرى أمامي اثنتي عشرة إلى ثماني عشرة ساعة من الألم والبؤس وهي تمتد أمام عيني كالبساط الأحمر.

أعرف نفسي جيدًا عندما أمر بأزمة عاطفية، كما أعرف أن الحل هو أن أحاول تسلية نفسي وأن أتناسى. والتناسي هنا له قيمة عالية؛ فهو يجعل الشخص يستجمع قواه على مدى اليوم الذي تدق فيه كلمة النهاية على الباب.

أبكي لفترة في سريري ثم أقوم بتصوير نفسي من خلال التليفون المحمول وأكتب عليها: اليوم الأول، ثم أنهض من السرير،

أطلب من الحقيقة أن تتكرم بغسل أسنانها طالما أنها سوف تتصدر قائمة ضيوف قلبي على مدى الأيام (الأسابيع والشهور) التالية، ثم أتصل بصديقي المقرب نيلسون وأطلب منه أن يصطحبني أنا والحقيقة إلى البحيرة.

يوحي اسم نيلسون عمومًا بمضامين غريبة، إلا أن صديقي نيلسون ليس كذلك على الإطلاق فهو إنسان أكثر من عادي، جسمه عادي، له عينانِ لونهما بين الرمادي والأزرق والأخضر، وشعره أشقر غامق يميل إلى البني، اعتاد أن يرتدي تي- شيرت عاديًا وبنطلون جينز وحذاءً رياضيًا، ونظارته عادية.

هذا هو المظهر الذي يرى نيلسون أنه يناسبه، حيث إنه شخصية معروفة، فإن هذا المظهر البسيط نادرًا ما يجعل الناس يتعرفون عليه.

يعود تعارفنا أنا ونيلسون إلى وقت التدريب الذي أمضيته في وكالة الإعلان، كان هو أيضًا يتدرب في ذات الوقت إلا أنه ترك المكان لحصوله على وظيفة في قناة تليفزيونية للإعلان، استطاع خلال السنوات الماضية أن يصبح من أشهر مقدمي الإعلان في هذه القناة. أشعر بالفخر عندما يتعرف عليه الناس وأنا أسير بجانبه في الشارع. نحاول أحيانًا أن نبدو كما لو كنا زوجين، وقتها أشعر بأن

بعض شهرته ينزلق ليصل إليّ، إن هذا لا يعني أن نيلسون ما زال أعزب فهو متزوج من سيدة رائعة اسمها كاترين.

ورغم ذلك نمارس لعبة المشاحنة بين زوجين على قارعة الطريق فيصرخ الواحد منا في وجه الآخر، إلى أن يسحب أحدنا مخالبه؛ لأن الأمر أصبح مخجلاً فعلاً. ويعتبر الفائز منا هو الذي يصيح بحجة تضع الآخر في حرج بحيث يهمس له أن يصمت.

بالرغم من كون نيلسون إنسانًا جادًا جدًا ويستطيع أن يبعث في السيدات العجائز إحساسًا بربيع ثان، فهو قادر على أن يكون مرحًا ولكن بخبث، فرغم أني أعرف كل النكات والدعابات الخارجة، إلا أن نيلسون يستطيع أن يدهشني أحيانًا.

أثناء إجازة مشتركة أمضيناها منذ أعوام في البرتغال قررنا على مدى أيام أن نمارس رياضة القفز في الماء. استأجرنا سيارة وسرنا بمحاذاة الساحل، وكلما وصلنا إلى شاطئ نزلنا من السيارة وقفزنا في الماء لمدة خمس دقائق، ثم استقللنا السيارة واستمررنا في السير حتى وصلنا إلى الشاطئ التالي. وبناء على نظرية هرمان في الاسترخاء فإن الموضوع كان يهدف إلى الكم وليس الكيف.

وذات مرة ما بين الشاطئ العاشر والخامس عشر وقفنا أمام ميناء صغير به منطقة للسباحة. جذب انتباهي منظر الرصيف الأسمنتي الذي يبدو أنه مبني للمعوقين مستخدمي الكراسي المتحركة.

فما كان من ذهني إلا أن قفز بنكتة عادية حول مستخدمي الكراسي المتحركة على الشاطئ؛ وفجأة وجدت وجه نيلسون يتجهم ويقول: نكتة عادية جدًا يا كارو؛ فأبي وأمي يجلسان على كراسي متحركة.

تمنيت وقتها لو أن الأرض قد ابتلعتني واحمر وجهي بشدة، أدار نيلسون ظهره ونزل إلى الماء دون أن ينطق بكلمة واحدة، وفي هذه الأثناء خطر لي خاطر؛ أن أستقل السيارة وأهرب بها حتى لا أضطر إلى أن يقع نظر نيلسون عليّ مرة أخرى.

يا للخجل الذي شعرت به وقتها!!

كان من المستحيل أن أبحث عما إذا كان الموضوع مجرد دعابة من دعابات نيلسون؛ فلو أنني سألته ولم يكن الأمر كذلك لكان الحل الوحيد بالنسبة لي هو الانتحار، فلم يعد أمامي حل سوى أن أخجل من نفسي أكثر وأكثر وأن أغير موضوع الحديث.

وبعد مدة طويلة وبعد أن سألت نيلسون عن نفس الموضوع قال لي إن أهله بصحة جيدة ولا يستخدمان كرسيًا متحركًا ولا يحزنان. وقال لي إنه تصور وقتها أنه بسبب عدم استيعابي لطرفته أنها لم تعجبني. رائع! هذا هو نيلسون الذي أعرفه، يجيد عمل المقالب في الآخرين.

والآن فليتفضل نيلسون ويسمح لي أن أصطحبه إلى الشاطئ؛ فالجو حار جدًا وأخاف أن أصاب بمكروه لو لم يقم أحد بتسليتي على الطريق.

في السيارة سألني نيلسون:

- يا عروستي الجميلة، هاتي ما عندك من جديد.

بدأت فورًا في البكاء، فلم أعد أستطع أن أتحكم في دموعي في الفترة الأخيرة. فلم يعد هناك تمهيد للبكاء، لا ارتعاش بالشفاه ولا عيون مبللة أو صوتًا مبحوحًا، وإنما سفر الرؤيا (يوحنا) مباشرة.

لا يستطيع نيلسون أن يتعامل مع مثل هذه المواقف؛ فالأحاسيس الشديدة تربكه. لذلك فإن أول شيء يفعله هو أن يستخدم عقله (فهو يجيد هذا) ثم يقول كلمات مثل:

- تحبين أن أقود السيارة بدلاً منك؟

قلت له باكية:

- لا، الموضوع لا يستحق.

الواقع مخالف لذلك تمامًا. فالموضوع يستحق؛ لأني حزينة ومكتئبة، فأنا بلا عمل وبلا صديق أيضًا. ولكني لست أنا التي تنقل حزنها وكآبتها إلى الآخرين، ليس ذلك رغبة مني في عدم إطلاع

الآخرين على ما يدور بداخلي، وإنما لأني لا أريد أن أكون عبئًا على الآخرين ولا أن يمل أحد وجودي؛ لـذلك أغلـق أجفـاني وأسـحب إفرازات أنفي إلى أعلى وأحاول الابتسام ثم ألقي نكتة مفاجئة. لمـاذا أطلب المساعدة، بينما يمكنني مساعدة نفسي؟ سألته:

- كفى كلام عني أنا، نتكلم عنك أنت، ماذا عندك من جديـد؟ ما هي السلعة المطروحة في العرض الخاص فـي محطـتكم هـذا الأسبوع؟ ربما تكون عصارة الفاكهة الرائعة المطروحة الآن، أحتاج لواحدة لأن عصارتي...

إلا أن نيلسون لم يرغب في أن أستمر فـي الحـديث وقـال بصوت حاد:

- الواضح أن الأمور عندك سيئة للغايـة، أرجـوك أوقفـي السيارة على الجانب الأيمن!

ولكني لا أرغب أن أوقف السيارة على اليمين، فلـم نتجـاوز الشارع الذي أقيم فيه وبالتالي لم نصل إلى الطريق العام، ثـم إنـني أستطيع أن أتحكم في نفسي أكثر عندما أقود السيارة. هنا وفي مثـل هذه المواقف يختلف نيلسون عن الشباب الـذين يـصادقون البنـات ويقولون في مثل هذه المواقف:

- عذرًا يا حبيبتي!.

ولكن نيلسون يتصرف تصرفًا ناضجًا ومتعقلاً ويقول بعصبية:

- أقول لك توقفني يمينًا، ليس معقولاً أن تقودي السيارة وأنت تبكي بهذا الشكل، أنا لا أرغب أن أموت هنا!!.

ولما كنت غير متأكدة من ذلك، ولا أريد أن أغضبه فقد أوقفت السيارة حتى نتبادل المقاعد ويقود هو السيارة، لم أوقف السيارة حتى يتمكن نيلسون من معانقتي ولا أن يواسيني، ولكنا تبادلنا المواقع فقط.

فنيلسون يجيد تولي السيطرة على المواقف مثلي تمامًا. لا يعني هذا أنه لم يأخذ الموضوع بجدية، على العكس فقد بدت عليه علامات القلق تمامًا مثل الشرطي الذي يحقق في جريمة اغتصاب بحرفية شديدة؛ فهو يريد أن يكوّن نظرة عامة عن الموضوع حتى يتمكن من تقييم الأمور. فالشرطي لا يحتضن أحدًا وكذلك لم يفعل نيلسون، وبناء عليه بدأت أقص على السيد الضابط (!!) الموضوع بتفاصيله، فأنا لا أريد إثارة مشاكل مع النيابة!!

وأعطيت أقوالي كاملة: بداية من أول جلسة مع الدكتورة آنيت حتى الحلم الذي حلمته عن فيليب. وعندما انتهيت من الكلام كنا قد

وصلنا إلى الشاطئ، لم أشعر بأي تحسن في حالتي ولكنــي لــم أعــد أبكي. كان الشاطئ مزدحمًا إلا أننا استطعنا أن نجد مكانًا مناسبًا، تبدو هذه الكبائن الصغيرة كما لو كانت أقفاصًا، أخذت أبحث عــن المفتــاح في حقيبتي بينما نيلسون يرمقني بنظرة تعنــي: يــا لهــؤلاء البنــات وحقائبهن! إلى أن حضر شخص وفتح الباب وسمح لنا بالدخول.

استلقينا في مكان ظليل. اتضح احـساس نيلـسون ورغبتـه مشاركتي في حل مشاكلي حيث تركني أتحدث لمــدة ثلاثــة أربــاع الساعة بينما هو يستمع فقط ويوجه لي بين الحـين والآخــر سـؤالاً مختصرًا. وفي النهاية لم يعطني النصيحة وإنما أومأ برأسه موافقًــا وقال: في الحقيقة الموضوع معقد!

لم أكن أحتاج لأكثر من هذا، فالنصيحة لن تفيدني بــشيء؛ فأنــا أعرف كل الإمكانيات المتاحة لي وكل ما عليّ فقط هو أن أختار أحدها؛ لا أريد أن أسمع أن انفصالي عن فيليب كان هو الحل الأمثــل، كمــا لا أريد أن يقال لي: إن الأمر طبيعي في حالتي النفسية هذه، حيث إنني بلا عمل وأخضع لعلاج نفسي مما يضطرني أن أجتر مخاوفي.

أعرف كل ذلك كما يعرف نيلسون أنني أعرف ذلك. أعــرف أيضًا أن هذا هو أسلوب نيلسون في معالجة الأمور، وأعرف أنه يعلم أنني أعرف.

والآن ها نحن الاثنان مستلقيان على الشاطئ ونرسل على نفس موجة الإرسال؛ لذلك نستطيع الآن أن نذهب بتفكيري بعيدًا.

وضعت لنفسي خطة ممتازة ضد الألم؛ فحيث إنني لا أستطيع النوم لمدة طويلة فلا بد أن أترك المنزل فور استيقاظي من النوم؛ فالمثل يقول: إن ساعات الصباح تحمل في فمها قرفًا!![*] لذلك فأنا أنجز الكثير من الأعمال المتراكمة عليّ؛ فأجدد جواز سفري وأقوم بعملي في الكافيتريا خلال الفترة الصباحية (يرجع الفضل في ذلك إلى ابتكار وجبة تسمى البرانش: وجبة الطعام نصف الصباحية تقوم مقام الفطور والغذاء معًا، ثم أذهب إلى سوق أدوات البناء وأتعمد دائمًا أن أنسى شيئًا من قائمة مشترياتي؛ فقد نسيت مثلاً شراء بعض المسامير من المحل المتخصص، لذلك سوف أضطر للذهاب غدًا مرة أخرى إلى هناك.

لقد حاولت أن أستلقي أثناء النهار على الكنبة ربما استطعت أن أنام بهدف إضاعة بعض ساعات النهار؛ للأسف جاء ذلك بنتيجة عكسية، فبمجرد أن أحاول النعاس تهاجمني الآلام بقوة، ويطبق الحزن على صدري، فأستيقظ على نبضات قلبي السريعة وأسارع بالخروج من المنزل.

(*) يقول المثل الألماني: ساعات الصباح تحمل في فمها ذهبًا (المترجمة).

ألتقي بالكثير من الأصدقاء والمعارف؛ فأحكي لهم بكل فخر عن قطع علاقتي بفيليب وعن العلاج النفسي الذي أتلقاه، وأنه ليس في الإمكان أفضل مما هو الآن.

يسبب لي كل ذلك آلامًا شديدة ولكنها آلام شافية، أسمع من يقول لي: سوف تكون الأمور على ما يرام، أو من يقول لي: ماذا عندك من جديد؟

وبذلك أمضي اليوم كي أصل إلى نهايته وأنا منهكة؛ لأستيقظ في اليوم التالي على نفس المعاناة.

أشعر طوال الوقت بالقلق والضعف في الوقت ذاته، بدأت أطرافي ترتعش وأشعر دائمًا بحالة من الإرهاق. لقد أصبحت أنام على مدى النهار رغم أن هذا الأمر لا يفيدني، ولكن ما باليد حيلة.

بدأت أعد العدة والحقائب لرحلة بحرية جديدة، ثم صرفت نظرًا عن الموضوع. لا أستطيع أن أصلب طولي وأقف على رجلي، رقدت في سريري ولم أستطع النهوض منه كما لو كان أحد يربطني في السرير.

أخذت أنظر إلى الحقائب التي لم أعدها بعد وأفكر قائلة: يا للعجب، أف مما أنا فيه!

بدأت أشعر بالقلق على نفسي؛ لذلك دخلت على شبكة جوجل كي أستطلع معني الأعراض التي أشعر بها، رغم أنني أعلم جيدًا أنه ليس من المفروض أن أفعل ذلك.

عدم الرغبة في العمل، التعب، قلق داخلي واضطراب المزاج، كل هذه أعراض واضحة للإصابة بالاكتئاب.

قمت بأداء اختبار على شبكة الإنترنت اتضح لي منه أنني أعاني من اكتئاب من الدرجة المتوسطة. هكذا تسير الأمور، أليس من حق الشخص أن يشعر ببعض الحزن دون أن يكون مصابًا بالاكتئاب؟ أليس كذلك؟

ربما يكون هذا الاختبار مجرد مؤامرة من شركات الأدوية التي ترغب فقط في الترويج لأدويتها، ولكن لا يمكن ممارسة هذه الأمور معي؛ فأنا أعرف جيدًا الفرق بين المشاكل العاطفية والأمراض النفسية. قررت تأجيل الرحلة إلى الشاطئ؛ فأنا لم أقم بإعداد هذه الحقيبة الملعونة.

ثم.. ثم إنني متعبة جدًا.

ذهبت لمتجر الأدوات المنزلية لأشتري حاملة المناشف الماصة للسوائل الذي نسيت أن أشتريه المرة السابقة، لا عجب في

ذلك لما أنا عليه من انشغال. منحت نفسي الوقت الكافي للمفاضلة بين الحاملة المصنوعة من البلاستيك الأبيض وبين اللون المعدني والمصنوع من البلاستيك أيضًا. مثل هذه الأمور تحتاج إلى تأنٍّ وتروٍّ، صحيح أن المناشف التي أستخدمها بيضاء اللون، ولكن الصنوبر مصنوع من الصلب الذي لا يصدأ. يعني أن النوعين من المناشف يصلحان للحمام، ولكن ماذا يمكن أن يكون أفضل للمناشف ذاتها؟ فالبلاستيك الأبيض يبدو دائمًا من النوع رخيص الثمن بينما اللون المعدني ظاهر للجميع فضلاً عن كونه سخيفًا بما يسبب صدمة لمناشفي.

شعرت بعاصفة تنتشر في جسمي بأكمله.

وفجأة شعرت بها تقترب.

شعرت بقلق شديد مفاجئ، الواقع أن هذا الأمر أصابني عدة مرات خلال الأيام الماضية، أما الآن فهو شيء مختلف تمامًا. هناك شيء يتجمع بداخلي، قلبي يدق بسرعة شديدة وشعرت بأن شيئًا ضخمًا يتدحرج نحوي، مثل ***Stampede*** (*) بدأت تجري جميعها بلا سبب محدد وليست في اتجاه واضح. هكذا تصفه الموسوعة، وهذا هو بالفعل ما أشعر به؛ حيوانات مفترسة بلا أي سبب. ففي داخلي

(*) اتحاد غريزي بين الحيوانات المفترسة (المترجمة)

يركض كل شيء نحوي، صوته عال، وسريع وخطير يهددني، لا أشعر بالخوف من شيء محدد، لا شيء منطقي ولكن كل شيء يدعو للخوف.

بدأت أتصبب عرقًا. لا بد أن أخرج من هذا المكان على الفور. ولكن لأني أنا - كما أعرف أنا نفسي- فقد وقفت أمام الخزينة لأدفع ثمن أربعة حوامل للمناشف مصنوعة من البلاستيك الأبيض.

المرة الوحيدة التي أصبت فيها بنوبة ذعر كانت منذ حوالي عام، وكانت ليلاً أثناء نومي في سريري، شعرت بآلام غير محددة في ساعدي، فكرت للحظات في تشخيص محتمل لما أعاني منه، ربما جلطة أو انسداد رئوي، ولكن فجأة بدأت أشعر في جسمي كله برغبة شديدة للهرش، لم أعد أستطيع أن ألتقط هواء لأتنفس بل اضطراب في ضربات قلبي، وحيث إنني متابعة جيدة لبرامج التليفزيون فقد قمت بنفسي بإجراء إسعافات أولية لنفسي: خرجت إلى الهواء الطلق وتنفست بعمق وليس بتشنج. لقد وقفت لمدة عشرين دقيقة كاملة وأنا عارية تمامًا في شرفة منزلي وتنفست حتى تجمدت من البرد، ثم فتحت الراديو لأسمع تمثيلية إذاعية لكي أستطيع النوم أثناء سماعها.

لقد تعلمت طوال حياتي أن أحل مشاكلي بنفسي. فأنا اعتبر

نفسي مثل مدينة نيويورك ***If I can make it there, I'll make it any where*** إذا كنت قادرة على أن أفعل ذلك هناك، فأنا قادرة على فعلـه في أي مكان.

عدت إلى داخل المنزل وأنا أرتعد أتصبب عرقًا. صحيح أنني لست على ما يرام، ولكن مهلاً، فأمامي أشياء كثيرة يجب أن أنجزها.

إنه عيد ميلاد نيلسون ونحن على موعد بعد ساعتين؛ يجب أن أغلف الهدايا بالشكل المناسب. لذلك لا وقت لنوبات الخوف، خاصة وأنه لا يوجد سبب محدد يدعو لذلك، ثم إنني لست مريضة نفسية.

تجاهلت كون جسمي لا يستطيع أن يهدأ, فنهضت كي أغلف هدايا نيلسون، لم أستطع أن أقبض على شريط اللصق فألقيت نفسي على السرير ولكن. . لا فائدة؛ فما في داخلي يشبه الغابات الاستوائية، أصوات عالية ومتزاحمة. حاولت أن أتنفس بعمق وأن أهدأ ولكن بلا جدوى.

وقفت لكي أغتسل ولكني لم أستطع أن أصلب جسمي وأقف على قدمي؛ خرجت من تحت الماء دون أن أجفف جسمي وأخذت أغلف الهدايا وأنا عارية، بينما أستمع إلى موسيقى لم أتعود على سماعها. وفجأة شعرت بالخوف من كل ما اعتدت عليه، لم أستطع أن أدير جهاز التليفزيون خوفًا من أن يخرج منه ما يؤذيني.. ربما!!

أخذت أسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا ثم، ثم اتصلت بنيلسون:

- نيلسون، أقول لك إنني أشعر بشيء غريب، ربما يكون من الأفضل لو حضرت وأخذتني أنت بدل من أن آمر أنا عليك.. ممكن؟.

جاء رد نيلسون الطيب الذي لا يعرف أبعاد الموضوع:

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

حاولت أن أهون من الأمر فقلت له:

- أشعر كما لو أنني سوف أصاب بنوبة خوف وفزع أو شيء مثل هذا. لكن، سوف يكون كل شيء على ما يرام! متى ستحضر؟

- بعد ساعة تقريبًا، عندي ميعاد في المحطة.

حاولت أنا كارو هيرمان - والتي تقفز الكلمات على شفتيها - أن أداعب نيلسون فقلت له:

- لو أنكم ما زلتم تقومون بالدعاية للجهاز الذي أعنيه، أرجوك أن تقول لرؤسائك إني سوف أنصح باستخدامه.

- حسنًا يا خنزيرة، إلى اللقاء.

لكنه ليس من السذاجة بحيث يتصور أن الأمور على ما يرام، وبالرغم من ذلك تقبل دعابتي.

عدت لأسير داخل الغرفة، فنظرت إلى الهدايا ووجدت أن تغليفها فظيع؛ لأني لم أستطع أن أقوم بذلك بصورة جيدة؛ الورق كله منبعج ومغلف بلا اهتمام.

يجب أن أفعل أي شيء، أشعر بنار داخلي. أخرجت حوامل المناشف من الكيس وذهبت بها إلى الحمام لكي تسعد المناشف بها. ولكني لم أستطع أن أنتظر رد فعلها؛ فقد شعرت أنني أصبت بالجنون، فما يدور في داخل جسمي شيء فوق الاحتمال. أشعر بفوران شديد انضم إلى الخوف الذي أحسه ليطبقا معًا على صدري. لقد أحاطني هذا الغطاء الثقيل من كل جانب فلم أعد أجد الهواء الذي أتنفسه.. أشعر بالاختناق.

وجدت على أرض غرفة المعيشة مقصًا ملقى على الأرض فأصابني الخوف منه فجأة، بل خوف من نفسي فأبعدته عن المكان، حتى الشرفة أصابتني بالذعر، فلو أنني قفزت منها لمت فورًا ولانتهى معي الخوف والحزن.

اتصلت بنيلسون مرة أخرى وقلت له هذه المرة وأنا أبكي:

- ممكن تحضر مبكرًا بعض الشيء؟ أشعر بشيء غير طبيعي.

وقبل أن أكمل كلامي جاء صوت نيلسون الناضج الذي يبعث على الهدوء:

- سأحضر حالاً، أنا في الطريق إلى السيارة.

وددت لو عبرت له عن شكري وامتناني، إلا أن نيلسون لم يمنحني فرصة للكلام، بل أخذ يواصل كلامه:

- أنا خرجت من المحطة فعلاً وفي طريقي للسيارة، المسافة حوالي خمسين مترًا، أنا داخل السيارة، أقفلت الباب وأدرت السيارة. سأكون عندك حالاً، حاولي أن تهدئي قليلاً.

أجهشت بالبكاء فسالت كل أنواع السوائل من خلايا وجهي، فلم أعد قادرة على الكلام. أخذت أركض في جوانب الشقة مثل النمر الهائج، بينما سماعة التليفون ما زالت على أذني. أشعر بأن جسمي حقل للألغام. سمعت نيلسون يقول:

- أنا الآن أمر أمام المطعم الفظيع الذي تعاركت فيه من فترة مع الجرسونة لأنها أحضرت لك طعامًا غير الذي طلبته، تتذكرين ذلك؟

قلت له وأنا مستمرة في البكاء:

-نعم أتذكر أنني قلت لها أني لا أفضل الدجاج، لكنها أحضرت لي دجاج بالكاري.

لم تعد خطة نيلسون تجدي معي، شعرنا نحن الاثنان أنـــه لـــم يعد قادرًا على أن يصرف انتباهي عما أشعر به؛ فلم يعد يحـــاول أن يسعى إلى أن يقدم لي بعض الإسعافات الأولية على طريقته الخاصة.

- أنا أمر الآن أمام المحل المجاور، وعلى وشك الدخول إلى شارعكم، سأكون عندك فورًا. لا تخافي شيئًا يا جميلتي فسوف تكون الأمور كلها على ما يرام.

- في انتظارك. . ووضعت سماعة التليفون.

دق جرس الباب، فاستخدمت جهاز فتح باب المنزل عن بُعـــد، وحملت هدايا نيسلون على ذراعي؛ ليته لا يرى سوء تغليف الهـــدايا. فتحت باب الشقة وحاولت، بينما أنا أبكي، أن أرســـم علـــى وجهـــي تعبيرات أغنية: عيد ميلاد سعيد. شعرت بالخجل مـــن نفـــسي فقـــد استحوذت على كل الوقت، بينما المفروض أن يكون نيلـــسون اليـــوم هو محور الاهتمام؛ فاليوم عيد ميلاده هو.

بدا وجه نيلسون مهمومًا، فمددت له يدي بالهدايا بينما أنا أغمغـــم بكلمات عن عيد الميلاد وورق التغليف وحامل المناشـــف.. إلـــخ. لـــم أتعجب عندما كنت أضحك ضحكة صبيانية وأنا أقول هذه الكلمات.

لم يقل نيلسون أي كلمة، بل أدخلني إلى شقتي وأخـــذني بـــين ذراعيه.

ثم، ثم انهرت تمامًا.

هيا بنا إلى طوارئ المستشفى.

استلقى نيلسون وأنا على الأريكة، أو على الأصح أن نيلسون كان يجلس وأنا مستلقية ورأسي في حجره. سالت دموعي وأنفي وفمي من شدة البكاء على بنطلونه فاتسخ، قلت له باكية:

- أنا آسفة، بنطلونك بهذا الشكل يضعك في موضع الشبهة.

- كارو، استعدي كي نذهب إلى المستشفي.

نهضت واقفة وأنا أترنح ودخلت إلى غرفة النوم. لبست حذائي وفي هذه الأثناء كان نيلسون يعد لي فرشة أسناني.

وفي السيارة لم أكف عن البكاء. فالدموع تتساقط بلا انقطاع دون أن أستطيع السيطرة عليها، تمامًا مثل الموسيقى التي نسمعها في المصعد.

شعرت ببعض الهدوء أثناء سير السيارة ولكنني أحسست بالوحدة. أسندت وجهي المبلل على نافذة السيارة ونظرت إلى الخارج، إلى هذا العالم الجديد والقديم في نفس الوقت؛ فلم أعد جزءًا منه. أشعر أنني موجودة في مكان آخر، كما لو كنت داخل متاهة لا أستطيع الخروج منها، بل الخروج من داخل نفسي لو صح

التعبير. أنا في غرفة مظلمة بلا أبواب. وبها نافذة واحدة تطل على الأشخاص الآخرين، أستطيع أن أراهم ولكني لا أستطيع أن ألعب معهم بل يجب عليّ أن أقف في ركن الغرفة وحدي.

حاولت أن أفسر ما يحدث لي بطريقة منطقية، حاولت أن أفهم هذا الخوف المفاجئ من الموت رغم أني لم أفكر مرة واحدة بطريقة جدية أن انتحر. على العكس، بل لقد فكرت في الارتباط. إلا أن هذا المقص أفزعني، ربما يمكن أن يكون هو الخلاص المغري، فالألم الشديد يمكن أن يغير من الغرض الذي يستخدم فيه المقص في العادة، مجرد هذه الفكرة أصابتني بالفزع المرعب.

وصلنا إلى قسم الطوارئ دون أن يكون لدينا تصور محدد عما يمكن أن يقدم لنا من خدمات هناك، ولكن المؤكد أنني في حاجة إلى مساعدة، ربما حقنة مهدئة، أنا شخصيًا من أشد المؤيدين لهذه الفكرة، بينما استوقف نيلسون إحدى الممرضات اللائي يهرولن في المكان وبدأ يشرح لها المشكلة بينما أنا أقف مثل الكم المهمل، وأبكي تارة بصوت عال وتارة بصوت منخفض، سألت الممرضة بصوت عال وواضح وهي تشير نحوي:

هل تضحك أم تبكي؟.

قلت في نفسي: يا أيتها العاهرة، ماذا تتصورين مثلاً؟ وحتى لو كنت أضحك، أليس هذا سببًا كافيًا للقلق في هذا الموقف؟

طلبت منا أن نذهب إلى طوارئ الأمراض النفسية. يبدو أنني لا أنـزف بالقـدر الكاف؛ فالواضح أن الشخص لا يتلقى المـساعدة إلا إذا أساء استخدام المنشار الكهربائي أثناء العمل.

وجدنا طوارئ الأمراض النفسية معدة بطريقة جميلة جدًا وبها حديقة، الواضح أن المرضى النفسيين يجدون هنا المكان الفسيح كـي يحدثوا أنفسهم ويركضوا على راحتهم.

هكذا سيكون المستقبل بالنسبة لي!!

جلسنا في حجرة الانتظار ثم كان علينا أن ننتظـر. أردت أن أقضي حاجتي فذهبت إلى دورة مياه الزوار التي وجدت بابها مفتوحًا للأسف؛ لقد وجدت بداخلها رجلاً يجلس على المرحـاض ويقـضي حاجته، فقلت له من بين دموعي:

- أنا آسفة.

وأغلقت عليه، وعلى الرائحة الصادرة منه البـاب. أريـد أن أحكي لنيلسون عن هذا الموقف إلا أني أشعر بهزال شديد.

جلست مرة أخرى وأنا أشعر بمثانتي الممتلئـة، وتعجبـت أن يكون جسمي ما زال يحتفظ بسوائل يريد إخراجها بعـد كـل هـذه الدموع.

خرج علينا ممرض ممتلئ الجسم واتجه نحونا وسأل عما يمكن أن يقدمه لنا.

من الواضح أنه يعرف نيلسون لكثرة ظهوره في التليفزيون؛ لأنه اتجه بنظره نحوه أكثر مما نظر إليّ.

قصصنا عليه القصة، فسألني بعض الأسئلة التي لم أتمكن من الاحتفاظ بها؛ فأفهمنا أنه سوف يحضر الطبيب المختص وتركنا وذهب.

سألت نيلسون في عصبية:

- متى سيحضر أحد بالحقنة المهدئة؟

ثم ظهر الممرض البدين ومعه الطبيب الذي يبدو صغيرًا في السن، والذي أخذ هو أيضًا يدقق النظر في وجه نيلسون.

تم إدخالنا إلى غرفة الكشف، فكان علينا أن نقص القصة مرة أخرى. ولكن قبل أن أتلقى أي علاج، كان عليّ أن أبرز البطاقة العلاجية، وكذلك سداد مبلغ عشرة يورو؛ قلت في نفسي:

- تحت أمرك يا أيها الطبيب الشاب، بس كده، لا نريد أن نزعج أحدًا بمشكلتي البسيطة. على مهلك، هل تحب أن أذهب إلى البيت وأحضر لحضرتك شهادة التطعيم الخاصة بي؟

بدأت أشعر بالغيظ ورغم ذلك أحسست بالفخر؛ لأني استطعت رغم الانهيار العصبي الذي يقترب مني أن أشعر بالكراهية، هل من المعقول أن نجلس هنا نحن الأربعة في حالة استرخاء كما لو كنا نلعب الكوتشينة وننظر في عيون بعضنا.

بدأ الطبيب حديثه قائلاً:

- يا سيدة هيرمان، اسمحي لي أن ألخص الموضوع:

لقد قلت إنك تخضعين لعلاج نفسي منذ عدة أسابيع، فضلاً عن ذلك فقد قطعت الصلة بصديقك وفقدت وظيفتك. هل كانت هناك محاولات للانتحار؟

سألته وأنا أتعمد أن أتجاهل أسئلته:

- ممكن آخذ حاجة مهدئة لو سمحت.

قال الطبيب وهو يشير للممرض البدين أن يحضر شيئًا:

نعم، طبعًا، طبعًا.

ترك الممرض الحجرة وقد خاب أمله؛ فلم يكن يريد أن تفوته بعض الدقائق من هذا الموقف. تبادلت النظرات التي تحمل التساؤلات مع نيلسون فهز كتفيه.

وفجأة خطر لي خاطر، ربما يخشى هذان الشخصان شهرة نيلسون ويتصوران أنهما أمام الكاميرا الخفية.

ربما كان هذا هو سبب حرصهما الشديد في الكلام والتصرفات، أو ربما تصورا أنني واحدة من هؤلاء النساء ذوات الحساسية الشديدة اللائي يشعرن بالحزن ولا يستطعن السيطرة على الأمور، يا للهول، كل هذه الأفكار دارت بخاطري أنا شخصيًا.

عاد الممرض البدين وأعطاني قرصًا من عقار اسمه "***Talvor***" وهو مهدئ ضد الخوف لونه أزرق فاتح، طلب مني أن أضعه تحت لساني وأتركه يذوب.

لست هذا الشخص الذي يناسبه هذا العلاج؛ فأنا شخص عديم الصبر، لا أستطيع أن أتناول دواءً يحتاج لوقت كي يظهر تأثيره. لذلك فأنا أفضل الحقن أو على الأقل بعض القطرات لشربها، أي شيء يصل إلى الدم مباشرة، إلا أنني الآن في وضع لا يسمح لي بالاختيار وفعلت ما أُمرت به.

وكما هي عادتي سألت:

- متى يظهر تأثيرها؟

أجاب الطبيب الشاب وهو ينظر إلى نيلسون:

- بعد حوالي نصف ساعة يمكن أن تشعري بأنك أهدأ. وممكن أن تظهر عليك علامات التعب.

هذا هو حال السيدات ذوات النهود الكبيرة، لا ينظر الناس في وجوهن أثناء الحديث معهن، وأنا أعتبر هنا أن نيلسون هو صدري الناهد. سألت الطبيب:

- وماذا سيكون الحال بعد ذلك؟

رد عليّ قائلاً:

- أقترح أن تستمري في جلسات العلاج، ويمكن استشارة طبيب نفسي ليقرر إذا ما كنت في حاجة إلى أقراص ضد الاكتئاب.

وددت لو أني سألته: هل يمكن أن آخذ بعض الأقراص الآن؟

إلا أن نيلسون وضع يده على ركبتي وضغط عليها كما لو كان يقول لي: اسكتي!!

- أما إذا حاولت الانتحار فسوف نضطر أن نبقيك معنا هنا لفترة، هذه هي القاعدة المعمول بها.

- ليس هناك محاولات للانتحار.

قلتها كي يهدأ هو وأهدأ أنا أيضًا.

تـــراودني فقط أفكـــار عن فكرة الانتحار، ولكن هذا لا يعتـــد به بالطبع.

قرر الطبيب أن نخرج من العيـــادة، والواضـــح أن الاثنـــين يرغبان في الحصول على أوتوجراف من نيلسون، ولكنه اليوم فـــي مهمة خاصة بحيث يبدو مثل هذا الطلب نوعًا من عدم الكياســـة ولا ذوق. هذا ما نعرفه نحن الأربعة.

أنا هنا الأهم.

أخذنا أنا ونيلسون نسير في حديقة عيادة الطوارئ حتى يـــأتي القرص بمفعوله. اتصلت بالدكتورة آنيت وتركت لها رســـالة دامعـــة على جهاز الرد الآلي، ثم طلبت من نيلسون أن يتصل بفيليـــب. لقـــد كنت على قناعة كاملة أنه الوحيد الذي يستطيع أن يهدئني ويـــشفيني. لم يستحسن نيلسون هذه الفكرة، ولكن للضرورة أحكام.

وبالفعل اتصل نيلسون بفيليب في ذات الوقت الذي كنت أتلقي فيه مكالمة من آنيت ردًا على مكالمتي.

بدأت أحكي لها ما حدث لي وأنا أبكي وأنتحب، بينمـــا هـــي تحاول أن تهدئ من روعي.

- يمكن أن تمري عليّ الآن إذا رغبت يا كارو.

ولكني لاحظت أن القرص بدأ يأتي بمفعولـــه فحـــددت معهـــا موعدًا في صباح اليوم التالي. أنهيت المكالمة وبدأت أسير بخطـــوات

صغيرة داخل حديقة العيادة. لم أعد بحاجة إلى أن أبكي، وقفت أمام قفص للطيور لكي أبدو أنني أراقب ما في داخل القفص إلا أنني في الحقيقة كنت أراقب نيلسون والذي بدت عليه علامات الجد وهو يتحدث في التليفون، بينما هو يقطع الحديقة ذهابًا وجيئة، وبعد أن أنهى المكالمة أتجه نحوي دون أن تبدو على وجهه أي تعبيرات وقال:

حقير وأنا أعرف ذلك؛ يرى أنه ليس من الصالح أن يراك في الوقت الحاضر.

كانت صدمة بالنسبة لي فسألت نيلسون:

- هل قلت له إننا في عيادة الطوارئ؟ وإن الموضوع خطير فعلاً وليس مجرد موقف بسيط؟.

كنت خائفة أن يتصور فيليب بغبائه المعتاد أنني أدعي كل هذا، أجابني نيلسون:

- طبعًا قلت له، وقلت له كذلك إنني أرى أنه من الضروري أن يكون بجانبك في هذا الوقت، فقال إنه خائف أن يتصرف تصرفًا خاطئًا في هذا الموقف.

يا للسماء! يا له من شخص فاشل صديقي السابق هذا!. حتى في مثل هذا الموقف لا يفكر إلا في نفسه؛ فبينما أنا أدور باكية على عيادات الطوارئ في هذه المدينة وأخفي المقصات عن عيني لا يفكر فيليب إلا في إمكانية أن يتصرف تصرفًا خاطئًا!

أنا لا أريد إلا أن أرتمي بين ذراعيه اليوم بل الآن، حتى أعود إلى ذاتي.

سألني نيلسون إذا ما كنت أشعر ببعض التحسن وتأبط ذراعي لكي يوصلني إلى السيارة. أشعر كأنني قطعة من الصلصال بين يديه، الأمور كلها تتساوى بالنسبة لي الآن.

- أشعر بأنني مجهدة جدًا.

عدنا إلى وسط المدينة وأوقف نيلسون السيارة أمام منزله وقال لي بصوت أبوي واثق:

- سوف تمضين الليلة معنا!

لهذا أحضر فرشة أسناني معه إذن.

قلت له بصوت منخفض كما نشاهد مثل هذه المواقف في الأفلام:

- لا أريد أن أسبب لك إزعاجًا أكثر من هذا.

كنت أعني ما أقول بالفعل. فرد عليّ نيلسون بقوله:

- ليتك تتوقفين عن هذا الهراء يا كارو. لن تتسببي في أي إزعاج؛ كارين زوجتي تعرف أنك ستحضرين معي. أهلاً وسهلاً بك عندنا.

وفعلاً نزلت أهلاً وسهلاً، فقد قامت كارين بإعداد طعام العشاء لنا وأعدت لنفسها سرير الضيوف؛ فقد قررت كارين أن أمضي الليلة بجانب نيلسون في سريره حتى لا أشعر بالخوف.

دمعت عيني، ولكن دموع هذه المرة كانت دموع التأثر.

وبعد أن أكلنا الساندويتشات والكريز وشربنا الشاي، جلسنا أنا ونيلسون على سريره وأخذنا نفض الهدايا، وفرح نيلسون بكل أفكار الهدايا التي قدمتها له.

اكتشفت، وأنا أبدل الملابس، بقعة فضلات طائر على الملابس التي أرتديها، فأخذنا نضحك أنا ونيلسون ضحكًا هستيريًا.

كان الصباح التالي صباحًا تقليديًا، بعد العشاء وبعد العاصفة، تحول القلق والتوتر إلى إجهاد ورائحة فم كريهة بعد أن نمت بعمق بما فيه الكفاية.

أعدت كاترين الإفطار وفكرت في أن أسألها أن تسمح لي أن أناديها "يا ماما" ولكني ترددت في ذلك ولم أسألها أصلاً، بل بدأت في تناول الطعام ولكنه أكل يشبه من يعاني من أمراض المعدة؛ أي أنني لا أبلع الطعام. فأخذت أقرب قطعة الطعام من فمي ثم أروح وأجيء بها على طرف الطبق، ثم آخذ رشفة من مشروب الكاكاو. لا أستطيع أن آكل، فليس لديّ من القوة ولا من الشهية ما يساعدني على ذلك، النوم يطبق على أجفاني وأذني أصيبت بالصمم، ولكنه نوع إيجابي من الصمم. ولأنني لا أستطيع أن أشارك بفعالية في حياتي الخاصة فعلى الآخرين أن يأخذوا لي القرار. ماذا سأفعل الآن؟ فلو أنهم تركوا لي الأمر لدخلت إلى سريري، ربما إلى الأبد.

لذلك أخذ نيلسون القرار فذكرني قائلاً:

– موعدك مع طبيبتك بعد ساعة، سوف أوصلك إلى هناك، ادخلي وخذي حمامك، فرائحة الحزن تنبعث منك.

ابتسمت ابتسامة متعبة وذهبت إلى الحمام.

جلست بجانب نيلسون ليقود هو السيارة فانتابني النعاس أثناء السير؛ لأني أشعر بالاطمئنان ونيلسون بجانبي، لم يحاول أن يشغلني بالحديث فتركني أنعس.

وصلنا إلى العيادة فقال لي نيلسون:

- سوف أنتظرك في السيارة، أريد أن أتكلم مع آنيت بعد الجلسة، إذا لم يكن لديك مانع.

رحبت بي آنيت قائلة: كيف حالك يا كارو؟

عيناها الزرقاوات كانتا ترقبانني وكلهما قلق. فعيناي متورمتان من البكاء حتى أصبحت أشبه الملاكم بعد المباراة، ولكنني لا أملك الطاقة كي أجعل من هذا التشبيه نكتة أو دعابة. جلست في الكرسي الجلد وبدأت في البكاء مرة أخرى.

فاجأتني آنيت بتغيير نظام العلاج. طلبت مني أن أستلقي على بساط على الأرض. جلست بجانبي على الأرض وأدارت جسمي حولها، بمعنى أنني نمت على جانبي بحيث تصبح بطني بالقرب من مؤخرتها وهي جالسة. أفخاذي تلامس فخذها الأيسر، بينما ذراعي وصدري بالقرب من فخذها الأيمن. بدا الأمر كما لو كنت حزامًا حول جسمها.

أمسكت آنيت رأسي بإحدى يديها و قدميّ بالأخرى ثم قالت لي:

- انطلقي.

فهمت في هذه الأثناء أنها لا تعني المعنى الحرفي لكلماتها، فانطلقت بالفعل، انطلقت في البكاء كالأطفال الصغار. أجهشت بالبكاء فأخذ جسمي يرتجف من آلام البكاء. بحثت عن الهواء كي أستطيع أن أتنفس، وفي هذه الأثناء كانت آنيت تمسك بي بشدة وتمسح على رأسي وقدميَّ وهي تقول: أخرجي ما بداخلك.

بدأت أهدأ بعد أن خرج آخر ما بداخلي. لقد انتهى كل شيء؛ بدأت أسمع نبض قلبي في رأسي، عيناي متورمتان بشدة. أشعر بإحساس رائع، فراغ واسع، وهذا هو أفضل ما يمكن أن يحدث لي الآن. قلت لها كما لو كنت في غيبوبة: أشكرك جدًا.

ابتسمت آنيت واحتضنتني قائلة:

- يمكن أن تتصلي بي في البيت لو أحببت، لا تخافي، سوف نسيطر على الموضوع.

- سيكون هذا شيئًا رائعًا.

نزلت السلم ببطء وأرسلت نيلسون الذي أعتبره الراعي الشخصي لي إلى العيادة. بينما يناقش وليا أمري مشكلة طفلتهما - التي هي أنا - أخذت أدخن وأنا سعيدة بالفراغ الذي أشعر به بداخلي؛ فلم يعد هناك شيء بداخلي، لا خوف ولا حزن ولا حتى

أحاسيس. وأتحدى الآن أنني أستطيع أن أمشي بهدوء على نار مشتعلة، ربما كانت هذه فرصة كي أستغل هذا الأمر لكسب بعض المال، فكرت في تحديد سعر تذكرة الدخول لهذا العرض وكذلك عرض نومي على لوح المسامير، وبينما أنا أفكر في ذلك وصل نيلسون وسألني عما أريد عمله الآن.

– أنا بخير حقًا يا نيلسون وأعتقد أنني ممكن أن أكون وحدي. أنت كنت رائعًا معي خلال الأيام الماضية ولا أعرف كيف أشكرك. خجولة منك لدرجة أنني ممكن أن أبكي مرة أخرى، ولكن أيضًا أتصور أنني ممكن أن أقوم بدوري في الحياة بمفردي.

– لا داعي لهذا الهراء، لقد أخذت الأسبوع القادم إجازة، لديّ فقط بعض المواعيد في المكتب وليس هناك أي التزامات بعد ذلك. هكذا أصبحت من الآن فصاعدًا حارسك الخاص رسميًا. اعتبرًا هذا نوعًا من رعاية المسنين؛ يعني حين أصاب أنا بالجنون ساعتها، تولي أنت رعايتي.

أعرف جيدًا أن نيلسون ليس غبيًّا؛ فهو متأكد أنني لا أتحمل كل هذا العطف والرعاية، لذلك فهو يخفي صداقته في أوقات الشدة ويعرضها بصفتها صفقة. وهذا ما أحتاجه فعلاً. لم أثر ولم أعترض على ذلك؛ فقد كنت أضعف من أن أفعل، بل لقد فرحت جدًا بهذا العرض.

- رائع! لقد وجدت أخيرًا من يستجيب لاستدعائي المحبة، ولكن لن أبيت عندكم الليلة، لن أكون مستريحة، ثم إني المفروض أنني قادرة على المبيت وحدي.

- على راحتك، نتكلم في هذا الموضوع فيما بعد، دعينا أولاً نذهب إلى نزهة. أنت في حاجة إلى بعض الهواء النظيف.

رغم أنه مازح كبير إلا أن عنده حقًا.

تنزهنا بعض الوقت في الحديقة ثم جلسنا في المقهى وشربنا بعض المشروبات الساخنة ولعبنا الكوتشينة. بدأت أشعر بالثقة لدرجة أني تواعدت مع بعض الأصدقاء كي نذهب إلى السينما. أطلقت صراح راعيّ الخاص نيلسون بعد نوباتجيه عمل استمرت لمدة ثماني ساعات. شاهدنا في السينما فيلم رعب، إلا أن الأمور سارت على ما يرام لولا شعوري بنوبتين قصيرتين من الخوف تمكنت من التغلب عليهما بسرعة بأن أتنفس بعمق. من الواضح أنني لا أستطيع التعامل مع فكرة الموت. أنا بنت كبيرة وسوف أعود وحدي إلى المنزل وأدخل سريري بهدوء؛ لأن لديّ في الغد الكثير الذي يجب عليّ عمله: سوف أشتري مسامير من محل باو هاوس (بيت البناء) وأذهب لتناول القهوة مع أمي، عندي كذلك دعوة على العشاء، وسوف أذهب على مدى اليوم إلى صديقي نيلسون كي نلعب الكوتشينة.

استغرقت في النوم بسرعة.

كان الصباح التالي فظيعًا، فظاعة أعرفها جيدًا. فبمجرد أن استيقظت انهمرت عليّ التعاسة وغمغم بداخلي صوت يشبه صوت الراديو المنبه الذي يكرر صوت الحزن بصفة مستمرة. لم أنهض من السرير بل أخذت أحملق في سقف الحجرة وأدخن السجائر.

دق جرس التليفون وجاء والدي على الطرف الآخر، يتصل بي من مكان ما على بحر الشمال حيث يتولى رئاسة فرع شركة تأمين كبيرة هناك.

جاء صوته مبتهجًا: كيف حالك يا ابنتي؟

نتبادل كل شهرين مكالمة مشابهة، يحاول كل واحد منا خلالها أداء دوره كأب أو كابنه؛ صحيح أننا نحب بعضنا ولكننا لا نحتاج أن تكون العلاقة بيننا بصفة مستمرة، وهكذا الحال مع الأسرة كلها؛ فأنا نادرًا ما ألتقي بأمي ولكنا نرى هذا أمرًا عاديًا بل رائعًا. رددت على أبي قائلة:

– ليس على ما يرام، افترقنا أنا وفيليب وأصبت أمس الأول بما يشبه انهيارًا عصبيًا. وتوجهت إلى طوارئ المستشفى. كيف حالك أنت؟

كنت أثناء حديثي أبكي، لم أدرِ هل بدأت البكاء أثناء الحديث أم أنني أبكي منذ أن استيقظت في الصباح. عجيب أمري، فرغم كل ذلك أشعر بأن عقلي لا يرى سوى عالم سليم وصحيح.

صمت والدي برهة. ثم اختلفت نغمة صوته وقال بصوت حازم:

- اسمعي يا كارو..

أجهشت بالبكاء قائلة: نعم.

- كارو، إياك تعملي في نفسك حاجة، هذه أنانية سخيفة، فهماني؟

ما هذه اللهجة الحادة؟ ماذا حدث لأبي؟ قلت له:

- طبعًا لا، أنا بس أشعر بالبؤس ومش عارفة أتخلص منه إزاي؟ بس هذا مش معناه أني أموت نفسي.

لم أذكر له بالطبع موضوع المقص. سألني أبي:

- جميل. ماذا سوف تفعلين اليوم؟

بدا لي فجأة متنبهًا جدًا.

همهمت قائلة بأنني تواعدت مع أمي لنشرب القهوة معًا.

رد قائلاً: جميل.

استطردت قائلة:

لازم كمان أشتري ورق تواليت وأقابل نيلسون وبعدين أذهب آكل مكرونة مع أصحابي.

أردت أن أبين له أن الوضع ليس بهذا السوء، وأنني لن أملأ بانيو الحمام بالماء وأجلس فيه ألهو بموس حلاقة. أعجب أبي بقائمة الأعمال التي سوف أقوم بها، وكرر سعادته بأنني سوف ألتقي بأمي.

- طيب، أنا لازم أقفل الآن كي أخرج، فلديّ فعلاً الكثير لعمله.

فقال: - كارو تذكري ما قلته لك. أنا احبك جدًا جدًا.

- أجبته: وأنا كمان يا بابا.

والآن أرجو ألا أبدأ في البكاء مرة أخرى، فلا أحد يريد ذلك؛ البكاء أصبح الآن هو السمة الأساسية لي، فهناك فترة ما قبل البكاء وفترة ما بعد البكاء والفترة بين الاثنين تكون بلا مشاكل بسبب الفراغ الموجود فيها. لذلك أحاول استغلال هذه الفترة بأن آخذ حمامًا وأرتدي ملابسي ثم أذهب إلى أمي؛ فليس لديّ اليوم وقت كاف.

لم تكن أمي على وفاق في حياتها مع أبي، فقد تزوجت في سن العشرين ورزقت بابنة بعد عام من الزواج، لقد كنت أمل الأسرة؛ لأني عرفت أنهم سعدوا بي جدًا.

صحيح أن أبي لم يكن مهيأ لأن تكون لحياته صفة الاستمرار. كان ما زال يدرس واكتشف خلال هذا الوقت سحر السيدات غير المتزوجات، فانفصل والدي عن والدتي وأنا في سن الثامنة. لا أعرف الكثير عن نوع المشاكل التي كانت بينهما، ولكني أتذكر أنني كنت ألاحظ أن أمي تعيسة تعاسة أنستها أن تحنو عليَّ.

فذكرياتي عن أمي في طفولتي كانت تثير في داخلي الخوف أكثر من الحنان، فكانت دائمًا إنسانة تدعو إلى الاحترام، كان صوتها يعلو بين الحين والحين، وكانت يدها تنزلق بسرعة لتصفعني. لقد تعودت على الاستقلالية في وقت مبكر؛ ففي أول يوم دراسي في حياتي لم يصاحبني أحد إلى المدرسة ولكني ذهبت بمفردي.

يومها استيقظت وأعددت لنفسي طعام الإفطار وبللت الفوطة ليبدو وكأنني أخذت حمامًا فعلاً، أثناء ذلك كانت أمي لا تزال نائمة.

أتذكر مشهدًا يرتعد له أي طبيب نفسي: كنت وقتها في الثامنة، وأردت ذات مرة أن أذهب إلى أمي في سريرها وأنكمش بين ذراعيها، أو أن أمنحها قبلة لأودعها بها قبل الذهاب إلى المدرسة أو ما شابه. فما كان من أمي إلا أن أدارت ظهرها لي وقالت:

- لا، من فضلك، أنا لا أحب هذه الطريقة!.

فما كان من الجندي الشجاع الذي هو أنا إلا أنني انسحبت ولم أقل شيئًا.

حُفر هذا الموقف في ذاكرتي واستوعبت الدرس، لا انكماش في الأحضان بعد ذلك، ربما كان هذا هو التصرف الصحيح. قلت في نفسي: تمام يا أفندم! ولا أتذكر بعد ذلك أنني طلبت من أمي مثل هذا الأمر. لم ألح ولم أترجَّ بل وضعت الأمر موضع التنفيذ.

يمكن أن أقول بشكل عام إن تربيتي كانت صارمة، فإذا حدث ونسيت قبعتي مرة في مكان ما، فإن العقاب كان حبسي في المنزل لمدة أسبوعين. وإذا حدث وعثرت عليها بعد عدة أيام في المدرسة فلا يغير ذلك من العقاب شيئًا. أما إذا حدث وفقدت مفتاح المنزل الذي كان معلقًا في رقبتي، فقد كنت أحرم من مشاهدة التليفزيون، ولو نسيت يومًا أن أرتب سريري وكان مزاج أمي في ذلك اليوم

ليس على ما يرام فالنتيجة كانت صفعة محترمة على وجهي. هكذا عبثًا.

أما فترة مراهقتي التي لم يكن هناك مناص منها فقد كانت فترة مجهدة لي أنا ولأمي على حد سواء. بدأ صوتي يعلو، وبدأت أتذمر وأتضجر ولم تعد العلاقة بيني وبين أمي تطاق. كانت آخر صفعة نزلت على وجهي وأنا في سن السادسة عشرة.

ولكن إحقاقًا للحق فقد كانت أمي في بعض الأحيان إنسانة رائعة، كانت تعد لي بنفسها كل عام لعبة يحبها الأطفال في فترة أعياد الميلاد وهي عبارة عن نتيجة تضم بداخلها هدايا صغيرة. وعندما كنت أذهب إلى المعسكر الصيفي كانت تكتب لي خطابات ملونة وطويلة.

وكان الاحتفال بعيد ميلادي يمثل مناسبة خاصة لها بهجتها، أهدتني أمي مع أول دورة شهرية أصيصًا للزهور وقالت لي: لا بد للمرأة الحقيقية أن تتلقى زهورًا حقيقية. وذهبت معي لشراء الفوط الصحية اللازمة.

وفي عيد ميلادي الثامن عشر كتبت لي أمي خطابًا مؤثرًا ووضعته على مائدة الاحتفال. ووصفت لي في هذا الخطاب كيف أمضت فترة حملها ومخاوفها خلالها، وكذلك عملية الوضع وسنوات

عمري الأولى، كتبت لي عن حبها لي وعن كيف أنها ما زالت تحبني وتفخر بي أنا ابنتها الجميلة الذكية، كتبت لي أيضًا عن أمنياتها بأن أحيا حياة سعيدة وطلبت مني في خطابها أن أسامحها على قلة صبرها وصرامتها معي. لقد أرادت أمي كما جاء في خطابها أن تربيني بطريقة أفضل مما تربت هي عليه. ولكن الواضح أن القِدْرة قد كفيت على فمها كما يقول المثل(*).

أعلم جيدًا أن أمي تحبني، لقد عانت كثيرًا في حياتها ولا أحد يفهم أكثر مني مدى صعوبة احتفاظ الشخص بهدوء أعصابه في وقت تبصق فيه الحياة في وجهه.

استقللت بالسكن وأنا في سن التاسعة عشرة بما تسبب في تحسن العلاقة بيني وبين أمي بسرعة مذهلة. تركت أمي الشقة التي أمضيت فيها طفولتي وارتبطت بشخص جديد لمدة خمس سنوات ثم تركها ورحل.

أحضرت لأمي بعض الحلوى وشرائط موسيقية وحاولت أن أواسيها في مشكلاتها العاطفية بكلمات ذكية. فرحت أمي جدًا بحضوري وقالت: إنها فخورة بي جدًا.

(*) يقول المثل الألماني: إن التفاحة لا تسقط بعيدًا عن شجرتها. (المترجمة)

هناك بعض الأشياء لا يفهمها الشخص بالقدر الكافي. فـذات مرة مرضت أمي، تصورت أنها تعاني مرضًا عضويًا ولكن الواقـع أن نفسيتها هي التي كانت تعاني، كانت تصاب بنوبات من الخـوف وتبلع بعض الأقراص، انتقلت أمي للإقامة مع جدتي لمدة ستة أسابيع كانت خلالها تحاول في مكالماتها معي أن تتجاهل الحديث عن نفسها وتحاول أن يدور الحديث حولي وتسألني عن حالي.

الاكتئاب يورث، هل تعاني جـدتي مـن الاكتئـاب؟، ولكـن الواضح أنني كنت أوجه السؤال في الاتجاه الخاطئ، أما اليـوم فقـد عرفت أنني أشبه أمي أشد الشبه. نريد أن نتجـاوب بـل لا بـد أن نتجاوب، لا مجال للجدال في ذلك.

دعتني أمي لتناول القهوة في شقتها الصغيرة ذات الحجـرتين، لا يحدث ذلك بصفة منتظمة، ولكن عندما نلتقي ندخن كثيرًا ونشرب كميات من القهوة بينما نتحدث عن هذا وذلك. أحيانًا يكون اللقاء وديًا وأحيانًا أخرى يكون اللقاء روتينيًا.

لم يكن لديّ خلال الشهور الأخيرة ما أحكيه لأمي، ماذا أحكي لها وأنا بلا وظيفة ولا صديق، وبالتالي ليس عندي أي حكايات شيقة.

دققت جرس الباب وأنا أرجو أن ننهي مقابلة اليوم بـسرعة، فتحت أمي الباب فقلت لها بابتسامة شامتة كي أغيظها:

- هاللو يا ماما.

وقبل أن أنظر إليها، انهمرت الدموع من عينيَّ المتورمتين. لم تنطق أمي بكلمة بل أخذتني في أحضانها وبدأت عملية إخلاء محترفة. خلعت ملابسي ووضعتني في السرير ثم استلقت بجانبي؛ تصرفت بطريقة سليمة: ضمتني إلى صدرها وبدأت تمر بهدوء على بطني بينما لم أكف أنا عن البكاء. لا أذكر على مدى عمري كله أنني اقتربت من جسمها كما أفعل الآن. ثم أعَدَّت لي بعض القهوة ووضعت لي سيجارة مشتعلة في فمي. لم أقل شيئًا ولم تسأل هي عن أي شيء. أخذت أدخن بينما هي تمر بيدها على شعري، وفجأة قالت لي:

- بابا اتصل بي منذ قليل.

شعرت في لحظة أن سري قد أفشي، فقد تحدثا معًا عني من وراء ظهري، تحدثا عن الحالة النفسية لابنتهما المشتركة، إذن لقد استعدت أمي لحضوري بينما تصورت أننا سوف نشرب القهوة فقط، ووددت لو كنت أنا أيضًا مستعدة لنفسي.

قالت أمي بصوت يشبه القرار: أنت سوف تسكنين من الآن معي هنا.

اعترضت قائلة: ما هذا التخريف؟!

ردت أمي: أنت التي تخرفين، أنت الآن مريضة، يعني ستبقى معي هنا، وغدًا سنذهب لدكتور نفساني ونرى ماذا سيقول.

ثم شرحت لي طبيعة حالة الاكتئاب وأن أول خطوة هي أن نتقبله ولا نحاول مقاومته.

قلت في نفسي علينا أن نقبله تمامًا مثل نزلة الأنفلونزا، إذا ما بدأت فسوف تمر ويشفى الإنسان منها. حكت لي أمي كيف أصيبت هي بالاكتئاب بعد أن افترقت عن صديقها, وكيف يصل الإنسان إلى مرحلة لا يستطيع تحملها لدرجة تفقده أي سيطرة على نفسه حتى يقوم الجسم بضرب الشخص في قصبة رجله لكي يوضح له أن الحال يجب أن يتحسن.

حزنت لما قالته لي وخجلت من نفسي؛ لأني لم أعرف مدى سوء حالتها في ذلك الوقت، ولكني أحسست بالخوف لأن أكون في المستقبل مثل أمي. فقالت لي أمي:

- لقد وصلت إلى أقصى مدى للمرض وليس في الإمكان أسوأ مما كان.

شعرت بالهدوء فالآن تهتم بي أمي، أمي أنا.

يخلط بعض الناس بين طبيب الأمراض النفسية والعصبية وأخصائي العلاج النفسي، صحيح أن لطبيب الأمراض النفسية والعصبية الحق أن يعالج المرضى ولكن هذا الجزء من تخصصهم لا يعنيني الآن؛ لأني أخضع بالفعل للعلاج النفسي لدىّ طبيبتي آنيت.

طبيب الأمراض النفسية والعصبية متخصص يقوم بتشخيص المرض على طريقة الدكتور "هوزه" الذي نراه في التليفزيون، فبناءً على دراستهم الطبية يستطيعون الوصول إلى ما يعاني منه رأس الإنسان أو مخه ومراكز التوصيل العصبي لديه، متأثرين في ذلك بطبيب الأمراض النفسية والعصبية الذي يؤدي دوره في الحلقات التليفزيونية بطريقة غير تقليدية. يستطيع أطباء الأمراض النفسية والعصبية تشخيص المرض بطريقة شديدة الدقة وتحديد العلاج بالأدوية.

الدكتورة كليفه طبيبة الأمراض النفسية والعصبية هي اختيارنا الثالث؛ فمنذ الساعة التاسعة صباحًا وأنا أجوب المدينة مع أمي للبحث عن طبيب لديه وقت لي. الأول وهو طبيب أبي المعالج والثاني طبيب أحد معارفها، لم يكن لديهم مواعيد في هذا اليوم أو أنهم لا يأخذون مرضى جددًا.

قررنا أنا وأمي أن نجعل حالتي أكثر مأساوية مما هي عليه. ربما كنت أشعر ببعض الضعف ولكنني نمت هذه الليلة نومًا عميقًا لذلك أشعر بهدوء وثقة. ورغم كل ذلك أخذت أحكي لممرضة العيادة عن نوبات الخوف الشديدة التي تنتابني، فنجحت خطتي وحصلت على موعد للمقابلة والكشف.

تذكرني الدكتورة كليفه بجودي فوستر وهذا ما طمأنني جدًا. كانت طبيبة جادة وواعية. تأملتني بدقة ونظرت في عينيَّ، ثم سألتني أسئلة محددة عن بعض الأعراض وعن بعض ظروفي الحياتية بوجه عام. أستطيع الآن أن أجيب عن هذه الأسئلة بصورة جيدة بعد أن اعتدت عليها ممن حولي. اغتظت جدًا من عدم الاحتفاظ بمونولوجي هذا على شريط؛ بحيث أستطيع أن أعيده على مسامع الأطباء الآخرين في المستقبل؛ كي أتمكن في هذه الأثناء من اللعب في أنفي أو تدخين سيجارة.

شرحت لي الدكتورة كليفه باستفاضة وموضوعية أن الحياة المتوازنة تقوم على خمس دعامات: الأسرة والحياة العاطفية والسكن والوظيفة والأصدقاء. يعني ذلك أنني فقدت خلال الفترة الماضية عددًا من الدعامات مما يسبب عدم توازن لا يقدر البعض على تحمله، وبالتالي من المنطقي أن تكون حالتي على ما هي عليه.

ثم شرحت لي الطبيبة المبررات الطبية للاكتئاب؛ فعلى حد فهمي أنه عند حدوث حالة اكتئاب يقل في الجسم لسبب ما إنتاج مادة السيروتونين - وهي مادة ناقلة مسئولة عن توصيل الانفعالات وغيرها إلى المخ، مثل: الغضب والحزن والخوف، فلا يتم توصيلها أو إعادة إرسالها إلى نقطة الاشتباك العصبي بالشكل السليم، وبالتالي

فالنتيجة تكون تخزينًا للانفعالات تمامًا كما في حالة الإصابة بالإمساك. في مثل هذه الحالات يتم وصف بعض مضادات الاكتئاب لتنظيم إنتاج مادة السيروتونين في الجسم.

لقد وصفت لي الدكتورة كليفه كل هذا بالتفصيل بل ورسمت لي رسومًا توضيحية إلا أنني لم أحتفظ إلا بالمعلومات التي تهمني. فهمت أنني أعاني من الإمساك، فلم تعد رأسي تقوم بالتصريف بالطريقة السليمة، وبالتالي فلم أعد أميز في عواطفي بين ما هو مهم وما هو غير مهم.. أرجوك أعطني هذا الدواء.

ولكن الدكتورة كليفه كانت ترغب في معرفة بعض المعلومات عني، وأنا أيضًا أريد معرفة المزيد فسألتها:

- هل أعاني فعلاً حالة اكتئاب؟ وكم من الوقت سيستمر هذا الوضع؟

أجابتني بقولها:

- الموضوع ليس بهذه السهولة، الأعراض عندك غير واضحة؛ فمن أهم أعراض الاكتئاب مثلاً كثرة التأمل، هل تتأملين كثيرًا يا سيدة هيرمان؟

تأملت كلماتها لبرهة ثم قلت لها:

- لا أعرف، لا أعتقد، ليس أكثر من العادي، أو على الأقل ليس بالقدر الذي أتصور عليه التأمل التقليدي؛ عن مغزى الحياة مثلاً، لا..لا أعتقد.

سألتني الطبيبة: هل لديك مشاكل في النوم؟

أجبتها: لا، في الواقع كان لديّ في الظروف العادية مشاكل في النوم، ولكن منذ بدأت حالتي تسوء أستطيع أن أنام جيدًا، أغط في النوم، بل وأنام الليلة بطولها دون انقطاع. ما أعاني منه هو الاستيقاظ في الصباح.

وشرحت لها مدى فظاعة صباح كل يوم بالنسبة لي.

قالت لي د. كليفه: إن الأعراض الطبيعية لهذا المرض أن يعاني الشخص في المساء.

وبعد عدد من الأسئلة الأخرى استبعدت الطبيبة أن تكون الحالة هي حالة اكتئاب، ولكنها اعتبرتها حالة اضطراب مزاجي، والأرجح أن يكون ذلك بسبب ظروفي الحياتية كما اعتبرت أنني أعاني اضطرابًا في التكيف.

أؤيد هذا التشخيص بشدة، فأنا أخاف من كل ما هو جديد بالنسبة لي.

كتبت لي الدكتورة جودي فوستر كليفه دواءً خفيفًا ضد الاكتئاب ويقلل كذلك من حدة الخوف. أكدت لي الطبيبة أن تطور صناعة الأدوية قد حقق نجاحًا كبيرًا في هذا المجال بحيث لم تعد هذه الأدوية تسبب إدمانًا، كما أنها ليس لها أعراض جانبية لو استخدمت على المدى الطويل. طلبت مني أن أتناول هذا الدواء لمدة ستة أشهر؛ لأن مادة السيروتونين تحتاج لمدةٍ طويلة كي تنتظم. كذلك قالت لي: إن عليّ أن أتوقع خلال الأيام الأولى من استخدام الدواء أن تطرأ عليّ بعض الأعراض الجانبية ولكنها في معظم الحالات لا تلبث أن تزول خلال الأسبوع الأول من الاستعمال. كما أضافت أنه عليّ أن أتوقع خلال الفترة الأولى تفاقم بعض الأعراض الموجودة بالفعل مثل القلق والخمول. إلا أن تأثير المادة التي تخفف من حدة الخوف سوف يظهر بسرعة، أما تأثير المادة ضد الاكتئاب فسوف يظهر بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر. وزيادة في الاحتياط سوف تكتب لي روشتة بالأقراص المهدئة التي كتبها لي طبيب عيادة الطوارئ، ولكن عليّ الحرص في استخدامها في الحالات القصوى فقط لأنها تسبب إدمانًا في حالة سوء استخدامها. اتفقنا.

قررت الدكتورة كليفه أن أعود إليها بعد ثلاثة أسابيع إلا إذا طرأت عليّ مشاكل بسبب الدواء فيمكنني أن أمر عليها في أي وقت،

وأشارت عليّ أن أستمر في جلسات العلاج النفسي. ولما سألتها: متى سأشفى تمامًا؟ أجابتني ولأول مرة بابتسامة:

- لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك. ولكن مشاكلك العاطفية قد تكون خلال سنة أشهر أفضل بكثير.

كفاني هذا الكلام الآن على الأقل.

كانت العودة للحياة مع أمي شيئًا غريبًا وجميلاً في ذات الوقت. بدا الأمر كما لو كنا نعيش أنا وهي في مسكن مشترك للبنات؛ فسرعان ما اتفقنا على طقوس معينة. تستيقظ أمي في الصباح قبلي لأنها تحتاج مدة نصف ساعة تشرب فيها القهوة في هدوء كي تعتلي مسرح اليوم الجديد، في هذه الأثناء أتقلب أنا في سريري وأحاول أن أبقي على تعبي كي لا أشعر بانقباض مبكر، وعندما ألملم شتات نفسي وأجر ساقي إلى الحمام، تضغط أمي على زر غلاية الماء لتعد لي القهوة المصنوعة من البن المخلوط ببعض الحبوب، فشدة قلقي تجعلني لا أحتمل شرب القهوة العادية؛ لأني أصبح بعدها كالذي يسير على فحم مشتعل، وهو أمر غير مطلوب حتى بدون وجود اكتئاب.

أتسحب إلى المطبخ بأنفاس منتعشة ورأس مطأطأة، حيث تعد لي أمي كل صباح قطعة من التوست وتضع عليها حشوًا ولكني في كل مرة لا آكلها، فمن المحال أن آكل شيئًا في الصباح، إحساسي في

الصباح يشبه من هو مُقدم على عملية قلب مفتوح. وذلك لمدة ساعات، فلا أحد يستطيع وقتها أن يأكل،

ولكن أمي ككل الأمهات ترجوني وتتوسل إليّ أن آكل حتى ولو نصف قطعة من الخبز، ثم نتفق على أن آخذ قضمة واحدة ولكن بعد أن أقول بطريقة مسرحية: يا ساتر.

ولكننا لن نتركك تموتين جوعًا، لذلك اشترينا مشروب الحليب بالشيكولاتة وعصير خضراوات؛ لأن شرب السوائل أسهل وأكثر تقبلاً.

وأثناء تناولنا مشروباتنا الساخنة نبتلع معها أقراصنا إياها، والتي توضع بجانب بعضها كأصدقاء في وعاء فخاري صغير. منظر نضحك له أنا وأمي، ثم بعد ذلك نجري القرعة على مدة البقاء في الشرفة، فبينما تريد أمي البقاء هناك المدة التي تدخن فيها سيجارة فقط (وقد كانت عائلتي دائمًا تقيس الوقت بطول مدة تدخين السيجارة) كنت أنا أريد أن أبقى بها طوال مدة الصباح، حيث يمكنني أن أجلس في الشمس وأرشف في مشروب الكاكاو وألاحظ أنني أهدأ شيئًا فشيئًا.

أقرأ كل يوم أشياء بلهاء، عناوين كتب تحمل اسم "شيكولاتة على الإفطار" أو "فم الفراولة" أو "الحلو حذاء جديد"، أما أكثر العناوين بلاهة فهو اسم كتاب "برادا، بومس وبودرة الأطفال" من

شدة خجلي من هذا العنوان أخفيته في ورقة جريدة. إن الأدب النسائي هو المناسب لي هذه الأيام؛ لأن التليفزيون والإنترنت أصبحا يسببان لي خوفًا شديدا، لا أعرف لماذا؟ كل ما أعرفه أنني أشعر معهما أنني مهددة، فهما شديدًا القرب من الواقع ومن الحياة اليومية. أما أنا فلا أشعر بأنني واقعية، لذلك فأنا لا أريد استيعاب شيء من حياة ليس بمقدوري أن أشارك فيها.

حين لا يكون لدى أمي وقت لي يأتي حارسي الخاص نيلسون ويرعاني فنلعب الكوتشينة ونتنزه داخل الحديقة.

وبعد ثلاثة أيام أحسست بأنني قد شفيت تمامًا رغم أنني ما زلت متعبة وأشعر بقنوط شديد، ولكني في النهاية لا أعاني سوى من اضطراب مزاجي بسيط وبعض المشاكل العاطفية، كل هذا لا ضرر منه.

قررت أن الوقت قد حان لأعود للسكن وحدي؛ كتبت ذلك على ورقة وتركتها لأمي ثم انصرفت إلى منزلي، هناك تصرفت بحذر على سبيل الاحتياط وقمت بكل الأعمال التي نراها في التليفزيون والمجلات النسائية إذا ما كان الأمر يتعلق براحتنا.

أخذت حمامًا للاسترخاء وأوقدت في كل مكان حولي شمعة ثم انكمشت على الأريكة. ولم يبق سوى جورب صوفي واسع وفنجان

من الكاكاو الساخن كي أصبح على بعد خطوات من بطلات الكتب البلهاء التي أقرؤها. وحتى يكون هناك توازن في الأمر، فقد أخذت أدخن بشراهة. (حاولت أن أمارس العادة السرية التي كنت أجيدها ولكن بلا جدوى) لذلك خلدت للنوم.

قالت لي أمي إن الوضع لا يمكن أن يسوء أكثر مما هو عليه، إلا أن أجدادنا قالوا: الأسوأ لم يأت بعد. وقد جاء الدليل على صحة هذا الكلام في منتصف الليل.

استيقظت على سخونة شديدة في صدري، استيقظت فجأة. أحسست بالقلق لدرجة أنني شعرت أنني سأنفجر، دق قلبي مثل قلب عصفور صغير. نهضت واقفة في سريري وحاولت أن أسيطر على الموقف وأن أهدئ نفسي. وقفت عارية في الشرفة بلا فائدة وكذلك لم يفلح التنفس بعمق. أخذت أجري في أنحاء الشقة إلا أن حرقان صدري امتد إلى ذراعي الأيسر، ثم شعرت بحرارة شديدة تنتشر في نصف جسمي الأعلى. نار، نار، نار، كل شيء مشتعل. ربما أصبت بأزمة قلبية، ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ الاتصال بطبيب الطوارئ؟ ماذا لو سخر مني؟ بحثت بيدين مرتعدتين عن أقراص الطوارئ الزرقاء التي أعطتها لي الدكتورة كليفه، فإذا كانت لا تستخدم إلا في حالة الطوارئ فهذا هو وقتها. بكيت من

الخوف في الحمام ولكن بلا دموع. ربما كان جسمي منشغلاً بأمور أخرى وبالتالي الأعصاب معطلة عن إنتاج الدموع.

اتصلت بأمي بعد ثالث محاولة؛ فلم أكن قادرة على لمس الرقم الصحيح، ورغم أن الساعة كانت الثانية صباحًا فقد ردت عليّ، فقلت لها:

- أشعر بشيء غير طبيعي، ممكن أحضر لعندك؟

- طبعًا ممكن.

استقللت سيارة أجرة ولم أستطع النزول منها. أخذت أتململ على المقعد الخلفي فحاولت السيطرة على نفسي. صحيح أن النار التي كنت أشعر بها في نصفي العلوي إلا أن القلق مستمر. أشعر بأنني أكبر زكيبة ممتلئة بالبراغيث في العالم. تركت للسائق باقي المبلغ كإكرامية؛ لأني كنت أرتعد وليس لديّ وقت للبحث عن عملة صغيرة.

فتحت أمي الباب فما كان مني إلا أن رفعت ذراعيّ لتأخذني بين ذراعيها وتخلع ملابسي ثم تدخلني إلى السرير.

سألت أمي وأنا أبكي بصوت عال:

- هل أنا مصابة بأزمة قلبية؟

- لا يا حبيبتي، هي مجرد نوبة خوف؛ صحيح أن الأمر فظيع ولكنه سينتهي بسرعة.

نمت في السرير وأخذت أمي تمسح على رأسي فبدأت أهدأ شيئًا فشيئًا.

أحضرت أمي علبة سجائرها واستلقت بجانبي على السرير وقالت لي: لا بد لك أن تتقبلي مثل هذا الأمر يا كارو، يجب أن تقتنعي بأنك مريضة وتتصوري الآن أنك في مرحلة استشفاء، فجسمك غير قادر على تناسي الأمر.

جاء ردي في صورة نهنهة.

اختفت أمي للحظة وعادت ومعها خاتم قديم وضعته في إصبعي، كان خاتمًا فضيًا وبلا أي زخرفة وبه حجر شفاف ومستدير في حجم ظفر الإبهام.

قالت لي أمي: إنه كريستال جبلي، والكريستال الجبلي قادر على أن يمتص الطاقة المضرة من جسمك، ليس مهمًا أن يكون الخاتم أنيقًا في نظرك.

استرحت لهذا الكلام ونمت وفي إصبعي خاتم الكريستال الجبلي ونور الغرفة مضاء.

استسلمت؛ فأنا لا أستطيع أن أبقى بمفردي فما بالك بالسكن وحدي!

لقد انكسرت، ولا يمكنني أن أصلح من نفسي وحدي.

سوف أبقى في مرحلة استشفاء هنا.

قالت لي أمي:

فندق ماما مفتوح على مدى الأربع وعشرين ساعة وبواب الفندق يحبك كثيرًا.

- ولكن...

- لا مكان هنا للكن، أنا أمك وهذه وظيفتي، إذا اعتذرت مرة ثانية لأنك تتعبينني سوف أحرمك من الميراث.

كان تهديد أمي مضحكًا؛ لأنها لا تملك مليمًا واحدًا كي تورثه لي.

قلت لها مداعبة:

أنتِ ورثتني منك الاكتئاب وانتهينا. لم يبق عندك شيء.

ابتسمت أمي بشماتة وبشيء من الزهو وقالت:

- يكفينا كوننا فتاتين وأننا نتمتع بجمال ساحر، كل ما في الأمر أننا شخصيتان طائشتان!!

حاولنا أن نظهر لبعضنا أن الموقف طريف جدًا.

شهدت الأيام التالية تقدمًا بطيئًا وبدأت الأعراض الجانبية للدواء تختفي شيئًا فشيئًا.

شعوري بالقلق مستمر ولكنه يهدأ على مدار اليوم فضلاً عن أن فمي جاف بصفة مستمرة. أتصبب عرقًا بلا انقطاع. أضطر إلى التبول أكثر من المعتاد، ولكن لا مشكلة في ذلك فأنا أقيم مع أمي ودورة المياه قريبة مني ومتاحة في كل وقت.

لا أشعر بالتحسن ولكني أشعر بأنني أكثر توازنًا. تقلص الرأس بدأ ينفرج، صحيح أنني ما زلت أشعر بالحزن والتعاسة ولكني لم أعد منهكة القوى، لقد قبلت الأمر كما هو فالحبوب تؤدي عملها.

يخشى كثير من الناس أن حبوب علاج الاكتئاب تغير من وعي وشخصية من يتناولها؛ بمعنى أن تسيطر الحبوب على الشخص وليس العكس، ولكن هذا الأمر غير صحيح؛ فأنا لا أشعر بالغربة. لم تتسبب الأقراص في شعوري بسعادة زائفة، كل ما هنالك أنني أصبحت أقل فوضوية؛ فأنا أشعر بالحزن عندما أكون حزينة وقلقة وخائفة في الوقت المناسب للموقف. لم تعد كل الانفعالات تنتابني في ذات الوقت، وهذا ما يشعرني بالراحة.

تتساب الدموع من عيني عندما أسمع أغنية حزينة وأنا في السيارة - أغنيتي أنا وفيليب - ورغم ذلك فهي تعجبني؛ لأني أعرف سبب بكائي، أبكي لأني أفتقد فيليب ولأني أرثي لنفسي.

إنه شيء رائع.

نتعامل أنا وأمي مع حالتي مثلما نتعامل مع الأطفال؛ فلا نبدأ بأكثر من شيء مثير واحد في اليوم الواحد؛ فنذهب مثلاً يومًا في رحلة إلى السوبر ماركت لشراء مواد غذائية لا آكلها. وفي اليوم التالي نذهب في نزهة إلى المركز التجاري القريب من المنزل كي نشتري المزيد من الكتب البلهاء، وأقرأ واحدًا منها كل يوم.

ما زلت أشعر بالتعب وأنام أحيانًا على مدى النهار مما يسبب لي بعض الكآبة. تضعني أمي كل ليلة في البانيو وتطلب مني أن أضع الكريم على أقدامي، وتقول لي إن أقدامي هي التي ستحملني مدى الحياة.

إن ما نقوم به الآن ما هو إلا استعادة لمرحلة طفولتي، ولكن هذه المرة بطريقة صحيحة. وأعتقد أنني أفعل بذلك خيرًا لأمي؛ فنحن نقوم برحلة عبر الزمن ونغير الماضي.

في المساء تلقي أمي بنفسها بجانبي على السرير وتقول:

- هل قلت لحضرتك اليوم إني أحبك؟

فأجيبها دائمًا بقولي: لا.

فتقول أمي: إذن، أنا أحبك.

بعدها تراجع بريدها الإلكتروني؛ لأن جهاز الكمبيوتر موجود في غرفة نومها التي أقيم أنا فيها الآن، ثم نلعب على الجهاز لعبة سوليتير لبعض الوقت.

بعدها ندخن سيجارة "تصبح على خير" معًا تذهب أمي بعدها إلى غرفة المعيشة لتنام على الكنبة. اشتريت لها بعد عدة أيام سريرًا نقالاً يستخدم للضيوف حتى لا تنام نومه غير مريحة بسببي.

حاولت خلال الفترة التالية أن أقوم بكل شيء على أكمل وجه؛ فأتناول دوائي بانتظام، وأذهب إلى جلسات العلاج، ولا أحاول إجهاد نفسي أكثر من اللازم.

غلبت الفكرة على خاطري أنني مريضة، وأنني لن أغير من هذا الأمر شيئًا، واقتنعت أن الأمر سيتحسن. وبناء على نصيحة الدكتورة آنيت الصريحة، التي أوصتني بأن أشعر بنفسي أكثر مما أفعل الآن أيًا كان معنى هذه الكلمات، يجب أن أحسن إلى نفسي وأن أكون أكثر وذًا مع نفسي مثل أن أقول:

- هاللو يا كارو يا حبيبتي، كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟

جميل! ألا تريدين مني شيئًا؟ لو احتجت أي شيء، قولي لي فورًا!

أحاول بين الوقت والآخر أن أدلل نفسي بالمسح على ذراعي أو على وجهي، بل أحاول أن أحضن نفسي كما كنا نفعل أيام طفولتنا في المدرسة الابتدائية ونفرح بأن نبدو من الخلف كما لو كانت ذراعي شخصًا آخر. أفعل كل ذلك لأني لا أعرف فعلاً ماذا أفعل أكثر من ذلك. أعتقد أن الحضن الحنون تعبير واضح عن الحنو والعطف على الذات.

أود أن أشعر بحلاوة النجاح. أريد أن أشارك بلعب دوري في الحياة العادية وأكون كباقي الأطفال.

ذهبت مع أمي إلى محل يبيع البضائع الغريبة مثل الأحجار الكريمة وتماثيل بوذا، وجدنا كتب الأبراج ومواقع القمر وكذلك أعواد البخور وما إلى ذلك من أشياء مشابهة. وأنا أؤمن بهذه الأشياء بنفس قدر إيماني بالأبراج وحظك اليوم؛ لأن كل ذلك هراء. أما إذا كان ذلك مناسبًا في الوقت الحالي فلماذا لا؟ أنا في حاجة في الوقت

الحاضر لكل مساعدة ممكنة تقدم لي؛ مثل الكريستال الجبلي الذي أعطته لي أمي ويعتبر بداية هذا الموضوع.

اشتريت ما يقرب من نصف المحل: قطعة كريستال جبلي ثانية لأعلقها على صدري، وتمثال لملاك حارس من الحجر الرملي، فضلاً عن قطعتين من الحجر الأخضر للحفاظ على التوازن (واحدة لوضعها في حافظة النقود والثانية للسيارة) كما اشتريت أسطوانة مدمجة للتدريب الذاتي نصحتني بها أمي وكذلك الطبيبتان الدكتورة كليفه والدكتورة آنيت؛ إذن فالمفروض أنها سوف تنفعني؛ المثل يقول "المركب التي بها ريسان تغرق"، ولكني لن أسمح بأن تغرق مركبي.

لم يكن اختيار أسطوانة واحدة من بين عشرين أسطوانة أمرًا سهلاً، فقالت لي أمي: إن صوت المتحدث له تأثير كبير وبالتالي استمعنا إلى أجزاء من بعض الأسطوانات. إذا كان الأمر بيدي لاخترت أسطوانة عليها صوت آل كابوني، ولكن للأسف لا يوجد بالمحل سوى أسطوانة واحدة عليها صوت رجالي يشبه صوت المذيع الداخلي للسوبر ماركت، وباقي الأصوات كلها أصوات نسائية مثل دانا سكولي أو جودي فوستر، فيمكن لهذه الأصوات أن تقنعني أن أغلق عيني وأن أسترخي أو أي أوامر أخرى للتدريب الذاتي.

عمومًا فإنه من الصعب عليّ أن أسترخي، فأثناء جلسة المساج أكون في منتهى الاسترخاء وأحاول جاهدة أن أسترخي، لدرجة أنني

لا أستطيــع أن أستــرخي، في حمام به رغوة الصابون الدافئ مثلاً، لا أتحمل أكثر من عشر دقائق أكون فيهــا منفــصلة عــن العــالم الخارجي ثم أتململ وأخرج من الحمام.

أفضل كذلك أن أسير ثلاث ساعات بالسيارة علــى الطريــق الزراعي عن أن أستخدم الطريق السريع لمدة عــشر دقــائق وســط زحام للسيارات، أفضل أن أبقى في حركة مستمرة.

قررت شراء أسطوانة تدريب ذاتي بصوت ســوزان هــون؛ فصوتها يبدو أفضل بعض الشيء من صــوت عاملــة المــانيكير. وبالفعل، بمجرد دخولي غرفة نوم أمي استمعت إلى الأسطوانة تمامًا كما أجرب فستانًا جديدًا بمجرد شرائه.

استلقيت على السرير وخفــضت أنــوار الحجــرة. وضــعت الكمبيوتر الشخصي الخاص بي، والذي أستمع عليه إلى أسطواناتي، فوق بطني فسرى في جسمي دفء جميل. وجاء صوت سوزان هون برنينه القوي؛ فإما أنها قد سجلت هذه الأسطوانة في قــاعة للجمبــاز أو أن هذا هو صوتها الطبيعي. يصاحب صوتها أنغام هادئــة مثــل الكورال لكي يتصور المستمع أن سوزان تتفاخر بالملائكة أو بنفسها.

كذلك تعاني سوزان من عيب في النطق فهي تشدد جدًا علــى حرف السين بما أثارني بعد ثاني جملة نطقتها، ولكنه في ذات الوقت هو السبب الذي يدعوني لأن أستمر في الاستماع إليها.

يمنح التدريب الذاتي الشخص حرية أن يعطي التعليمات لنفسه، يبدو هذا الأمر مشجعًا وأنا أجيد ذلك. إذن، محاولة أولى: استرخي يا كارو، استرخي فورًا، وسوف يصبح ذهنك صافيًا في التو. ليس الأمر بهذه السهولة، في الواقع إن الاستماع إلى صوت سوزان ممل جدًا فنحن ما زلنا في المقدمة والأسطوانة مقسمة إلى ١٢ جزءًا:

١. المقدمة ٢,٣٥ دقيقة.

٢. الاسترخاء ٢,١٨ دقيقة.

٣. الهدوء وجاذبية الوزن ٤,٣٥ دقائق.

٤. الدفء ٦,٠٤ دقائق.

٥. القلب ٦,١٠ دقائق.

٦. التنفس ٦,٤٤ دقائق.

٧. جديلة الشمس ٧,٣٥ دقائق.

٨. الجبهة ٨,٢٦ دقائق.

٩. الرقبة ٦,٠٣ دقائق.

١٠. الشجاعة ٥,٠٦ دقائق.

١١. بدون ألم ٥,١٠ دقائق.

١٢. الخلود إلى النوم ٥,٣١ دقائق.

تستمر عملية الاسترخاء مدة ساعة وست دقائق وست وخمسين ثانية. قررت إلغاء فقرتي "ضفيرة الشمس" "والجبهة"، فورًا، وبذلك أكون قد وفرت سبع عشرة دقيقة، وكذلك فقرتي "الخلود إلى النوم" و"دون ألم" فلست بحاجة لهما، إذن لا داعي منهما، معنى ذلك أن عشر دقائق أخرى في سلة مهملات الكمبيوتر. أما المقدمة فلن أحتاجها فقد استمعت إلى أكثر من نصفها، أما الباقي فسوف أختبره. قررت أن أتخلص سرًا من فقرة "القلب" فمن المؤكد أن المعنى هنا ليس قلبي أنا وإنما القلب عمومًا.

وحيث إنني أجلس أمام الكمبيوتر أقصد تحته ففي استطاعتي أن أطّلع في الإنترنت على موضوع التدريب الذاتي كي أعرف ما هو بالضبط.

تظهر صفحة الويكبيديا بعض الدهاء فتكتب:

التدريب الذاتي هو تكنيك للاسترخاء يعتمد على الإيحاء الذاتي، وهو أسلوب معترف به للتغلب على التوتر والاضطرابات النفسية. هكذا إذن!!

لعبت دور سوليتير على الكمبيوتر، ثم بدأت أسترخي، لا مانع من سيجارة ولكن السجائر موجودة في حجرة المعيشة عند أمي. خرجت لأحضرها فسألتني أمي بسخرية:

ما أخبار تدريبك الذاتي؟ طبعًا فظيع.

أجبتها:

صوت سوزان هون يشبه بائعة بنطلونات الجينز في رويال ألبرت هول، ولكني أعتقد أننا يمكن أن نصبح أصدقاء لو أنها تبطئ من سرعة حديثها بعض الشيء.

لم تقل أمي شيئًا فهي تعرف ابنتها جيدًا. جلسنا ندخن معًا وطبعًا سيجارتان أحسن من سيجارة واحدة؛ لأن التدخين غير مستحب خلال الدقائق الإحدى وثلاثين التالية. (دون فقرة القلب) حاولت اختلاق بعض الموضوعات للبقاء مع أمي ولكننا نحن الثلاثة لا أنا ولا أمي ولا سوزان – من السذاجة بمكان بحيث لا نفهم أنني أبحث عن حجة لعدم بدء التدريب، ولكني لم أفلح فاضطررت لدخول حجرة النوم بعد السيجارة الخامسة كي أبدأ في الاسترخاء.

الجزء الثاني من الشريط: الاسترخاء. بدأ الشريط بصوت رنين كصوت الريح ثم صوت صفارة لمدة أربع وأربعين ثانية. سوف أختصر هذه المدة في المرات التالية. ثم تقول سوزان هون:

- اجلسي واستلقي في وضع راحة.

فجأة بدأت تخاطبني بصيغة "أنت" وليس سيادتك كما كانت تفعل في المقدمة. لا عليك. الجلوس أو الاستلقاء، وضع راحة، تم عمل المطلوب. يبدو أن أحدًا كان في أول الشريط في وضع وقوف وإجهاد وينتظر ماذا عليه أن يفعل.

- اسمحي لنفسك أن تهدئي؛ ليس المطلوب منك أي شيء. عليك أن تتصوري أنك تعبئين كل ما يؤرقك ويضايقك في علبة صغيرة وتضعينها أمام الباب.

علبة صغيرة؟! تعالي يا سوزان لكي تشاهدي علبتي، من الصعب أن أستطيع تعبئتها بهذه السرعة.

- اسمحي للعالم الخارجي أن يدور لفترة بدونك.

- هذه المرة كنت أسرع منك يا سوزان؛ فالعالم الخارجي يدور منذ أسبوعين بدوني.

- اجعلي تركيزك كله إلى الداخل، إلى عالمك الداخلي، من المهم جدًا بالنسبة لك أن تغوصي في أعماق نفسك؛ ففي أعماقك سوف تجدين القوة التي تسيطرين بها على يومك، في أعماقك سوف تقابلين انشراح صدرك وسكونك وقدرتك على الشفاء.

انتهى الجزء الثاني من الشريط. لو استمرت سوزان خلال نصف الساعة التالي تحكي لي عما هو مسموح وعمن سوف أقابل فلن أعرف رأسي من رجلي.

الجزء الثالث: الهدوء وجاذبية الوزن.

نفس صوت الريح ونفس الصفارة، جعلت فترة أربع وأربعين ثانية تمر بسرعة. ولكن للأسف لقد بدأت سوزان الحديث في هذا الجزء في الثانية الثامنة والثلاثين وقالت:

أنا هادئة جدًا ومطمئنة. هذا جميل جدًا بالنسبة لسوزان، ألم يكن من المفروض أن أكون أنا التي تشعر بالهدوء والطمأنينة أو على الأقل أن أصبح هادئة ومطمئنة؟

– هدوء داخلي عميق يسري في جسمي كله؛ أشعر أن ذراعيَّ ثقيلان، صحت بصوت عالٍ من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة:

– ما هذا؟ إلحقي يا ماما، ذراعا سوزان ثقيلان جدًا.

سمعت أمي تتنهد بصوت عال.

– لا عليك سوف أركز فعلاً.

كررت سوزان كلامها بصوت هادئ: ذراعاي ثقيلان، أنا هادئة جدًا ومطمئنة. ذراعاي ثقيلان جدًا، ثقيلان جدًا.

واضح أن الأمر كله يعتمد على التكرار؛ فسوزان تتحدث بصيغة أنا ولكنها تعني بذلك: أنت أو حضرتك.

ليس المفروض على المستمع أن يترجم هذا الحديث داخل رأسه ولكن عليه أن يبدأ فعلاً بالإحساس بالهدوء والاسترخاء، إذن فأنا في منتهى الاسترخاء وذراعاي ثقيلان جدًا. صحت بصوت عال:

– ماما آسفة، أنا فهمت خطأ، أنا الآن مسترخية وذراعاى ثقيلان.

سمعت ضحكة أمي وهي تقول: جميل.

كررت سوزان أننا في حالة هدوء وطمأنينة وأذرعنا ثقيلة أكثر من عشر مرات.

هذا الأمر ممل جدًا لدرجة أنني أصبحت فعلاً في حالة استرخاء. إذن فهو استرخاء ناتج عن الملل.

ضممت يدىّ ورفعت ذراعىّ إلى أكتافي وشعرت بقوة جسمي. تنفست بعمق شهيقًا وزفيرًا ثم فتحت عينيّ: رائع، حالة جديدة، حالة رائعة.

لقد أصبحت في حالة خمول من شدة الملل لدرجة أنني شعرت بقوة يديَّ وأنا أضمهما.

عظيم. النجاح الأول.

ضم الأيدي، شد الأذرع، نفس عميق، فتح العينين.

ضم الأيدي، شد الأذرع، نفس عميق، فتح العينين.

ضم الأيدي، شد الأذرع، نفس عميق، فتح العينين.

هل يعني هذا التكرار أنني أنا أيضًا يجب أن أكرر هذه العملية؟ أم أن هذه تعليمات موجهة لطفل لا يستطيع التركيز. التركيز من خلال التكرار. لا أفهم هذا جيدًا.

الجزء الرابع: الدفء.

هذا الجزء تحقق حتى دون سوزان؛ حيث إن جهاز الكمبيوتر الموضوع فوق بطني أصدر حرارة ودفئًا. وضعت الجهاز بجانبي وانتظرت صوت سوزان يتحدث عن الدفء.

ما زالت سوزان هادئة ومطمئنة وكذلك ذراعاها ما زالا ثقيلين، ثقيلين جدًا. واعتبارًا من الدقيقة ٢:٥١ أضافت إلى ذراعيها دفئًا مريحًا.

ذراعان دافئان، ذراعان دافئان، ....

التركيز بالتكرار وعدم وضع فعل في الجملة.

الذراعان والساقان في حالة استرخاء دافئ لمدة طويلة، طويلة جدًا حتى الدقيقة ٥:٣٥.

ثم ضممنا يدينا مرة أخرى ورفعنا ذراعينا الدافئتين إلى أكتافنا.

لقد سئمت وأسرعت في سير الشريط لأصل به إلى فقرة: التنفيس. فالأذرع والسيقان ما زالت دافئة ومسترخية فضلاً عن أن نبضي ونفسي هادئان جدًا.

ثم قالت سوزان بصوت غامض:

أتنفس نفسًا!

رحت في غفوة واستيقظت على صوت فريق رباعي سوزي؛ فحيث إن الموسيقى المسجلة على جهاز الكمبيوتر مرتبة أبجديًا فإن سوزي تأتي بعد سوزان مباشرة. الجميل أن سوزي تعرف أكثر عن الحياة فهي تصيح في وجهي قائلة: ***if you can't give me love honey, that's ain't enough*** (إن لم تكن قادرًا أن تمنحني حبًا يا حبيبي فهذا لا يكفي).

تمام هذا فعلاً حقيقي.

بدأت أفكر في فيليب ثم بكيت.

لم يقم فيليب في علاقته مع صديقته المكتئبة بدور يشرفه، وأغلب الظن أنه غير ملزم بذلك، لذلك فهو لم يعد ضمن قائمة

مرتبات الشركة المسماة قلبي، إلا أنني كنت أتوقع منه بعض الإنسانية. الواقع أن الأمر صعب! فكل هذه الأحاسيس التي أشرك فيها جسمي الآن تشد أعصابي مثل الأسلاك المعدنية التي تعترض طريق بعضها، هل أعاني بالفعل من مشاكل عاطفية؟ هل يعز عليّ غياب فيليب؟ أم أنه غياب شخصي عزيز على القلب عمومًا هو السبب؟ هل تكمن المشكلة في غياب الحب الرومانسي؟ أم أنني حزينة لأن الحزن يعتبر من ضمن أدوات الاكتئاب، تمامًا مثل الخبز والملح.

أخشى ألا يكون لفيليب علاقة بكل هذه الأحاسيس، فلم نعد نطيق بعضنا بعضًا. الأمر ببساطة أن الواحد منا لا يريد أن يبقى وحيدًا، أما الآن فلا مفر من ذلك. إذن فهذا هو سبب الجذب والشد في قلبي فأنا إذن لا أريد أن أكون وحيدة، أريد استعادة أساسيات الحب كضمان للمحبة، أريد وليمة حب تحوي كل ما تهوى النفس ***all you can love***. تقول لي آنيت إن حياتي كلها متوقفة على الحب، كذلك قالت لي إن أسرتي وأصدقائي قادرون على منحي الشعور بالأمان، وإن العلاقة العاطفية ما هي إلا الزيتونة التي يزين بها شراب المارتيني، ولكن بالله عليك هل يكون لشراب المارتيني طعم بدون الزيتونة؟

صحيح أن فيليب ليس زيتونة، إلا أنني في الوقت الحاضر أقبل أن أضع السردينة التي تسمى فيليب بدلاً من الزيتونة في مشروب المارتيني.

كل هذه الأحاسيس تجعل مني إنسانة مسكينة لا حول لها ولا قوة؛ لذلك فأنا لست أنا، ولا أتصل بنفسي بفيليب بل أطلب من آخرين الاتصال به، فحيث إن أمي خبيرة في كتابة الرسائل فقد طلبت منها أن تكتب لفيليب رسالة إليكترونية جادة تبلغه فيها أنني مريضة جدًا وعليه أن يشعر بتأنيب الضمير لأنه تركني في عيادة الطوارئ دون أن يهتم بي، كنا نريد بذلك أن نخوض ضده حربًا نفسية، وأن نناشد ما تبقى لديه من مشاعر تجاهي، نريد أن نجعله يقلق ويشعر أنه أخطأ. لقد كان قطع علاقته بي أنا هي القشة التي قسمت ظهر البعير الذي هو أيضًا أنا، أنا كارو.

لكن للأسف، أمي دبلوماسية أكثر من اللازم ولذلك كتبت خطابها بنفس الطريقة. لقد كتبت لفيليب أنني إنسانة صعبة الطباع جدًا، وأن الأسرة كلها كانت تتوقع إصابتي بالاكتئاب؛ لذلك لم يكن الأمر غريبًا بالنسبة لهم، وطلبت منه لو أنه تكرم وأظهر لي شعورًا يمنحني الإحساس بأنه قريب مني وقت الشدة وخلال الأوقات الصعبة.

شعرت بالغثيان، الأفضل أن أقوم أنا بكل شيء بنفسي، انتظرنا رد فيليب لمدة طويلة؛ لقد كان دائمًا يسعى أن يظهر بمظهر يعجب الآخرين وخاصة أمي، لذلك بدأ خطابه بقوله: عزيزتي كلاوديا – واختتمها بقوله: مع أخلص تحياتي لابنتك. لقد توطدت صداقة مراسلة بين أمي وفيليب.

هل تحبان أن أخرج أنا من الموضوع؟ مهلاً، مهلاً.

جاءت باقي سطور الرسالة توحي بأن فيليب كان على وشك القيء وهو يكتبها. كتبها في صيغة المبني للمجهول، فقال مثلاً: إنه ليس غريبًا أن يصاب شخص صعب مثلي بالاكتئاب، فقد توقعها بسبب ما كنت أعانيه على مدى الشهور الماضية. وأضاف بأنه يتفهم معاناتي، فقد عانى هو نفسه من حالة اكتئاب مماثلة، ولا عجب في ذلك! فهذا المرض هو مرض الفنانين. يا سلام!! ألم يكن هو أحد أسباب إصابتي بالاكتئاب؟!

بدأت أشعر مرة أخرى بنار في صدري، بدأ جسمي يفرز الأدرينالين، فبدأت أشعر بضيق في التنفس، خشيت أن تتدفق من داخلي حمم بركانية. ولكن الإنسان يتعلم من نوباته السابقة. بدأت أدخن سيجارة في هدوء ثم بدأت أصيح بصوت عال كما لو أنني قد ابتلعت راديو وتلفظت بألفاظ نابية.

بدأت أمي تتعامل معي بدبلوماسية لتهدئتي ولكن بلا جدوى. صحت فيها قائلة:

- يا حبيبتي، هو نيته حسنة ولكنه مثل باقي الرجال لا يجيد التعبير عن نفسه.

ولما كنت أعرف فيليب أكثر من أمي، فقد استطعت بعد مناقشة معها أن أقنعتها برأيي وضممتها إلى صفي. اقتنعت أمي أن صديقي السابق أحمق؛ ولذلك فأنا مصممة على أنه صديق سابق.

والآن لا بد أن نحاول إقناع قلبي بذلك.

دارت بيني وبين فيليب على مدى الأيام التالية عدة مناقشات ولكنها لم تكن ترضيني، فلم يتصل بي نهائيًا ولم يرسل لي زهورًا، ولا حتى وقف أمام باب أمي ممتطيًا حصانه الأبيض حتى يمكنني أن أرفضه بوقاحة. هكذا كانت الخطة إذا ما جاء على حصانه.

كانت وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا هي الرسائل عبر الهاتف الجوال (المحمول).. رسالة بلا طعم ولا إحساس، كانت رسالته المفضلة:

- كيف حالك، هل تشعرين ببعض التحسن؟

الواضح أنه قام بتخزين الرسالة على الهاتف المحمول اختصارًا للجهد، لم يتحدث ولو مرة واحدة عنا نحن الاثنين، مما جعلني أشعر كما لو أنني أرنب رقيق يرثى له عن بعد.

كان بودي أن أرد عليه كل مرة برسالة – تقول إنه لم يطـرأ عليَّ أي تحسن خلال هذه المدة القصيرة، فالاكتئاب ليس مثل نزلة البرد الخفيفة. كنت أريد كذلك أن أخبره أنني أبتلع أقراصًا تتحكم في رأسي وتحدد له ماذا يجب أن يفعل وماذا يجب ألا يفعل. كنت أرغب إبلاغه أنني أتمنى لو أنني تركت طبيب الطوارئ وجلسات العلاج وكل ما يتعلق بهذا الأمر، ولكن هذا سيكون بالطبع تصرفًا أحمق.

كذلك كتبت له فقط رسالة تقول: نعم شكرًا.

وحتى هذه المحاولة المملة التي حاولت فيها أن أدعي التحفظ لم تُجدِ مع فيليب، كان هذا شيئًا متوقعًا؛ ففيليب ليس الشخص الذي تنطلي عليه مثل هذه الألعاب، ليس لأنه لا يرغب ولكن لأنه لا يفهم. ربما كان ذلك صحيحًا طبقًا للظاهرة التي يتبناها ماريو بارت والتي تقول إن النساء يفكرن بطريقة أبعد نظرًا من الرجال بعشر خطوات. فعندما أقول كذا وكذا أكون وقتها أفكر في هذا وذاك. إذن من الأفضل أن أقول شيئًا يجعل الرجل الذي أمامي يتصور كذا وكذا، فالرجال لا يفكرون إلا خطوة بخطوة.

إذن ففيليب يمكن أن يتصور أن أمي كتبت تقول كذا وكذا، ومن ثم فإنها تعني أن كارو هي التي تقول إنها بخير. إذن فالأمر بسيط ولا يدعو للقلق.

خجلت من نفسي لأن تقدير الرجال للأمور أذكى وأكثر منطقية وصحة من النساء، شعرت أيضًا بالخجل لأني وقعت في مصيدة ماريو – بارت(*)، ورغم علمي بكل هذا فإنني لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر، أو بالأصح إنني لا أغرب في ذلك.

ثم.. ثم اتصلت بفيليب هاتفيًّا.

حاولت أن يكون صوتي خليطًا من عدم الاكتراث والحساسية والإثارة التي تغلفها اللا مبالاة، ولا أنكر صعوبة هذا الأمر. قلت له:

– مرحبًا.

جاء رده بصوت هو خليط كئيب من عدم الاهتمام والشفقة:

– مرحبًا.

وجهت له السؤال الذي يمكّنني من الخروج من مأزق "مرحبًا" وأن أغير موضوع الحديث فسألته: كيف حالك؟

الأذكياء من الناس يعرفون هذه الحيلة ويعيدون الكرة إلى ملعب الطرف الآخر، إلا أن فيليب ليس واحدًا من هؤلاء.

إذا كان فيليب يفتقد أي عضو من أعضاء جسمي فسوف تكون أذني الصبورة؛ لذلك جاء صوته متدفقًا كأنه مصاب بإسهال:

(*) ماريو بارت: كوميديان استعراضي شهير.

- حسنًا جدًا، أصبح عندي الآن أستاذ مشرف جديد؛ لأن الأستاذ القديم حصل على وظيفة جامعية في السودان، حصل عليها رغم أنه غبي بمعنى الكلمة، فهو في الواقع لا يفهم شيئًا. أما الأستاذ الجديد فيبدو حتى الآن ممتازًا. فيما عدا ذلك فإنني أنوي الذهاب مع جورج ويوحنا لنمارس رياضة ركوب متن الأمواج المتكسرة (سرفينج)، ولكني في الواقع لا أعرف إذا ما كنت حتى هذا الميعاد سوف أتمكن من إصلاح لوح السرفينج. أحد الضيوف في حفلة من حفلاتي جلس عليه وأصابه بشرخ.

أخذ فيليب يعبع ببعض المغامرات التي خاضها في الفترة التي عاشها دوني. وفجأة توقفت عن الاستماع إليه بعد أن طلب مني عضوا جسمي الحبيبان - عقلي وقلبي - أن يحدثاني في الموضوعات المحببة إلى نفسي: وهما الغضب والحزن. إنني حزينة بالفعل لأن فيليب يمارس حياته الطبيعية بدوني، ولأنه بدوني يرى أستاذه غبيًا، وأنه خطط للعطلة القادمة، كما أنه يقيم حفلات ويرى أصدقاء. أما أنا فلا أستطيع أن أفعل مثله، لذلك لا أريد أن يكون فيليب أيضًا قادرًا على ذلك بسبب الهم والاشتياق إليّ، ولكن فيليب لا يلقي لي بالاً ولا بخيط واحد يربط بيننا إلا أنه يحفظ مسافة ذراع بيننا.

ومما زاد ثورتي أن فيليب نجح في أول اتصال تليفوني بعد انفصالنا وبعد النوبة الأخيرة التي أصابتني وزيارتي لعيادة الطوارئ، نجح في أن يتّجاهل حالتي النفسية.

كل ما فعله هو أن استمر في الحديث وخاصة الحديث عن نفسه ثم عن نفسه وعن نفسه. وبدأ بعد ذلك يحكي حكايات يومية عادية. أليس لفريق عمل فيليب المكون من قلبه وعقله أولويات؟ أم أن هذه بالفعل هي أولوياته. ربما كانت "الأنا" عنده من البلاهة (لو كانت آنيت لقالت من الاختلاف) بمكان بحيث لا تستوعب أنه ليس الموقف المناسب لنتصرف كما لو كنا قد التقينا بالأمس.

بينما فيليب مستمر في ذكر حكايات مغامراته الشخصية، بدأ قلبي وعقلي في وضع الغضب والحزن في ميزان انفعالاتي، رجحت كفة الغضب بعض الشيء، ولم لا؟ أليس من حقه أن يزيد بعض الشيء.

أنهيت المكالمة بسرعة، وقبل أن أشعر بأن عمودي الفقري الهش على وشك أن ينكسر قلت له:

- جميل أن كل شيء عندك تمام. أنا لازم أنهي المكالمة الآن، عندي ميعاد!

ثم أضفت كلمة سريعة في النهاية: إلى اللقاء.

إلا أن كلماتي الأخيرة لم تكن بصوت عال وواثق وإنما بـدت باهتة. يا للأسف!! فقد أصبحت في نهايـة المكالمـة مـرة أخـرى كالأرنب الذي يرثى له عن بعد، ولكني في هذه المرة أرنب يـشعر بارتياح؛ فالشخص منا يميل عند الفراق أن يمجد الحبيـب الـسابق، ولكن للأسف لا ينطبق هذا على فيليب.

وليكن! فأنا لا أريد شخصًا بهذه البلاهة، لا يتيح لـي حتـى فرصة أن أخدع نفسي – وهو أضعف الإيمان – لذلك سوف أتـرك فيليب..

سوف أتركه يذهب لحاله.

أنا صاحبة حرفة مجتهدة.

لديّ من الوقت الكثير بحيث أفكر في نفسي وأرسـم صـورًا معوجة. أستعين بالتشبيه والمجاز لترتيب الأفكار في رأسي. أجتهـد أن أفهم كارو الجديدة.

إن أفضل ما أصور به نفسي في الوقت الحاضر هو المنـزل؛ فقد كنت على مدى حياتي بأكملها أشعر بأنني بيتٌ متهالك عبارة عن ألواح خشبية هشة ذات ألوان باهتة؛ أما الثقوب فيها فقـد عولجـت بطريقة بدائية رغم أنها تبدو لأول وهلة كأنها أصبحت سـليمة، أمـا

قوالب الطوب التي سقطت من السقف فقد استبدل بها قطع من بواقي ألواح الخشب وتم تثبيتها بالمسامير؛ لقد تم ترقيع الثقوب إلا أنها مزعزعة ويتسرب منها الهواء.

وكنت أنا أول الأغبياء الذين ارتضوا أن يرقصوا ويشربوا بدلاً من أن يبنوا لأنفسهم بيتًا آمنًا.

ثم، ثم جاء الذئب ونفخ في هذا البيت الهش، وها أنا ذا بلا مأوى وأعاني من تبعات ذلك. فالقذارة حلت محل المكان الذي كان أثاث البيت يشغله، وتيار الهواء يعم المكان. ولكن عملاً بالمقولة التي نعرفها: إذا أغلق باب فسوف يفتح باب ثان في مكان آخر، ورب ضارة نافعة، ففي هذا ميزة مهمة: على الشخص أن يبدأ مرة أخرى، وربما أمكنه في هذه المرة أن يقيم بناء، يصب له أساسًا قويًا وأعمدة خرسانية، كما يمكن هذه المرة أن تركب التوصيلات الكهربائية بالطريقة السليمة لدرجة يمكن معها شراء غسالة للصحون بعد ذلك.

أنا أعيد بناء نفسي وأعد من ثمر الليمون شرابًا ومن التراب ذهبًا أو حتى من السردين زيتونًا.

وفجأة قفزت أمام عيوني صورة المنزل الذي شبهت نفسي به والذي وصفته سابقًا وأخذت أصيح: هاهاها، لن تتمكنوا مني، سوف أصحح نفسي وأكون أقوى من ذي قبل.

كل هذا دار في رأسي؛ فأنا في حالة جيدة وسوف أستجمع شجاعتي مرة أخرى. سأغير من نفسي وأختار الاتجاه الآخر، فالاتجاه القديم أصابني بالتصلب.

رغم أن فترة الاستشفاء التي أمضيتها عند أمي أفادتني إلا أنني لم أتحرر من الخوف بصورةٍ نهائية بل على العكس، فعندما تضطر أمي إلى الذهاب للعمل ويكون نيلسون مشغولاً وأبقى بمفردي، وقتها أشعر بالقلق ويرتعد جسمي، يرتفع صوت ضربات قلبي فأسمعها بوضوح. ولكني رغم كل ذلك نجحت في أن أوقف نوبات الخوف والفزع، فأصبحت أتحكم في عملية التنفس (من أعضاء جسمي المختلفة) وأذهب للتنزه.

اكتشفت أهمية النزهة الطويلة بالنسبة لي رغم أني أعرف عن نفسي التكاسل أثناء السير. بدأت أتنزه في المساحة الخضراء التي تحيط بمنزل أمي، كنت أسير بخطوات صغيرة وبطيئة ثم بدأت أخرج إلى المتنزهات والطرق الجانبية المحيطة.

يبدو أن منظري أوحى للمارة الذين أقابلهم بأنني جدة صغيرة أمشي منحنية فتطوعوا لمساعدتي لأعبر الشارع.

أستند أثناء السير على المقاعد الموجودة في الطريق، ثم أجلس بين أحواض الزهور لساعات أحملق فيمن حولي من الأشخاص الذين يروحون في غفوة وهم جالسون مثلي، وعندما يفتح أحدهم عينيه ويراني بجانبه لا يحاول أن يتحدث إليّ؛ لأنه يلاحظ أنني لا أملك ما أعطيه أو أقوله. لقد عرض عليّ أحدهم ذات مرة أن يقدم لي قدحًا من البيرة، شكرته وأفهمته أن الكحوليات تتعارض مع الأدوية التي أتناولها، هز الرجل رأسه وهو يتنهد، يبدو أنه فهم مضمون ما أقول.

ما زال أكلي قليلاً وما زلت أشعر بانقباض، كما يساورني إحساس بأنني لا أشارك في الحياة اليومية العادية، ولكن رغم ذلك فالحالة في تقدم.

ألتقي بنيلسون كل يوم فنجلس في أحد المقاهي لنلعب الكوتشينة ونقتسم طبق الحساء. نحاول أنا وهو أن ندلل كارو – التي هي أنا – وعندما كان نيلسون يفوز عليّ في اللعب كنت أقول له:

– أكرهك أكثر مما أكره حياتي.

وكان هذا هو أقوى سباب أسب به أحدًا في هذه الأيام.

كنت أذهب مرة في اليوم إلى شقتي حتى لا أشعر بالغربة تجاهها؛ يجب أن تبقى بيني وبين شقتي علاقة صداقة. لا أريد أن أصبح بلا مأوى، فمن غير المعقول أن أعيش عند أمي إلى الأبد

أو في رعايتها، لذلك أقضي عدة ساعات من حياتي اليومية في شقتي: أبحث عن مكان لركن السيارة، أحضر الرسائل من صندوق البريد، أفتح باب الشقة وأدخل إليها وأبقى فيها دون أي توتر.

لقد تركت الأزمة القلبية المفتعلة منذ بضعة أسابيع في نفسي أثرًا كئيبًا، لذلك عليّ أن أبدأ مرة أخرى من جديد.

- أهلاً يا شقتي الحبيبة، فكراني؟ أنا كارو. لن أصيبك بضرر إذا لم تضريني أنت أيضًا!

المفروض أن أترك الشقة تشم رائحتي لكي نبني الثقة بيننا. من الأفضل ألا ننظر في أعين بعضنا، بل يفضل أن أستلقي على ظهري وأرفع يديّ وساقيّ.

- هل ترين يا شقتي، أنا مسالمة جدًا ومستسلمة جدًا!

نظرت إليّ الشقة نظرة شك ولم تفعل شيئًا، ولكنها تريد فقط أن تنتظر وتترقب.

أفهمتني آنيت أن شقتي كانت تعتبر خلال الأشهر السابقة بمثابة السجن بدلاً من أن تكون السكن، وهذا أمر طبيعي خلال فترات البطالة؛ ففي الأوقات التي يبقى فيها الشخص العاطل في غرف مغلقة بلا عمل فإن هذين العنصرين يمتزجان (الوحدة والبطالة).

يطلق على ذلك رد فعل بافلوا، فبقاء الشخص في شقته يتساوى مع كونه وحيدًا وبلا عمل.

استوعبت الآن أنني كنت خلال الشهور الماضية أتجنب شقتي، فلم أستقبل ضيفًا رغم أن شقتي كانت دائمًا مقصدًا محببًا لأصدقائي؛ فشقتي جميلة ومشمسة، وهي فضلاً عن ذلك صديقة للمدخنين: طفايات السجائر في كل مكان حتى في دورة المياه، ورغم كل ذلك فلم أكن ألتقي بزميلاتي وأصدقائي إلا في البارات أو في مساكن الطلاب التي لا يسمح فيها بالتدخين إلا في الشرفات مع التزام الهدوء؛ لأن قطة الجار نائمة أو لأن أحد الطلاب يستعد للامتحان.

عقدت النية على أن أغير كل ذلك، بل يجب عليّ أن أفعل؛ لأن شقتي هي حليفي الوحيد والقيمة الثابتة الوحيدة في حياتي وهي كذلك الجهة الوحيدة التي لا تتضرر من وجودي كما أنني لست في حاجة إلى أن أخدعها.

يا شقتي الحبيبة، أريد أن أصحح كل شيء.

قررنا: ظَهر أمي – الذي يؤلمها من النوم على سرير الضيوف – وأنا معه، أنني أرغب في أن أعيش بمفردي مرة أخرى.

أما أمي نفسها فلم توافق على ذلك وطلبت مني أن أترك لنفسي الوقت الكافي قبل أن أقرر أن أقيم بمفردي. الحقيقة أن سرير الضيوف في غرفة المعيشة قد فتن لي أن أمي تتمنى أن تعود للنوم في سريرها كما أشتاق أنا إلى سريري.

ولكننا تعلمنا من درس انتقالي المفاجئ منذ أسابيع. لذلك أردنا أن نسير بخطا بطيئة فوضعنا خطة جميلة، كثيرًا ما تتبع في حالة أطفال الأسر التي ينفصل فيها الأبوان، بحيث أبيت ليلة في شقتي وليلتين عند أمي على مدى أسبوع كامل؛ فإذا نجحت هذه الخطة فأبيت بالتبادل على نحو ما خططنا، بعد ذلك سوف أكون على استعداد لأن أعود إلى شقتي بشكل نهائي، وبذلك نكون قد ساعدنا على انتقالي إلى حياتي القديمة والجديدة في ذات الوقت، فالصبر الذي جاوز الحد لا يمكن أن يضر بشخص مثلي فأنا "فلتة زماني" في السرعة.

كان القلق يساورني أنا وأمي قبل أول ليلة أبيت فيها وحدي كما لو كنت ذاهبة إلى القتال. كررت لي أمي قولها أنني لست بحاجة إلى أن أتعجل بالعودة إلى شقتي، وأنها تفضل أن أبقى معها، ولكنني جندي ويجب على الرجل أن يتصرف تصرف الرجال.

تعانقنا أنا وأمي في مشهد مسرحي وبكينا قليلاً ثم ضحكنا من حماقتنا؛ ثم انطلق الجندي الابن في طريقه إلى العراق!!

عندما وصلت إلى شقتي تصرفت بطريقة عادية وغير ملفتة.. ألقيت أمتعتي في أركان الحجرة، ثم بدأت أدخن في كل الحجرات بحيث لا يظهر عليّ أي قلق؛ فلا يجب أن تتشنج الشقة حتى لا تفشل العلاقة الهادئة بيننا. صحت بصوت عالٍ:

- مرحبًا، كيف الحال؟

وقفت لدقائق كالبلهاء، فقد قذفت كل ما وجدت أمامي في أركان الحجرة وقلت للشقة:

- ولا يهمك، لا داعي أن نشعر بتوتر الأعصاب، هذه مجرد محاولة! فلو لم ينفع التفاهم بيننا اليوم، هذا لا يعني نهاية العالم. دعينا ننتظر ونرى ماذا سيحدث!

ورغم ذلك حاولت أن أقوم سرًا ببعض الإجراءات الاحتياطية، فأضأت أضواء خافتة في كل مكان واستخدمت البشاكير والشموع، وأعددت حمامًا للاسترخاء باستخدام زهور اللافندر. هذه في الواقع فكرة اقترحتها عليّ أمي وأعطتني بعض الكريمات لتدليك القدمين، وكنت في هذه الأثناء أحاول الصفير مثلما أرى في الأفلام الهابطة كي أصرف الانتباه عن حيلي ومراوغاتي، فالمفروض أن نشعر أنا وشقتي أن كل شيء يسير كالمعتاد؛ فلا أحد هنا يشعر بالخوف. أليس مسموحًا في الأحوال العادية أن آخذ حمامًا؟!

مر المساء عاديًا، فبعد أخذ الحمام جلست لمشاهدة بعض حلقات من مسلسلات ثم قراءة أجزاء من كتاب نسائي أبله بعنوان: "الرجال وكوارث أخرى".

يقول ملخص الكتاب: يوديت غير سعيدة بحياتها؛ فصديقها لا يهتم إلا بالرياضة والنساء الأخريات، والوظيفة أصبحت مملة ولا تطاق، أما الرجال الذين كانت تحاول أن تجد فيهم السلوى فقد اتضح لها أنهم كارثة بمعنى الكلمة.

أما صديقاتها فحالهم ليس أفضل من حالها؛ فصديق كاتيا خانها، أما بيللي فقد أحبت شخصًا مغرورًا وسمعته سيئة. أخذت المؤلفة تعدد الكوارث الواحدة تلو الأخرى إلى أن تصل إلى نهاية مرحة، وظريفة وشيقة.

وفجأة أثارني كل ما قرأت عن كاتيا وبيللي وعن النهاية المرحة المتوقعة؛ فأنا لا أريد أن أقرأ قصصًا كارثية عن فتيات أخريات.

وفجأة تحدثت إلى شقتي قائلة:

– ألا تلاحظين أن الحياة العادية عادت لدق بابنا؟

شعرت ببعض الاضطراب فألقيت بكتاب "الرجال وكوارث أخرى" في ركن ما زال به متسع.

دوَّت في أذني كلمات آنيت وأمي بل وشقتي قائلة: مهلاً لا تغتري.

وجدت أن معهم جميعًا الحق؛ لذلك دخلت سريري واستمعت في هدوء إلى تمثيلية إذاعية قبل أن أستغرق في النوم، وذلك بدلاً مما اعتدت عليه من الأفلام التسجيلية عن تشريح الجثث.

راقبت نفسي وأنا أروح في النوم.

هل تم ذلك بناء على الخطة الموضوعة؟ هل أنت متعبة؟ هل تشعرين بالقلق؟ أو ربما بعض الخوف؟ ماذا عن ضربات قلبك؟ ما زال كل شيء في المجال الآمن؟ وفجأة رحت في النوم.

استيقظت فجأة.

لم أستيقظ على مهل وتكاسل وإنما كان ذلك فجأة.

بدأت أتأمل حولي، أين أنا؟ كم الساعة؟ كيف حالي؟ هل أصبح الصبح بحيث يمكن أن أستيقظ ليوم جديد أم أن الليل ما زال طويلاً؟

هل استيقظت لأني خائفة أم لأني اكتفيت نومًا؟

ألقيت نظرة على المنبه وسعدت جدًا لأني وجدت أن الساعة الآن التاسعة صباحًا. وقت مناسب لأن أستيقظ بشكل طبيعي، خاصة

وأنني لم أستيقظ لأني أشعر بالخوف ولكن لأني أحتاج إلى قضاء حاجتي.

لقد نجحت في قضاء الليلة الأولى في شقتي وحدي.

شعرت براحة كبيرة وأرسلت لجميع أفراد أسرتي رسالة قصيرة: لقد مرت الليلة على خير بلا خوف. كل شيء يسير على ما يرام.

شعرت كما لو أنني رزقت بأول طفل في حياتي أو أنني حصلت على درجة الدكتوراه.

ولما كانت أسرتي تعرف مدى جدية الموضوع فقد أرسلوا لي جميعهم رسائل تحمل أجمل التهاني؛ أمي مثلاً فخورة بي، بينما صرخ أبي وجدتي فرحًا لهذا الإنجاز، أما نيلسون فيريد إقامة احتفال بهذه المناسبة.. شيء رائع!!

بدأت أتدبر الأمر وأطرق الحديد وهو ساخن، فأبقى بصفة مستمرة في شقتي ولكن الشرطي الشخصي الخاص بي رفع عصاه لتنظيم مرور الأشياء وقال لي: مهلاً يا سيدة هيرمان، لا تغتري بنفسك.

أجبت قائلة: أنا آسفة يا سيادة الضباط، معك حق. أعددت لنفسي أول فنجان قهوة مخففة في منزلي القديم الجديد وأديت الطقوس نفسها التي اعتدت عليها عند أمي.

تناولت أقراص الدواء وتجاهلت الساندويتشات ثم استلقيت في الشرفة وأخذت أرتشف من فنجان القهوة. لقد كنت في غاية الـسعادة والأمور تسير في إطارها الطبيعي دون أن يكـون تركيـزي علـى مراقبة ما أفعل. شربت القهوة على عجل، وتواعدت مع نيلسون على أن يصاحبني إلى جلسة العلاج ثم يعود معي إلى هنا كي نشرب نبيذ الأطفال ونضع السكر على حافة الكأس، هنا في شقتي.

أعربت آنيت عن فخرها بنجاح خطة المبيـت فـي شـقتي، وأبلغتني أني قد أديت الخطوات بشكل صحيح وعليّ أن أستمر فـي إيجاد الألفة بيني وبين شقتي. قالت لي: إن المطلوب مني أن أشـعر بذاتي بشكل أكبر؛ وحيث إنني لم أفهم الجزء الأخير الخاص بالشعور بالذات فقد أخذت أركز على جزء العلاقة بيني وبين شقتي.

ذهبنا أنا ونيلسون إلى محل لشراء لوازم المنـزل واشـترينا أشياء لا لزوم لها مثل شموع برائحة الفانيليا وبراويز وكذلك بعـض الوسائد لأضعها في شقتي في كل مكان، ثم وضعت الـسكر علـى حواف أكواب الشراب وصببت نبيذ الأطفال بطعم الفراولة.

صحيح أن طعم المشروب سخيف وله طعم لبان الأطفال ولكن كل ذلك كان بطعم الحرية.

لقد شعرت لأول مرة منذ أسابيع كما لو كان كل شيء سيعود إلى ما كان عليه.

جاءت مغادرة فندق أمي هذه المرة أفضل من المرة الأولى منذ سبع سنوات؛ فلم تتنفس أمي الصعداء ولم يكن في وجهي حبوب وبثور.

عز على أمي أن أترك شقتها - أعتقد أن ذلك كان لأنها تعودت على وجودنا معًا -. أرادت أمي أن تخفف من توتر الجو فقالت لي: أستطيع الآن أن أستقبل ضيوفًا من الرجال. كان هذا من قبيل المزاح لأني أعرف أن أمي لم تستقبل ضيوفًا رجالاً أبدًا.

قلت لها: إذن، حافظي على نفسك يا حلوة، استخدمي وسائل منع الحمل، وإذا كنت ستذهبين إلى المدرسة في اليوم التالي فلا تتأخري بعد الساعة الحادية عشرة خارج المنزل.

والحقيقة أنني سوف أفتقد أمي كثيرًا؛ فإحساسي الآن يشبه وقت الذهاب إلى المعسكرات الصيفية، فتم الاتفاق على الاتصال بصفة منتظمة والحديث تليفونيًا ولو مرة واحدة في اليوم.

اعتقدنا أن هذا ممكن الحدوث ولكننا للأسف نعرف بعضنا جيدًا؛ فبعد أسبوع واحد على الأكثر سوف تعود كل واحدة منا إلى

حياتها الطبيعية، وليكن الأمر كذلك. سوف أترك أمي نستقبل ضيوفًا من الرجال، ولأحاول أنا العمل على توطيد العلاقة بيني وبين شقتي. قلت لها وأنا أقدم لها باقة من الزهور:

- إلى اللقاء يا أمي وأشكرك على أنك سمحت لي بالإقامة معك هذه الفترة.

- ردت أمي قائلة:

- اسكتي يا بنت يا عبيطة، أهلاً بك في أي وقت.

ثم قبلتني وأخرجتني وأغلقت الباب خلفي.

وضعت نظرية للمشاكل العاطفية، فقمت بتقسيمها إلى ثلاث مراحل تنطبق على كل من يعاني من مشاكل عاطفية من الدرجة المتوسطة.

تتسم المرحلة الأولى بألم شديد وموجع يشبه جرحًا مفتوحًا. يشعر الشخص في كل لحظة خلالها بمادة كاوية تصب فوق جرح قطعي في جسمه. هذه الفترة لا تستمر طويلاً كما يعتقد البعض فهي لا تزيد على شهر.

أما خلال المرحلة الثانية فإن الألم يصبح مقبضًا وينبض بشكل غريب، تمامًا مثل ألم الأسنان أو الصداع من الدرجة المتوسطة فضلاً عن أن الحزن يجيء على شكل موجات. ففي مرة يستطيع

الشخص أن يسبح إلى الشاطئ بلا مشاكل، مرة أخــرى يفــضل أن يبقى على الشاطئ أو أن يستخدم عوامة لتساعده على السباحة، ومن ثم فإن شدة الألم تكون في حالة تغيير مستمر. الإحساس به موجــود باستمرار ولكنه محتمل. حتى أثناء فترات الجزر فإن الألــم يتغلغــل داخل الشخص. هذه المرحلة، وهي الثانية، تختلف من شخص لآخر؛ لذلك فهي تستمر ما بين شهرين إلى أربعة أشهر.

تأتي المرحلة الثالثة على غير انتظار، فقد فاجأتني بينما كنــت في السينما مع نيلسون وزوجته؛ ففي منتصف الفيلم حدث لي شــيء ما، شيء غريب ولم أعتده؛ لذلك بدأت فورًا فــي اســتخدام معملــي الداخلي وأجريت بعض التجارب لقياس القلق والخوف وكذلك الحزن والألم، جاءت النتائج جميعها سلبية. شعرت ببعض الارتباك لأنني لم أستطع تصنيف هذه الأحاسيس الجديدة. أخذت في الاعتبار أن معملي الداخلي في حاجة إلى صيانة، ولكني فهمت فجأة مــا حــدث: أنــا راضية، ليس بداخلي شيء عفن أو كئيب؛ فأنا الآن موجــودة هنــا وأشعر أن كل شيء على ما يرام.

وفي هذه اللحظة بدأت المرحلة الثالثة؛ فالشخص يكون معبــأ بكل ما عاشه في المرحلتين الأولى والثانية، ومن ثم لا يكون قــادرًا على تقييم الألم الذي بدأ يضعف، ثم فجــأة تمــلأ دمــوع الارتيــاح

العيون، لذلك بقيت جالسة بجانب أصدقائي في السينما بينما انسابت دمعتان ورديتان من عينيّ على وجهي الذي شعر بالفخر.

بدأت حياتي تسير في مسارها الطبيعي، فأصبحت أقضي أوقاتًا طويلة في البيت، بل وأصبحت أستمتع بهذا الوقت. قمت بدعوة أصدقائي لتناول طبق من الحساء سابق التجهيز وأصبحت ألتقي ببعض الأشخاص الذين لم يروني خلال الأسابيع الأخيرة.

الجميع متعاطف معي؛ لقد فوجئوا بأنني صريحة وأمينة بل ورقيقة الإحساس على نحو لم يعرفوه عني من قبل، استنكرت منهم ذلك لأنهم صوروني كما لو كنت متكبرة ومتباعدة عنهم. أنا لم أكن يومًا باردة الإحساس، فعندما كنت أشعر برغبة في البكاء كنت أبكي، وعندما كنت أثور كان الأصدقاء يلحظون ذلك، لم أكن أخفي أحاسيسي أبدًا وفجأة شعرت أنني ضيفة في برنامج توك شو يصور مرحلة سابقة ومرحلة تالية من حياتي، بينما يقف أصدقائي حولي يتأملونني ويبدو إعجابهم بي، بدا لي الأمر كما لو كنت فيما سبق بطة صغيرة مسكينة وتحولت فجأة إلى بجعة مزهوة بنفسها. استنكرت ذلك وساورني إحساس بأن أجعل الدنيا تحمل كل هذه الذنوب على أكتافها، ولكنني في وضع لا يسمح لي بذلك، وقتها سيكون الأمر مكشوفًا للجميع. فلا يمكن أن يكون حكم كل هؤلاء عليّ خاطئًا.

ما زلت مداومة على الذهاب لجلسات العــلاج النفــسي، أشــكو خلالها أصدقائي لآنيت: أمر فظيع أن يقتنع الجميع بأنني حساسة جدًا.

وكعادة آنيت – فهي الهدوء بعينه – قالت لي:

– لا أحد يريد أن يؤلمك يا كارو، ولم يفرح فيك أحد، كما لم يلحظ أحد سوء الحالة التي وصلت إليها، لذلك فقد فاجأتهم الآن.

رددت عليها بقولي:

– هذه المفاجأة هي التي أصابتني بالاشمئزاز؛ فهذا يعنــي أن أحدًا من أصدقائي لم يعرفني بالفعل. لقد عرفوا فقط كــارو القويــة المرحة، ولم يخطر ببالهم أبدًا أنني يمكن أن أشعر بالحزن. بــادرتني آنيت بقولها:

– ربما كانت هذه الصورة هي التــي أردت أنــت توصــيلها للآخرين عن نفسك!!

فقلت لها:

– هذا هراء يا آنيت، فأنا لا أخفي أحاسيسي، بل على العكس فأنا أطلق أحاسيسي بلا قيد.

– هذا صحيح! ولكنك تفعلين ذلــك بــسرعة شــديدة؛ لأنــك تنفجرين كالبركان الصغير. فلا يشعر الشخص الذي أمامك إلا وأنت

تحكيــن فجــأة نكتــة أو دعابة وتقومين بتغيير الموضوع كأن شيئا لم يكن.

أسقط في يدي لأن آنيت محقة فعلاً؛ فعنــدما أظهــر بعــض أحاسيسي لا ألبث أن أتصور أنني قد أخذت من محدثي وقتًا أكثر من اللازم فأنهي الحديث فورًا. ليس من الصعب أن يكتــشف أصــدقائي هذا السر. كان المفروض أن يفهموا هذه الحيلة، وكــان علــيهم أن يستمروا في سؤالي.

ابتسمت آنيت وقالت:

عزيزتي كارو، الآخرون ليس مطلوب منهم عمل أي شــيء؛ فمن خلال عالم الأماني الخاص بك أنت تصورت أنهــم يمكــن أن يفطنوا إلى سرك وأن ينقذوك. الواقع أنهم من خلال عالمهم الخــاص بهم غير واثقين ولا يتصورون أنك لا تريدين الحديث عن نفسك.

فكرت في هذا الكلام ثم قلت: يا للمصيبة!

- يا كارو الناس مختلفون، ولن تستطيعي أن تغيريهم.

- ولكن أستطيع أن أطلب منهم بعض التقمص العاطفي.

وحيث إنني أعرف الإجابة مسبقًا, وحيث إن آنيت تعرف ذلك أيضًا فلم نقل شيئًا.

أذهب أسبوعيًا وبانتظام إلى آنيت، مر الوقت وانتهت الجلسات المقررة دون أن أشعر بذلك. لم أشعر بأنني قضيت خمسًا وعشرين ساعة في علاج دماغي. تحدثت مع آنيت عن إمكانية أن أجتاز الآن الفحص المطلوب مثل الفحص الذي يجرى على السيارات، فسألتني آنيت بذكاء عن رأيي في هذا الشأن، فلم أعرف الرد؛ لأنني وبمرور الوقت أصبحت معلوماتي عن نفسي أقل، فنحن نتحدث كثيرًا في كل جلسة ونجد خيوطًا حمراء بداخلي نحاول تصنيفها، فنربط الأحداث بالأحاسيس. أصبحت بعد كل جلسة أشعر بالدوار لكثرة ما أعرفه فيها عن نفسي. قالت لي آنيت: إن أحاسيس كثيرة بداخلي الآن ما هي إلا أحاسيس قديمة ترجع إلى كارو عندما كانت في سن الخامسة والعاشرة والثانية عشرة من عمرها، وإن المخاوف والقلق اللذين تشعر بهما كارو الآن متراكمة؛ لذلك تمرست عليها.

شرحت لي آنيت أنه من الصعب التخلص تمامًا من ردود الأفعال القديمة التي اعتدت عليها، لذلك فالحل هو أن أتعود على التعرف على هذه المخاوف وأن أقنع نفسي أن الأحاسيس لا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأحداث التي تتزامن معها.

أما أنا فإنني أشك في قدرتي على عمل ذلك؛ فبمجرد مغادرتي عيادة آنيت أنسى كل ما تحدثنا عنه، فكل الخيوط الحمراء التي

تحدثنا عنها والتي تصورت أنه بإمكاني أن أغزل منها بلوفرًا أنيقًـــا، كل هذه الخيوط الحمراء تختفي من أمامي تمامًـــا أو تتــداخل فـــي بعضها. أصبح هذا الأمر غير محتمل بالنسبة لي.

فأنا في حاجة إلى التعرف على علاقة الأشياء ببعضها لكـــي يمكنني أن أحقق تحسنًا وأن أؤدي الواجبات المطلوبة منـــي، ولكـــن يبدو أنني كنت في كل مرة أنسى الواجب المطلوب مني.

لا يمكن أن أنكر أنني حققت الكثير مع آنيت، فقــد اســتطعنا السيطرة على كثير من المشاكل أهمها ثورة البركان المسمى كـــارو؛ ورغم تمكننا من السيطرة على كارو خلال الأشهر الماضية فإنني ما زلت أعاني من المشكلة الأولى: فأنا أعاني من نفسي لأنني ما زلـــت متعبة. الفارق الوحيد هو أنني أصبحت أفهم الجــزء النظـــري مـــن الموضوع وأعرف الحالة التي أنا عليها الآن بالتفـصيل. أصـــبحت أعرف فرانكشتين جيدًا ولكنني ما زلت أنا وحشه المخيف.

توافقني آنيت في الرأي فهي ترى أننا استطعنا أن نسيطر على مرحلة الانهيار التي مررت بها وأنني أسير على الطريـــق الـــسليم، ولكنها لا تنكر أن أمامنا الكثير، وتوصي أن نستمر فـــي العـــلاج.. المهم أن أكون أنا راغبة في ذلك.

طبعًا أرغب في الاستمرار بل أكثر من ذلك؛ فأنا فخورة بـــأن أكون على هذه الحالة من الهشاشة، بحيث أحتاج إلى جلسات عـــلاج

جديدة؛ فأنا لست ممن يميلون إلى اللجوء إلى العلاج النفسي ولكنني مريضة فظيعة.

ورغم أن تفكيري اتجه إلى هذا المعنى فقد أصبت بالفزع من هذه الكرة. غريب أمري مع الإصابات والجروح؛ فهي دائمًا تشعرني بالفخر والاعتزاز. الواضح أنني أستغلها لجذب انتباه الآخرين؛ فمنذ طفولتي وأنا أجعل من كل جرح في جسمي جرسي؛ فقد كان أمرًا مثيرًا أن أكون ولو لفترة قصيرة محور الاهتمام ويصبح جرحي مغناطيسًا يجذب الأنظار. في كل مرة كنت أحكي تجاربي مع عمي البشع بطريقة ممطوطة ومملة، وما أكاد أنتهي من هذه الحكايات حتى أجد حولي من يتعاطفون معي.

عندما حكيت لآنيت عن هذا الموضوع نظرت إليّ نظرة ثاقبة وهادئة لم أفهمها في هذه اللحظة، فأنا في غنى عن هذه النظرة؛ لأني أعرف نفسي جيدًا. لذلك لم أنفعل لهذه النظرة لأني شعرت بالملل، فأنا في حاجة إلى من يؤيدني.

وأخيرًا، فهمت نظرة آنيت.. إنها نظرة تعبر عن الحزن والأسى، فمن المحزن أن يلجأ الشخص إلى مثل هذه الأساليب ليستدر عطف الآخرين؛ فالأطفال الطبيعيون والذين يعيشون حياة سعيدة ليسوا في حاجة إلى مثل هذه الأفعال. وعلى أولياء الأمور الطبيعيين أن يلحظوا مثل هذا السلوك.

والآن أسأل نفسي: لماذا لم ألحظ هذا على مدى السنين؟ لماذا أدور متفاخرة بآثار جروحي بين الناس - تمامًا مثل مندوب شركة التأمين - بدلاً من أن أرثي لنفسي.

أرجوك يا آنيت لا تقوليها، فأنا أعلم تمامًا أنني لست قادرة على الإحساس بذاتي.

سارت حياتي بشكل عادي بل وعدت إلى العمل، صحيح أنه ليس العمل الرائع والمتميز ولكنها مجرد وظيفة جرسونة في بار مما يتيح لي أن ألتقي بالناس. يتصور الكثير منا أن التعامل مع الناس شيء رائع، أما أنا فلا أفضل التعامل مع الآخرين. ولكن للأسف ليس لي في الأمر خيار؛ فإذا لم أعمل سوف أصاب بالجنون، أو على الأصح فإنني سوف أصبح أكثر جنونًا، ومن ثم فإنني أقوم بعملي ثلاث مرات أسبوعيًا في بار "هيديفيتسكا".

ما أعجب أمر السخرية!، فأنا على يقين أن السخرية ما هي إلا فضلات الفكاهة القديمة الجميلة. ورغم أن السخرية سهلة فهي ليست جميلة، والمثال على ذلك: إذا كانت رائحة عرق الشخص نافذة فنقول له: إيه الروائح الحلوة دي!

السخرية أن تضحك على شيء لا يستحق ولا حتى الابتسام.

إذا كان الإنسان لم ينم نومًا هادئًا طوال الليل ومزاجه معكر فنقول له: واضح أن مزاجك رائق اليوم.

إذا رأيت شخصًا يرتدي أفضل ما عنده وسألته عن ملابسه فيرد عليك: لا، هذا هو العادي اللي أنا متعود عليه!

رغم أن السخرية أصبحت شيئًا محببًا إلى الناس، إلا أنها هي نفسها السبب في أن عملي أصبح أكثر بشاعة.

كان البار الذي أعمل به حتى سنوات قليلة مضت مكانًا يلتقي فيه رجال كبار في السن وتعساء؛ فقد كان بارًا يقع على ناصية تملؤه سحابة من دخان السجائر وبه تليفزيون يعرض مباريات كرة القدم، وإذا تجرأ هناك شخص على اختيار خلاف ذلك فإنه يسمع ما لا يرضيه.

كان هؤلاء الرجال كبار السن الراضون بقضائهم يشربون البيرة ويلعبون الكوتشينة ويأكلون على مهل بقدر ثبات أسنانهم في فمهم. كانوا يعاملوننا نحن الجارسونات من البنات بلطف وذوق، وكانت مداعباتهم صادقة، حتى حينما كان الواحد منهم يصفع واحدة منا على مؤخرتها فإننا كنا نعلم أنها مجرد دعابة بعيدة عن سوء النية.

كان البار الذي أعمل به لا يقدم سوى الكعك المملح (بريتسل) والسجق. لم يكن رواد المقهى كبار السن البؤساء يعتبرون هذه

الأصناف سوى وجبة خفيفة؛ فهم لم يحضروا إلى هنا لمجرد تناول الطعام وإنما جاءوا لتبادل الشكوى، لقد كنت أحب هذه النوعية من رواد البار.

ثم جاء ما يسمى بالسخرية ودمر كل شيء؛ فقد تجمع الشباب في هذا البار لأنهم وجدوا فيه مكانًا عاديًا فاعتبروه مكانًا هادئًا، وبعدها جاءوا في مجموعات واصطحبوا معهم بعض النساء اللاتي رسمن على أجسامهن التاتو، وجاءوا كلهم وجاءت معهم طلباتهم، أصبح البار يقدم مشروبات متعددة مثل الكابوتشينو وغيره من المشروبات، كما أصبح لدينا قائمة للطعام.

وبناء على ذلك، تنحى كبار السن لصالح الشباب الذين يملكون المال وخسرت المشاعر أمام مجتمع السوق الحرة ولكن هذا لا يعني أن كبار السن قد اختفوا من البار، وإنما قلت أعدادهم وأصبحوا يجلسون في الأركان لشعورهم بأنهم أصبحوا أكثر تقدمًا في السن وأصبحوا من سقط المتاع أكثر من ذي قبل.

ولكن الواقع أنهم السبب في بقائي في عملي في هذا المكان، بقيت كي أرى لمعة أعينهم للحظة وأنا أقدم لهم مشروبهم وأن أسمح لهم أن يصفعوني على مؤخرتي.

أستطيع الآن أن أكيّف حياتي دون فيليب؛ ففي الاتصالات المتباعدة بيننا لا يقول سوى:

- كيف حالك؟

- بخير

- وأنت؟

- بخير!

ولا شيء سوى ذلك. أنا لم أعد أفتقده ولا أفتقد العلاقة الجنسية معه. كل ما أفتقده هو أن يكون هناك شخص بجانبي، يحنو عليّ، شخص أستطيع أن أنكد عليه؛ فليس أجمل عندي من شخص لا يفقد أعصابه مهما بلغت درجة إثارتي له. هذا هو تعريفي للرومانسية؛ فأنا قادرة فعلاً على إثارة أعصاب من حولي. إذا لم أستطع النوم ليلاً على سبيل المثال فإنني أبدأ في الغناء كي أسلي نفسي وأسلي النائم بجانبي. أغني أحدث "أغاني التسعينيات".

أنا أتصور تصرف فارس أحلامي في مثل هذا الموقف كالآتي:

أتصور أنه يبدأ هو الآخر في الغناء معي بل ويحضر آلة نفخ موسيقية ويبدأ العزف عليها، أنا فعلاً أفتقد مثل هذا الشخص.

عندما أكون في المنزل وأفكر في أهم ما في الأمر فأقول في نفسي: إنه لا يمكن أن ينتظر الشخص شخصًا آخر لا يعرفه، يأتي ليطرق بابه دون أن يعرفه. لذلك فمن الضروري أن أخرج إلى الناس وأن أعيش بينهم، وهذا ما أكرهه.

لست من الأشخاص الذين يحبون الخروج فأنا لا أشرب ولا أرقص، فلم يعتد أحد أن يراني في أي ديسكو إلا وأنا أشرب مشروبًا طفوليًا بجانب ساحة الرقص، بينما أراقب الراقصين وأحاول أن أحلل شخصياتهم.

إذا كانت مراقبة الراقصين منذ عشرات السنين تشكل أمرًا جميلاً وجديرًا بالتقدير فإن الأمر اليوم قد اختلف ولم يصبح أحد ينظر إليهم ولا يعيرهم أي اهتمام ولا يسلط عليهم الضوء، بل أصبح هؤلاء الذين يتمايلون فوق حلبة الرقص هم الأهم وهم من تسلط عليهم الأضواء، أصبح المتفرجون تمامًا كمشاهدي عروض الإستربتيز: يسمح لهم بالمشاهدة ولكن لا أحد يراهم.

لذلك لم أعد أذهب إلى هذه النوادي أو الديسكو، بل اتجهت إلى أصدقائي القدامى العاملين في وكالات الدعاية والإعلان.. كان عليّ أن أطرق الأبواب أولاً ثم أقوم ببعض الدعاية لنفسي. حتى

يمكن أن توجه لي الدعوة لحضور بعض الحفلات التي تنظمها الوكالات.

وحيث إن الود بين العاملين في هذا المجال يتسم بعدم الثبات فإن الرد يجيء كالآتي:

- أهلا يا كارو، جميل أن أسمع صوتك! كيف حالك؟ أنا آسفة لن يمكنني أن أضعك على قائمة المدعوين هذه المرة؛ لأن عددهم كبير جدًا بعد أن أعلن توماس جونتشالك(*) أنه سوف يكون ضيفًا على الحفل. لك أن تتصوري أن الجميع يريد الحضور ليراه.

الحقيقة لا يمكنني الآن أن أتصور أي شيء، عمومًا لست في حاجة إلى الذهاب إلى هذا الحفل كي أتفاخر بعد سنوات أمام أحفادي أنني تعرفت على جدهم في هذا الحفل وفى وجود هذا الممثل!

تماسكت وقلت لها في شجاعة:

أشكرك على كل حال، تحياتي لجميع الزملاء، لو احتجت لي معك رقم تليفوني.

(*) توماس يوحنا جونتشالك: واحد من أشهر مقدمي برامج المنوعات في الراديو والتليفزيون الألماني. قام بتمثيل بعض الأدوار. من أشهر البرامج التي قدمها في التليفزيون الألماني برنامج "تراهني؟".

وضعت السماعة وصفعت نفسي، فالحقيقة أنني أستحق هـذه الصفعة؛ لأنني لن أكرر هذا الكلام الفارغ مرة أخرى ما حييت.

وقبل أن أستمر في ضرب نفسي تلقيت اتصالاً تليفونيًا من نيلسون:

- كيف حالك يا جميلة؟ يا ترى ما زلت تتوحين طول النهار؟ واللا ممكن أخرج معك وسط الناس؟

- بالعكس يا طرزان، أنا زى الفل وفى أحسن حال، كل ما هنالك أن عندي هزالاً شديدًا لدرجة أنى لو لبست بلوفرًا بكولة عالية لن يستطيع أحد أن يرى صامولة رقبتي.

- إذن، اغسلي وجهك وارتدي ملابسك كي تذهبي معي إلى حفل ممل للقناة التي أعمل بها، ستشاهدين هناك أناسًا سخفاء، ولكن لو حظك حلو ممكن أن تكسبي جائزة "منتج الشهر".

سألته:

- مسّاحة البلاط؟

- لا، أحسن قليلاً!

- قطاعة الفاكهة لعمل أشكال جميلة؟

- لا، أحسن!

- هات ما عندك، بدأت أتوتر، يعني أذهب إلى الحفل وأكسب شيئًا بلا قيمة؟

- يا كارو أنت طبعًا تعرفين أني لا يمكنني أن أقرر من يكسب الجائزة.

ارتديت ملابسي واجتهدت لأول مرة منذ شهور أن أتجمل في حدود مظهري المتواضع. أخذت حمامًا واستخدمت الكريمات والمساحيق وصففت شعري ووضعت ماكياجًا جميلاً لعيني، ورسمت شفتي واستخدمت أحمر الخدود؛ بحيث أصبحت أبدو في صحة جيدة وأشعر بانتعاش.

أخذت أجرب أنواع العطور المختلفة ولم أخش أن أرتدى حذاءً عاليًا. شعرت بأن جسمي في حاجة إلى أن يشعر بنفسه وأن يمضى هذه الأمسية دون أن يحس بأنه يدار من مركز تشغيل معطوب.

اصطحبني نيلسون في تاكسي وأثناء السير قال لي:

من فضلك تبكي حتى أتأكد أنك أنت كارو فعلاً!

أسعدتني المجاملة وشكرته، وحاولنا أن نسلى أنفسنا أثناء الجلوس في التاكسي فقمنا بتمثيل مشهد الفراق بين حبيبين حتى

وصلنا إلى مكان الحفل، فغادرت التاكسي وأنا أمثل أنني غاضبة وأقول لنيلسون بصوت مسموع: إنني لن أنسى له علاقته مع أمي.

دفع نيلسون لسائق التاكسي النقود، بينما كان السائق يبتسم بسبب ما سمع منا أثناء السير.

قال لي نيلسون: إنك عدت لما كنت عليه سابقًا.

قلت له وأنا أشعر بالزهو: هذا ما لا أتمناه، ما زالت الأمور تسير على ما يرام.

تتسم الشخصيات التي تعمل في التليفزيون بالمرح؛ لديهم دائمًا الكثير من المفاجآت: فحفل اليوم لم يُقَم على سطح المبنى أو في الكافتيريا الملحقة به وإنما في الأستوديو ذاته الذي يتكون من مساحة شاسعة كلها مكسوة باللون الأسود ومقسمة إلى ستة مناظر مختلفة: مطبخ، حجرة نوم، حمام، وحجرة للاحتفال بأعياد الميلاد. المكان بأكمله عبارة عن شقة ولكنها دون حوائط فاصلة. يوجد فقط خلف كل منظر من هذه المناظر نافذة ومنظر خارجي يطل على جبال كندا وعلى مدينة نيويورك وكذلك مجموعة بحيرات ميكلنبورج الألمانية.

سألت نيلسون:

- كم يبلغ إيجار هذه الشقة؟

- بالتدفئة أو دون؟

- لا، بالتدفئة، وهل يمكن استئجارها مفروشة بنفس هذا الأثاث؟

- ممكن أسأل المستأجرة السابقة. ولكن لا أتصور أن تكون لديها مشكلة بسبب الأثاث! متى ترغبين أن يبدأ الإيجار؟

قلت له وأنا أتنهد:

- لو عليّ أنا وزوجي ممكن نُحضّر فورًا، هذه الشقة مذهلة، ولا في الأحلام!

وألقيت نفسي في الكرسي الكبير المريح ثم سألت نيلسون:

- ما لزوم حجرة الاحتفال بأعياد الميلاد ونحن ما زلنا في الخريف؟

- الحقيقة أننا نعرض فيها منتجات أعياد الميلاد التي أرسلتها الشركات العارضة منذ شهور. وعلى فكرة، هذا أفضل بكثير؛ حتى لا يزيد الزحام في فترة ما قبل الأعياد.

لاحظت من أسلوب حديث نيلسون أنه أصبح أكثر جدية في الحديث، وهذا ما أعرفه عنه عندما يتحدث في موضوعات تخص عمله؛ أعتقد أن ذلك هو سبب نجاحه في عمله، فمشاهدو الإعلانات

لا يفضلون مقدم البرامج الممل والروتيني، لو كان الأمر بيدهم لاختاروا المذيع الشهير جونتر ياوخ(*). وحيث إن هذا غير ممكن فإن البديل هو أن يشبه المذيع عريس الأحلام لابنتهم أو هذه على الأقل هي النظرية التي أفسر بها الأمر، ومن ثم فإن نيلسون خير من يكون عريس الأحلام، طلبت من نيلسون بإلحاح أن يصاحبني لمشاهدة المنظر المعد والمخصص له. ربما أثار طلبي أعصاب نيلسون ولكن كوني في أستوديو حقيقي كان بالنسبة لي بالفعل أمرًا مثيرًا جدًا، ولو كان الأمر بيدي لطلبت أن أقوم بتصوير مشهد في كل منظر من هذه المناظر. تفهمت تأجيل نيلسون الاستمرار في المرور معي على مناظر الأستوديو؛ لأنه كان مشغولاً بتحية رؤسائه وزملائه. أخذت أنا في هذه الأثناء أتجول في المكان، وجدت المناظر قد صممت مثل أسواق أعياد الميلاد، أما منتصف القاعة فترك خاليًا. أتصور أنه المكان الذي توضع فيه الكاميرات والمكان المخصص لعمل الماكياج ولجلوس المخرجين الذين يصيحون ويقومون بإخراج الأفلام.

(*) جونتر ياوخ من مواليد عام (١٩٥٦): يعتبر مقدم برامج المنوعات الأشهر في ألمانيا، يحصل اعتبارًا من ١٩٨٨ وحتى ٢٠١١ على جوائز في هذا المجال. وصل إلى قمة نجاحه من خلال برنامج "من سيصبح مليونيرًا؟" الذي يقدمه اعتبارًا من سبتمبر ١٩٩٩.

أما الآن فقد تم تخصيص وسط القاعة لوضع البوفيه الذي التف حوله الضيوف، فلا أحد يتجول الآن بين المناظر المختلفة.

ومن ثم فقد استخلصت من ذلك – أنا وبصفتي "شارلوك" هيرمان – أن جميع الموجودين في هذا المكان هم فريق العمل. أتصور أنهم جميعًا قد تجولوا في المكان بما فيه الكفاية وجلسوا في حجرة أعياد الميلاد وأمسكوا باللمبات الملونة المعلقة في شجرة عيد الميلاد.

تصورت أن يكون من غير اللائق أن أجلس في الحمام على المرحاض وأن أستخدم ورق التواليت في إصلاح أحمر الشفاه على فمي، ولكنى رفضت الفكرة بسرعة عندما وجدت شخصًا قد سبقني إلي هنا ويجلس بالفعل في البانيو بجانبي.

قال لي:

– لا أعتقد أن العلاقة بيننا قد وصلت لدرجة تسمح لنا أن يقضى الواحد منا حاجته في وجود الآخر!

جاء ردى من وقع المفاجأة تلقائيًا، فقلت له:

– طالما أنك لم تضع قواعد لاستخدام فرشاة تنظيف المرحاض فليس هناك مانع من استخدامي له حتى لو كان الباب مفتوحًا.

وبعد أن فكرت مليًا فيما قلت، عرفت أن سرعة الرد ليست دائمًا هي الأفضل، فمن أدراني؛ لعلي الآن قد أحرجت مدير القناة نفسه.

ابتسم الرجل ابتسامة ساخرة وفتح أزرار قميصه. الواقع أنني أمقت الرجال الذين يفتحون أزرار قميصهم؛ لأنني أرى في ذلك حركة رجالية يريد بها الرجل أن يظهر مدى أهميته ويريد في ذات الوقت أن يبدو بعيدًا عن التكلف، ثم يطلب من ربه أن يغض النظر عن ذلك ويقبل اعتباره رجلاً محترمًا. في رأيي أن القميص الرجالي وجد ليكون مقفول الأزرار كلها، ومن لا يقدر على ذلك فليتفضل بارتداء تي- شيرت أو ما أشبه.

بينما أنا على وشك الانتهاء من قضاء حاجتي فإذا بي ألاحظ أن الرجل الذي أمامي قد بدأ في فتح باقي أزرار قميصه بل وخلعه. تسمرت في مكاني من وقع المفاجأة حين وجدته يخلع البنطلون ويستلقي بملابسه الداخلية وحذائه داخل البانيو. ثم بدأنا في تمثيل أدوارنا؛ حيث إنني رأيت أنها فرصة للتسلية.

- مضت أربع سنوات على زواجنا ولم نلتقِ في البانيو حتى الآن.

- لا تؤاخذني، لقد بدأت أشعر بالصداع مرة أخرى، لذلك سوف أستلقي على السرير بملابس النوم.

اتجهت بخطوات كلها أنوثة نحو السرير وألقيت بنفسي عليه، تبعني الصديق الجديد بملابسه الداخلية وألقى بنفسه هو الآخر على السرير قائلاً:

– صداع، صداع، كم مرة سمعت منك هذا العذر أيتها البلهاء!

بدأنا نراقب الموجودين في المكان كما لو كنا نشاهد برنامجًا تليفزيونيًا مملاً. لم أعرف عن زوجي الجديد سوى أن اسمه ديفيد. لم يسأل أحد منا الآخر عن عمله أو عن سبب حضوره هذا الحفل ومن الذي دعاه إلى هنا، فبما أننا قد تزوجنا منذ أربع سنوات فلا مكان لهذه الأسئلة. ولما بدأنا نشعر بالملل خلال الحفل فقد أخذنا ننتقل من منظر إلى منظر ونقوم بدور مقدمي البرنامج. أطلقنا على أنفسنا اسم جاك وبوب ما عدا في غرفة المعيشة: فقد أصبح اسمانا ديانا وبوب. وحيث إن اسم جاك لا يستطيع إقناع المشاهد بشراء هذه العرائس الجميلة المصنوعة من البورسلين، فقد قمت أنا ديانا بهذا الدور.

أخذنا أنا وديفيد الموضوع مأخذ الجد، واجتهدنا في توصيل العروض المقدمة من القناة للمشاهد؛ منها على سبيل المثال أنواع النسيج الجديدة المستخدمة في صناعة فرش السرير والمادة الحيوية الجديدة المنظفة للأفران المنزلية.

وبينما ديفيد يحاول مساعدتي أن يعرض على المشاهد المتخيل كيف يقطع السكين الجديد اللحم ويقول: انظروا يا سادة كيف يمر السكين خلال أنسجة اللحم مثلما يمر في الزبد تمامًا. وبينما هو يقول ذلك مر أمامنا نيلسون. ونظر لي النظرة المتفق عليها بيننا: هل أنت بحاجة إلى أن أنقذك مما أنت فيه؟

فهم من إيمائي برأسي أنني أقول له: شكرًا يا صديقي، الأمور تسير على ما يرام، اذهب وأكمل ما كنت تفعل؛ فأنا مشغولة بالعرض الحي الذي أقدمه.

شعر نيلسون بالرضا وذهب للحديث مع أحد ضيوف الحفل. ففي مثل هذه المناسبات تكون الفرصة متاحة لعمل علاقات والتعارف على أشخاص جديدة. عرفت من احمرار خدود نيلسون أنه قد شرب عددًا لا بأس به من الكؤوس، إذن فالأمور تسير على ما يرام.

وأخيرًا وبعد سباق الإعلانات الذي دخلته مع ديفيد وصلنا معًا إلى حجرة الاحتفال بأعياد الميلاد، فقال لي:

- سأذهب لأحضر مشروبًا، هل أحضر لك أنت أيضًا أي مشروب؟

شكرته قائلة:

- لا، شكرًا، فالكحوليات تتعارض مع أدوية الاكتئاب التي أتناولها، وكذلك أفضل أن أبقى في وعيي وقت إجراء قرعة التومبولا.

تركت له أن يفهم ما أعنى مما بين السطور، فرد عليّ قائلاً:

- لن أشرب إلا كوبًا من الماء، فالأدوية التي أتناولها تتعارض مع كل شيء.

أنا أحب هذا النوع من السخرية التي لا يمكن فك شفرتها. حان الوقت للانصراف، خاصة وبعد أن شرب نيلسون للثمالة ولم يعد قادرًا على الحديث عن العمل. وبعد أن استمتعت بالعمل المتخيل مع ديفيد الذي وصل في نظري إلى مداه. لذلك تبادلنا أرقام التليفون واتفقنا أن نحدد موعدًا فيما بعد لنلتقي مرة أخرى أو نذهب معًا إلى السينما. ثم قال لي بمرح:

- الواضح أنك سوف تقعين في حبي وتتعذبين به!

أجبته قائلة: يمكن.

لم أكد أصل إلى المنزل حتى وصلتني من ديفيد رسالة قصيرة تقول: موافق، أنا مستسلم وسوف أبدأ أنا بالاتصال!

فرحت بالرسالة وكتبت الرد:

- تصورت أنك لن تتصل أبدًا!

ثم أغلقت التليفون وخلعت ملابسي. تصورت في هذه اللحظة أنني أنثى مثيرة، فلم أخلع حذائي ذا الكعب العالي وأشعلت سيجارة المساء.

فرحت بنفسي بعد نجاحي في أول مرة أخرج فيها إلى العالم الخارجي، لقد استمتعت بالليلة وتعرفت على ديفيد. ورغم ذلك فأنا أعرف نفسي جيدًا بحيث أستطيع ألا أسيء تفسير أي خلجة أشعر بها، ولكنني عشقت فكرة أن أكون في حالة عشق.

رأيت بصيصًا من النور يدخل من أسفل الباب الذي يفصلني عن الحياة العادية.

إذن فقد بدأت أتحسس الدرجة التالية من سلم الأمل وأتمنى ألا أتعثر على السلم الصاعد إلى السماء.

- دخلت إلى السرير لأنام بعد أن أصبحت تشبيهاتي خانقة.

أردت أنا وديفيد أن نلتقي قبل الموعد الذي سبق أن حددناه، فالتقينا لنتناول الطعام معًا. بدا الأمر صعبًا علينا أن نلتقي خارج الأستوديو؛ فديكور المطعم الذي التقينا فيه يختلف عن ديكور غرفة الطعام التي استخدمناها في الأستوديو.

جلسنا متقابلين وبدا كل منا متصلبًا، تمنيت أن نكمل قصة الأستوديو ونصبح مرة أخرى جاك وبوب، ولكن أعتقد أننا لو بدأنا في هذه القصة فسوف نستمر طوال الأمسية على هذا المنوال؛ لذلك فعلينا أن نكون شخصين ناضجين وأن نبدأ الحديث عن أنفسنا.

سأل ديفيد: أليس من الأفضل أن يلقى كل واحد منا سيرته الذاتية على الآخر بحيث ننهي هذه الفقرة؟

بدأ هو يحكي عن وظيفته فتحدث عن شيء له علاقة بالتليفزيون فلم أنصت إليه بدقة، ثم تحدث عن أسرته؛ عن أبيه وأمه وشقيقتيه.

ثم لخصت له قصتي ووظيفتي وكذلك أسرتي ومشكلة حالتي النفسية، فلا داعي أن أخفى شيئًا؛ لأنه سوف يعرف كل شيء بنفسه عندما نعيش معًا. سألني:

- ما نوع الدواء الذي تتناولينه؟

- سيتالوبرام.

- وأنا أيضًا، هي نفس المادة الفعالة ولكن اسمها سيبراميل.

بدا لي أن هذه اللحظة مناسبة لأسأله إذا ما كان يتصور أن يكون له مني أولاد. مجرد فكرة خطرت ببالي! بدت لي فكرة أن نتناول معًا الدواء نفسه كل صباح فكرة رومانسية للغاية. سألته بحماس:

- لماذا تتناول عقارًا ضد الاكتئاب؟

بدأ يحكي لي عن نوبات الخوف التي تنتابه وعلاقته المتوترة مع فتاة بلهاء، وكذلك حكى لي عن فكرة لا معقولة تسيطر عليه فتجعله يتصور أنه إنسان كتب له الخلود.

تنتاب ديفيد نوبات خوف ويتصور أنه سوبرمان. ما أجمل ألا أكون وحدي في هذا العالم الواقع بين الحياة اليومية العادية وبين مستشفى الأمراض العقلية! يبدو أن هناك الكثير من الناس يعيشون بين سادوم وعامورا(*).

لا يمكن اعتبار ديفيد مجنونًا فهو شخص عادى ولكن لديه شيء ما يمكن اعتباره من قبيل الإكسسوار.

بذلك نكون قد انتهينا من جزئية سيرتنا الذاتية... ثم غادرنا المطعم ثم.. ثم ماذا بعد؟ لذلك اقترحت أن نذهب في رحلة ليلية إلى المناطق المحيطة وأهمها البحيرة. ومن ثم توجهنا بالسيارة في هذا الاتجاه وبدأنا الحديث الذي لم ينقطع طول الطريق. كنا نتحدث في

(*) **سادوم وعامورا:** بحسب ما جاء في القرآن والعهد القديم هي مجموعة من القرى التي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد وفق ما جاء في النصوص الدينية. القصة مذكورة بشكل مباشر وغير مباشر في الديانات السماوية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية. يعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن القرى التي خسفها الله تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن.

الوقت نفسه فكل واحد منا يريد أن يكون له السبق، فكان الواحد منا يقاطع الآخر للحديث في موضوعات شتى. انتقلنا من موضوع إلى آخر لدرجة جعلتنا غير قادرين على متابعة ما نقول. عندما وصلنا إلى البحيرة اكتشفنا أنها لم تكن هدف الرحلة، فهدف الرحلة الأساسي كان هو الطريق إلى البحيرة. ألقينا نظرة على البحيرة ثم ركبت السيارة كما لو كنت أريد أن أسير وحدي وأترك ديفيد. ضحك ديفيد عندما شرحت له فلسفتي في السخرية: فأنا أرى أن الدعابة الجيدة يجب أن تستمر إلى أن تصل إلى نهاية مرة ومؤلمة، وقتها ستكون دعابة جيدة فعلاً.

أومأ ديفيد برأسه موافقًا، فأخذت أكمل له فكرتي بالتفصيل:

– أقصد أنني كنت سوف أتركك هنا وأمضي في طريق العودة. لم يكن في نيتي أن أسير مسافة مائة متر وأعود إليك، إنما كنت سأعود فعلاً إلى المنزل بدونك. وقتها فقط كانت الدعابة ستكون دعابة بمعنى الكلمة.

رد ديفيد قائلاً: صحيح، صحيح فعلاً، وأؤكد لك أنني لم أكن سأغضب إذا فعلت ذلك. فالدعابة كانت تتطلب فعلاً أن تفعلي ذلك.

فهمت من نبرة صوته أنه كان يعني ما يقول فعلاً.

قلت له: هل تحب أن تبيت عندي الليلة؟ أقول لك عندي وليس معي. أريدك فقط بجانبي لا أكثر ولا أقل حتى نستغرق في النوم.

فكر ديفيد مليًا ثم قال: لن يمكننا هذا ما حيينا.

ابتسمت وقلت: ربما! ولكني أريد أن أفعل ذلك وأن نتفق على هذا الشرط، لا جنس على الإطلاق. أن تكون فقط بجانبي، ما رأيك؟

قال ديفيد: موافق!

فقلت له: وأنا موافقة!

أمر غريب فعلاً أن تكون مع شخص جديد عليك في السرير! أن تكون بجانبك رائحة جديدة ودفء جديد. لقد اكتشفت أن كل شخص يشع دفئه الخاص في السرير، لا أقصد أن هناك شخصًا أبرد من شخص، الفرق هو نوع الدفء فهو يختلف من شخص لآخر كما لو كان الدفء ضوءًا متعدد الألوان أو ما شابه. المهم أن دفء ديفيد يختلف عن دفء فيليب، وهذا ما يعجبني!

استلقى ديفيد بجانبي ولم نشعر لا أنا ولا هو بأي نوع من التكلف أو التشنج، فالاتفاق بيننا جعل الأمور تسير بسلاسة. فبدأنا نتجاذب أطراف الحديث ونحكي بعض النكات والدعابات، وأخذنا نتذكر بعض خواطر الماضي دون أن يذهب تفكيرنا تجاه الجنس. كنت أمسك بيد ديفيد ونحن مستلقيان على ظهرينا. تبادلنا الكلمات والدفء أيضًا. كم هو إحساس جميل!، لذلك قررنا ألا ننام؛ فالنوم هنا يعتبر

تبديدًا للموارد الطبيعية. استمررنا في تبادلنا الحديث كـــي نجـــد ســـببًا لتبادل الدفء، عندما كنت أغفو كان ديفيد يصيح بصوت عال:

- إيه؟ هل نمت؟

فأضطر أن أضحك. وإذا غفا ديفيد كان يسأل نفسه: إيه هو أنا نمت واللا إيه؟

لم يكن هو أيضًا يريد أن يبدد الوقت.

عندما بزغ النهار بدأ ديفيد يحرك الخاتم الـــذي أضـــعه فـــي إصبعي ويسألني: ما هذا؟

- ألا ترى؟ إنه خاتم يا أبله!

- مفهوم طبعًا! ولكن هو كبير كده ليه، إنه في حجم رأسك!

بينما أنا أحكي له حكاية ماما والخاتم أخـــذ ديفيـــد يتحـــسس ذراعي ثم ظهري ورقبتي. وبينما هو يفعل ذلك صدرت مني تنهيـــدة ما كنت أقصدها، فاستمر ديفيد يتحسس جسمي بينما أنا أحدثه حـــديثًا متقطعًا. ثم، ثم، صمت تمامًا وأخذت أتنفس بعمق.

لم يسأل أحد منا الآخر إذا ما كان قد راح في النوم؛ لأننا لـــم نكن قد نمنا فعلاً.

لم نتحدث عن اتفاقنا السابق ولا أننا قد أخللنا به، لقد حافظنا عليه قدر استطاعتنا، ولكن ما باليد حيلة.

بدأنا نتبادل القبلات وإن لم يكن التجانس موجودًا في البداية، إحساس جميل أن يلمسني وأن ألمسه، حتى لو لم أكن بالصورة التي يجب أن أكون عليها؛ فهذا هو أول لقاء حميمي بيني وبين رجل بعد فيليب وبعد الأزمة التي مررت بها.

أقول: إنها كانت أول مرة بعد ما أطلق عليه اسم الحادي عشر من سبتمبر الخاص بي أنا شخصيًا.

عندما انتهينا أخذت في البكاء، فأنا أعرف نفسي جيدًا، ربما كان السبب أنني أشعر باسترخاء حتى أن عضلة قناة الدموع استرخت هي الأخرى وسالت، خجلت من نفسي؛ فأنا لا أريد لرفيقي أن يجهش بالبكاء بعد لقائنا؛ فبعض الرجال يخاف أن يكون قد جعل رفيقته تتألم أثناء المعاشرة. الواقع أن من لا يشعر أثناء اللقاء ببعض الألم، فإنه يستحق أن يبكي بعده. وهذا ليس الحال بالنسبة لي.

ولما كان ديفيد يعتبر نفسه سوبرمان فلم يتصور أنه أوجعني، فما كان منه إلا أن احتضنني؛ فحيث إنه سوبرمان الاكتئاب فقد فهم الأمر جيدًا، أتمنى أن أفهم أنا أيضًا.

استيقظنا في الصباح وبقينا بعض الوقت في السرير نتبادل دفء الفراش.

وبمجرد أن تركنا السرير أصبح ديفيد في السرير يختلف تمامًا عن ديفيد في الصباح. فأخذ يحكي النكات والدعابات إلا أنني لم أكن قد وصلت لهذه الدرجة من الاستيقاظ فما زلت على المستويين الداخلي والخارجي أشعر بالدفء والنعومة.

أخذ ديفيد يقول لي إن التاتو المرسوم على بطني يشبه خريطة مقاطعة ميكلن بورج الألمانية، ثم أخذ يمسك ببعض الأشياء من الشقة ويضعها على مستوى أعلى بكثير من أن أستطيع الوصول إليه إلا باستخدام السلم الخشبي.

بدأ يراجع رسائله الإلكترونية ويضحك على بعض ما جاء فيها.

أما أنا فقد كنت مضطربة ومرتبكة وأبحث عن دفء جسم آخر أحتمي به. أمسك ديفيد مؤخرتي وابتسم بسخرية قائلاً: هل يضايقك لو أنني لمستك؟ ثم أرسل لي قبلة في الهواء وخرج.

بقيت في المنزل وأنا أشعر بالمباغتة. الآن أستطيع أن أتفهم سبب وقوع النساء في الحب بعد أي لقاء حميمي أو على الأقل عدم قدرتها على التحول بسرعة؛ لذلك بقيت في المنزل وأنا مستمرة على هذه الحالة.

على مدى اليوم وصلتني من ديفيد رسالة على الهاتف المحمول تحمل رسم خريطة لمقاطعة ميكلن بورج، أعتبر هذا في

عالمي الخاص بمثابة الاعتذار، أو ربمــا الاعتــراف لعلــه يكــون ارتباطًا!!. إذن أعتبر أنه بذلك قد صالحني.

في اليوم الذي حددناه لنذهب إلى السينما ذهبنــا بالفعــل؛ إذن فهو موعد ثانٍ بيننا. تبادلنا التحية بفتور فــساعدنا أنفــسنا بالنكــات للتغلب على الموقف المتوتر. أشعر بالقلق وعدم الثقة لأني لــم أكــن أعرف حقيقة مسمى العلاقة بيننا ولا ما يجب علينا أن نفعله الآن.

داخل السينما سألت ديفيد ماذا يفضل: أن أجلس على يمينــه أم عن يساره؟ فقال لي: أفضل أن تجلسي على رجلي. وجد العــصفور الصغير الذي سقط حديثًا من العش – الذي هو أنا – في هذه الكلمات رقة ولطفًا، ومن ثم وضع علامة جديدة في خانــة: أعتــرف أننــي سلمت له.

لم يكن الجلوس على رجل ديفيد مريحًا ولكنه أخــذ يمــسكني بقوة ويضمني حتى أنني لم أستطع التنفس، أخذ ديفيد يتحسس جسمي ويقبلني ويكثر من الأحضان.

هنا وضعت علامتين في قائمتي. وكتبت: بداية الاقتراب مــن العلاقة الحميمية.

عند منتصف الفيلم جلست بجانــب ديفيــد. تــشابكت أيــدينا وضبطت ديفيد أكثر من مرة وهو يتأملني فبادلته النظــرات ولكنــي

كنت متماسكة وقلت له في نفسي: ببساطة هكذا، هل تتصور أنني يمكن أن أقع في غرامك؟

أمضينا الليلة في شقة ديفيد وكررنا في الصباح طقوس الصباح الباردة، ديفيد يلقى دعاباته بينما أنا في مرحلة عدم توازن.

ذهبنا لتناول الإفطار، والتقينا بصديقين لديفيد فتناولنا إفطارنا نحن الأربعة؛ أخذت أسمع ما يقوله الأصدقاء بينما أنا منشغلة في التفكير في موقفي. حاولت أن أبدو لطيفة، فأنا بالفعل مرحة وذكية. وددت لو أنني قلت لأصدقاء ديفيد: أنا لن أنكب عليه وأسعى وراءه، اسمعوا وعوا مدى الوعي الذي أتمتع به، فأنا أعرف صديقكم جيدًا. ربما كانت للأخريات قصص حب فاشلة معه، أما أنا فلن يحدث ذلك معي.

تبادلنا أطراف الحديث وضحك ديفيد معنا جميعًا. بدا مسترخيًا وودودًا معي ولكنه ليس قريبًا مني. يبدو أننا التقينا في الماضي ربما أثناء الدارسة أو في محطة بنزين!

بعد أن انصرف أصدقاء ديفيد قلت له: وبعدين؟

فقال بإصرار: أريد أن أمضى وقتًا أطول معك؟ أنا أتمتع بالوقت الذي نمضيه معًا. هل تمانعين أن نبدأ عمل أي شيء معًا؟

اندهشت من كلماته وسعدت بها.

أهلا بعودتك أيتها التوقعات ويأيتها الأحاسيس. هلم بنا جميعًا لنمضى اليوم معًا.

وذهبنا معًا لنمضى اليوم مع ديفيد.

ذهبنا إلى المتحف لرغبتنا في مشاهدة التاريخ الألماني، بدأنا ونحن في جناح القرن الثاني عشر نتبادل القبلات ولم نستطع أن نبتعد عن بعضنا البعض. كنا نتعانق لدرجة أنني شعرت من شدة ضم ديفيد لي كما لو أنني أحاول الصعود إلى قطار مزدحم، ثم جلسنا على الأرائك الموجودة بالمتحف وأخذنا نتحدث عن أمراضنا وعن طرق تفكيرنا ومدى الارتباط بينها. عندما كنا نشعر بجفاف حلقَيْنا كنا نتبادل القبلات. وحيث إننا كنا طوال الوقت متعانقين فلم نتقدم في مشاهدة أقسام المتحف إلا حتى القسم المخصص للقرن السادس عشر من تاريخ ألمانيا. بعدها طلب منا العاملون مغادرة المكان، لقد حان وقف إغلاق المتحف.

رغم أن الجو خارج المتحف كان باردًا ورطبًا فإنني كنت منتشية وأشعر بالدفء، فقد كنت أشعر أنني عدت إلى عش دافئ وآمن. لقد كنت ثملة من شدة السعادة.

سرنا معًا في شوارع المدينة بلا هدف محدد، وكنت أحاول أثناء السير جاهدة أن أوجه حديثنا نحو توعد ديفيد لي بأنني سوف

أقع في حبه، فسألته: لماذا تعتقد أنني سأقع في الحب؟ لماذا لا تكون أنت؟ ربما لا أحد منا أو ربما كلانا؟

رد عليّ ديفيد باستسلام أكثر منه فخرًا: لأن هذا هو الحال دائمًا.

قلت له: يا سلام!! ألم تقع في الحب ولو مرة واحدة؟

رد قائلاً: ليس في السنوات الأخيرة على الأقل، فحياتي مرتبكة لدرجة لا تسمح بذلك.

بادرته بصوت رزين وأنا أتصور أنني أشير إلى نفسي: هذا تخريف، المهم أن تختار الإنسانة الصحيحة!

رد قائلاً: - هذا ما تصورته! أنتن أيتها النساء تعتقدن دائمًا أنها لا بد أن تكون هي الشخص الصحيح!

سألته: - وأنتم يا معشر الرجال تتصورون أننا نحن النساء نقع في حبكم في التو. أليس لنا الحق أن نكتشف ذلك بأنفسنا؟

كنت على قناعة كاملة أنني لن أقع في الحب، فأنا على أقصى تقدير مبهورة بديفيد لأني أعرف أن ذلك يأتي على ثلاث مراحل: الانبهار ثم الدخول في حالة حب وفى النهاية تجيء علاقة الحب. لم تعد نبرة ديفيد تنم عن المرح وهو يقول:

تخدعن أنفسكن بتصوركن بأنكن محصنات، ولــن تتخطــين مرحلة الانبهار، إلى أن تكتشفن أنكن قد تخطيتن هذه المرحلة. وقتها أكون أنا ذلك المغفل الذي لم يكتشف في الوقت المناسب أن الأمــور تسير في الاتجاه المحتوم، وهذا ما لا أريده.

بدا لي ديفيد متوترًا بسبب ما مر به مــن تجــارب، لدرجــة شعرت معها أن تجاربه أصابتني أنا شخصيًا بالتوتر. فأنا لا أريد أن أعرف مع بداية الفيلم أن بروس ويلليس سوف تموت وتختفي؛ فلكل واحد منا الحق أن يكتشف النهاية بنفسه ولا تقدم له جــاهزة مــسبقًا. فالمخاطرة هي التي تكسب الحياة الإثارة، فلا أحد يعــرف إذا كــان سوف يربح أم يخسر. فأنا لا أعرف كيف ستسير الأمور مع ديفيــد؟ هل سأقع في حبه؟ هل نناسب بعضنا خاصة وأن نبــوءة ديفيــد قــد أفقدتني القلق الجميل الذي يجعلني أكتشف الأمر بنفسي وتقلــل مــن قيمتي؟ بل إنها تجعل التنبؤ بتصرفاتي أمرًا سهلاً.

قال لي: – لا أتصور أن يكون بيننا ارتباط!

ثم أضاف محاولاً تخفيف وطأة كلماته ولكنــي لست بالغبيــة أو الساذجة:

– لست متأكدًا بالطبع، ولكن هذا هو حالي عند كــل تجربــة عاطفية أدخل فيها؛ فأنا لا أرغب عند كل علاقة أدخل فيها أن تكون

صدمة صديقتي كبيرة، لذلك أنهى العلاقة في الوقت المناسب وقبل أن يصاب أحد بأذى.

أخذت أفكر في كلماته بينما نحن نسير متشابكي الأيدي، ولكني أعتقد أن المفروض أن أترك يده الآن؛ لأنه محق فيما قال. المفروض أن أركض بعيدًا عنه قدر استطاعتي. فهذا الأمر لا يحمل لي خيرًا. ولكني وإحقاقًا للحق أقول إنني أستمتع بالتجربة ربما لأنها سوف تجعلني أغلق الباب على علاقتي بفيليب؛ لذلك قررت أن أختار طريق الشجاعة فقلت لديفيد:

- أعلم جيدًا أنني يمكن أن أسقط من ارتفاع عال وتكون صدمتي كبيرة، ولكني أعلم أيضًا أنني أنا التي قررت أن تصعد عاليًا. فأنا أدفع ثمن شيء يستحق التضحية، هل تفهمني؟ هكذا تكون الحياة بما تحوى من إثارة. صحيح أن الإنسان الذي يعيش بعيدًا عن الإثارة يبقى بعيدًا عن أي مشاكل، ولكنه في ذات الوقت لا يحصل على شيء بتاتًا. وأعتقد أنه من حقي أن أعيش التجربة طالما أنني على استعداد لدفع الثمن.

لم نتفق على رأى في هذا الموضوع، ولكن ربما كان الوقت ما زال مبكرًا للحديث في هذا الموضوع ومناقشته. في الواقع إنني لا أعلم بعد ماذا أريد، لكني في الوقت ذاته لا أتحمل أن يُسلب مني القرار.

جلسنا في سيارتي وأخذ ديفيد يمسح على رأسي ثم قبلني، ونحن نسمع صوت الموسيقى عاليًا. بينما أنا أفكر أن أقترح على ديفيد أن أوصله إلى بيته إذا به يقول لي: دعينا نذهب إلى أي مكان لنأكل معًا. وحيث إن توقعاتي لم تتعدَّ - حرصًا مني - النزهة معه وزيارة المتحف والتي قمنا بها بالفعل، فقد رحبت بالفكرة بشدة فأومأت برأسي بالموافقة وأنا أشعر بالفرحة. قلت لتوقعاتي في سري وأنا أرفع لها إصبعي: على أن تكون هذه المرة الأخيرة!! وبعدها ينتهي الأمر؛ فهذا الشاب ليس لديه نية أن يقع في حبي!

ذهبنا إلى مطعم يقدم اللحوم، وبينما نحن في الطريق إلى المطعم أخذ ديفيد حقيبة يدي وعلقها أعلى إحدى اللوحات الإرشادية الموجودة في الشارع، فأخذت أضحك وأقفز عدة مرات لأمسك بها. جلسنا بجانب بعضنا متشابكي الأيدي. أثناء الطعام أخذنا نتحدث عن أنفسنا وعما يدور في رءوسنا، وكذلك عن حالة الاكتئاب التي نعاني منها. تحدثنا عن الإحساس بالخوف وعن العلاج.

لفت نظرنا أن كثيرًا من أصدقائنا يعانون من مشاكل مشابهة؛ فأنا شخصيًا أعرف خمسة على الأقل من بين أصدقائي ومعارفي ممن يعانون من نوبات الخوف أو الاكتئاب، ولكنهم لا يفعلون شيئًا تجاه ذلك ويتحملون معاناتهم في خضوع؛ فلا أحد منهم يحاول أن

يذهب للعلاج أو يتناول أدوية اعتقادًا منهم أن الأمـــر ســـوف يمـــر. ولكن هذا الكلام ليس صحيحًا، فقد جاء في أذني صـــوت الـــدكتورة كليفه وهي تقول: لماذا تريدين أن تدخلي النار برجليك! وتمتنعين عن العلاج؟ المفروض أنها طبيبة نفسية وتعـــرف تفاصـــيل مثـــل هـــذا الموضوع.

امتلأت رأسي بالأفكار؛ فالحديث عن علاج الروح يشبه حركة الزمن اللا نهائية؛ حيث إن النفس البشرية أكثر تعقيدًا مـــن إصـــابة بكسر مضاعف في الجمجمة؛ فالنفس المريضة لا يمكن اكتشافها مثل ما تكتشف الأزمات القلبية أو الإصابة بزيادة الدهون في الكبد أو إصابة في الرئة. الأمر في الحالات النفسية له أشكال وآراء متعـــددة مـــن التشخيص وكذلك أساليب علاج كثيرة، فضلاً عن أن العلاج يـــستمر لفتـــرات طويلـــة، فالحـــل هنا ليس الاستئصال أو اتبـــاع وســـائل تغذية صحية.

بدأت الأفكار تدور في رأسي وتحاول إثارتي؛ فـــالأمر يـــشبه اللعب بمكعب الأرقام السحري دون أمل التوصل إلى جانـــب واحـــد يضم نفس اللون. انتهينا أنا وديفيد من الطعام ومن الكلام، فقلت لـــه وأنا أرتعد في انتظار الرد:

- وبعدين؟

كنت واثقة من أن التوقعات لا يمكن أن توصلني إلى أكثر من الموقف الحالي، ولكنها أخذت تتراقص أمامي مثل راقصة الباليه وتغريني بحدود ما يمكن توقعه. ولكنى لا آمل في شيء أكثر من هذا! ابتسمت ولم أقل شيئًا.

فقال ديفيد: هل تحبين أن نشاهد فيلمًا على الـ ***DVD*** عندي في المنزل؟

- إيه؟

ثم قلت له بلطف وبأكبر قدر من اللا مبالاة.. بينما أقوم بتمثيل دور البنت الساذجة:

- لا مانع، موافقة!

تشابكت أيدينا ونحن نسير في الطريق، ثم تبادلنا القبلات واشترينا الآيس كريم، وبدأنا نتصرف كما لو كنا عاشقين.

وصلنا إلى مطبخ السكن الجماعي الذي يقيم به ديفيد حيث التقينا بأحد السكان فقمنا بتقسيم الآيس كريم على ثلاثتنا وتبادلنا الحديث، فسألنا الساكن:

- ماذا ستفعلان الآن؟

أجبته بقولي:

- سوف نلعب مع بعضنا، لا مكان للعواطف، لذلك سوف نتسلى فقط، فديفيد لا يريد أن يقع في الحب.

ضحك الساكن وغمز بعينه نحو ديفيد ونحوى وهو يقول: فعلاً، ديفيد لا يريد أن يقع في الحب!

في صباح اليوم التالي جاء الوقت لاستراحة، حتى لو اقترح ديفيد برنامجًا جديدًا لا بد أن أترك هذا المكان حتى ألملم شتات نفسي، كذلك يجب أن أبدل ملابسي وأن أحكي لصديقاتي عن ديفيد. تركت السرير كي أكون أنا أول من كسر دائرة الدفء المتبادل.

ارتديت ملابسي وقلت له بلا داع: - أنا هامشي!

فرد ديفيد بلا داع أيضًا: - طيب!

عندما خرجت واجهتني شمس الخريف الدافئة وشعرت وكأنني أقدم إعلانًا عن مرغارين نباتي تحتوى على قليل من الكولسترين ويبعث على النشاط والحيوية والصحة. شعرت بأنني في حاجة إلى أن أحكي لأحد عن نفسي وعن ديفيد، عن الجنس وعن عدم الرغبة في دخول تجربة حب جديدة. اتصلت بأمي ففرحت معي بالأخبار السعيدة، ثم اتصلت بنيلسون الذي فرح هو أيضًا ولكنه كان أكثر تحفظًا، فنيلسون رجل، أما أنا فأحتاج الآن إلى امرأة كي أتحدث إليها؛ لذلك اتصلت بصديقتي أننا.

فأننا هي أقدم أصدقائي منذ أيام المدرسة، حصلنا على الثانوية العامة في نفس العام وأمضينا معًا ستة أشهر في مدينة برشلونة حيث كنا نحاول إثبات ذاتينا، ولما لم ننجح في إثباتها، عدنا إلى بلدنا.

وعلى الرغم من أننا لم نتقابل خلال السنوات الماضية إلا مرات معدودة، فإن قلوبنا ما زالت على اتصال مستمر. تسعى أننا دائمًا أن تعرف أحوالي بدقة؛ فهي ليست ممن يرضى بالمراوغة أو التحايل.

بدأنا منذ عدة أسابيع نلتقي بشكل منتظم؛ فقد اكتشفت أن صديقتي تحمل بداخلها همًا كبيرًا، ولكنها أبت أن تظهر لي كل هذه المعاناة والهم الذي تحمله أو تفتحه أمامي إلا عندما بدأت أننا جلسات العلاج.

منذ عدة شهور وبينما أحكي لها عن سوء حالتي لمحت فجأة دموعًا في عينيها. أعلم أن أننا قد تعرضت لحادث معين في شبابها تسبب لها في صدمة شديدة، فقد سبق وتحدثنا عن هذا الموضوع عدة مرات.

لقد اكتشفت أن الإنسان لا يتعمق في الكلام عن تفاصيل موضوع الحديث عندما يرى على وجه الطرف الآخر ابتسامة شاحبة، لذلك لم أدرك بالقدر الكافي مدى تأثير ماضي أننا على حاضرها.

وفجأة بدأت أننا تحكي لي عن سوء حالتها على مدى الشهور الماضية، وكيف تكررت حالات الإغماء التي تصيبها بدون سبب لدرجة أنها تسقط في الشارع مغشيًا عليها بمجرد أن تشم رائحة أو ترى شخصًا يشبه واقعة الماضي. قالت لي: إنها لم تعد تخرج من المنزل وإنها أكثرت من شرب الخمر حتى تستطيع أن تنام ولا تتحدث مع أحد عن هذا الموضوع. لقد اكتشفت أن حالة أننا أسوأ من حالتي بكثير، فما كان مني إلا أن تقمصت تلقائيًا دور أمي وشرحت لها كل ما تعلمت، ففي مثل هذه الحالة لا يعتبر الشخص مجنونًا وإنما يعتبر مريضًا يحتاج إلى المساعدة، بل ويجب عليه أن يبحث عنها بنفسه؛ لأن الإنسان لن يستطيع الخروج بمفرده من هذه الغرفة المظلمة ولا يمكن لأحد أن يطلب منه ذلك. الأهم من كل ذلك أن الإنسان يمكن في وقت ما أن يشفى من هذا المرض.

شعرت أننا بارتياح وفرح لأنها وجدت من تلجأ إليه وتحتمي به، والأهم أنها وجدت من يسمعها بعد أن ابتعدت عن صديقات أخريات كانت تلتقي بهن أكثر مما تلتقي بي أنا شخصيًا. لم تكن هي تتحمل أن ترى صديقاتها وهن يتمتعن بحياتهن، ولا كانت الصديقات يتحملن وجود أننا وسطهن بسبب معاناتها المستمرة. كل ذلك أثارني كثيرًا؛ غير أنني شعرت بالخجل من نفسي لأنني لم أستوعب من قبل مدى معاناة أننا.

هذا هو حالنا، فنحن ندور في حلقة مفرغة، لا أحد منا يراعي الآخر اعتقادًا منا أن التلويح باليد والدعابات بيننا تعني أن كل شيء يسير على ما يرام حتى تصرخ النفس في طلب الحصول على خمس عشرة دقيقة من الاهتمام، ثم يتوقف كل شيء. فالنفس تريد أكثر من مجرد الإصبع الخنصر، فهي تريد كل شيء وتحصل على كل شيء.

هذا هو حال أننا، الواضح أن بيننا صلة قرابة روحية حتى لو كانت في صورة سلبية، ولكننا نشترك في المعاناة ونهتم ببعضنا البعض. بحثنا لأننا عن طبيب نفسي وعن جلسات علاج وبدأنا نتبادل الحديث أكثر من ذي قبل.

كانت أننا تحضر إليّ عندما كانت تصاب بالأرق ولا تستطيع النوم، وعندما كانت تشعر بالخوف كنت أطمئنها وأقول لها: إن الأمر بسيط ولا يستدعي القلق.

ليس بمقدوري أن أفعل أكثر من ذلك، فأنا لا أستطيع أن أشفى من هذا المرض ولكن كان عليّ أن أكذب؛ لأن الخوف شيء فظيع، فالخوف أكثر شيء مخيف قابلني في حياتي ولا أتمنى أن يعود أبدًا، فالخوف يحبس الأنفاس، بل وحتى الدموع. ففي مراحل تطور أعراض نوبات الخوف يجب على الشخص أن يكون يقظًا وواعيًا. أما الدموع فهي تحجب الرؤية في وقت يجب على الشخص أن يكون

قادرًا على أن يرى الأشياء بوضوح أثناء الشعور بالخوف حتى يصل إلى بر الأمان. أما أمثالنا نحن فلا نستطيع الفرار لأننا نركض في الاتجاه العكسي.

الخوف وحش ضخم، كئيب المنظر ينقض على الشخص كي يستولي عليه، وسوف يفعل ذلك عاجلاً أو آجلاً ما لم تحاول مقاومته وإلا سوف يستمر بداخلك كي يجعلك تستسلم في أي وقت. اهتمامي بأننا جعلني أراقب نفسي، لم تعد حالتي تتسم بالسوء، فلم أصب بأي نوبات خوف منذ عدة شهور؛ بمعنى أنني يمكن أن أعتبر أنني قد شفيت، فضلاً عن أن هناك رجلاً جديدًا في حياتي.

التقيت أنا وصديقتي أننا لنشرب القهوة ونأكل الحلوى، فقالت لي بحماس:

– دعيه يعدل عن فكرة أنه لا يريد أن يقع في الحب. فكلامك يدل على أنه قد وقع في حبك من زمان!

أننا تتحمس في بعض الحالات بسرعة، أما أنا فلا أريد التمادي إلى هذه الدرجة، إلا أنني في الواقع سعدت جدًا لرد فعل أننا في هذا الموضوع.

قلت لها:

- تعرفي يا أننا؟ أجمل ما في هذا الموضوع - الأجمل - هو أنني قد تخلصت تمامًا من فيليب؛ فديفيد يعتبر هنا مثل الحقنة الشرجية، يدخل هو فتخرج الفضلات والبواقي.

اضطرت أننا أن تضحك، إلا أنني أجد هذا التشبيه تشبيهًا بليغًا بالفعل. لا أعرف كيف سينتهي هذا الموضوع ولكن المؤكد أنه سينتهي دون فيليب. ربما صادفتني في وقت قريب مشاكل عاطفية إلا أنني مستعدة لكل ما هو جديد بما فيها المشاكل العاطفية رغم أنها شيء غير مستحب، فإنها محددة وسوف تنتهي. هذا ما يتمناه عقلي: النظام، وتحديد الأبعاد، ثم النهاية.

اتصل بي ديفيد في المساء وسألني باقتضاب - كما لو كنت مشاركة في مسابقة: -

- ما رأيك في لعبة جماعية؟

ورغم أنني أحب الألعاب الجماعية، فإننى لم أكن على يقين أن هذه هي الإجابة الصحيحة على طلب ديفيد، أما وقد شعرت أن هذا السؤال ليس سؤالاً مصيريًا ففي هذه الحالة قررت أن أقول له الحقيقة. وعندما سألني ديفيد:

- هل ترغبين في الحضور للعب؟

شعرت بالسعادة لرغبة ديفيد أن يراني للمرة الرابعة على التوالي؛ ولكنه لم يلبث أن قال:

- نلعب فقط!

وافقت وأنا أشعر بشيء من التجهم، وسألت نفسي:

لماذا هذه الجملة الإضافية؟ ماذا يقصد بها بينما هو يوجه الدعوة إلى صديقته، ربما يقصد بها أنه لا يريد أن يكرر اللقاءات الحميمية السابقة. لا نريد أن نخدع أنفسنا، فكل مرة نأخذ على أنفسنا هذا العهد ننقضه. أليس هذا هو السبب الحقيقي وراء لقاءاتنا؟ بل إن لقاءنا الحميمي يحدث برضا الطرفين. أليس الأمر يشبه الكلب عندما يريد أن يلعب مع صاحبته، يلعب فقط، إلا أن الأمر يصل في كل مرة إلى ما هو أخطر من ذلك.

أنا لا أستطيع أن أفهم جملة ديفيد "نلعب فقط"، بل وأشعر بالخوف منها.

عندما فتح لي ديفيد الباب لم يحييني؛ أعني أنه لم يلمسني، وبحركة سريعة للتحية دخلت إلى المطبخ وبدأنا نلعب لعبة تركيب الكلمات "سكرابل" بطريقة عادية جدًا كما يلعب أفراد الأسرة الواحدة مع بعضهم. وعندما لم أتمكن من تحديد موقفي الحالي شعرت بالسأم،

حتى محاولاتي الاقتراب من ديفيد لم تفلح بسبب المكان الذي نجلس فيه، مائدة المطبخ واسعة لا تسمح لي بلمس يد ديفيد وساقاي القصيرتان لا تصلان إليه.

ورغم دعابات ديفيد، كلاً ومضمونًا، إلا أنني لم أتجاوب معها؛ فأنا أريد أن أعرف موقفنا. هل نستطيع أن نتحدث عنا معًا بصيغة الجمع، هل سنستمر معًا؟ أم هل سيكون ذلك أحيانًا، أو ربما أو حتى؟ دعنا نرى ماذا سيكون؟!

وحيث إن الرجال لا يحبون مثل هذه الأسئلة فلم أجرؤ على توجيه السؤال وإنما آثرت الصمت؟ لم يسألني ديفيد عن سبب صمتي، أتصور أنه يخشى الإجابة.

يمكن انتهت جولة لعبة الحروف. قال لي ديفيد بصوت يخلو من أي عاطفة، كما لو كان يلعب دور الأخ الأكبر:

- يمكن أن تبيتي هنا الليلة لو أردت!

وحيث إنني لا أعرف التوقيت المناسب كي أفقد الأمل وأذهب فقد قررت أن أبقى.

لم يحدث بيننا أي التقاء جسدي. نمنا بجانب بعضنا البعض فقط. انتابني شعور بأن رأسي يتشنج، وأحسست أننى معلقة في سلك

شائك، بينما أنام في ركن السرير أنتظر من يواسيني أو يوضح لي طبيعة الوضع الحالي، أو، أو أن يضمني ديفيد إليه، إلا أنه كان مستلقيًا في السرير ويشاهد التليفزيون. الحقيقة أن الموقف معقد للغاية، ربما كان المفروض أن أقول له ما يدور بخاطري الآن، ولكني لا أريد أن أفقده أعصابه في الوقت الحالي، بل أريد أن أظهر في صورة الحبيبة التي وقعت في الحب، لذلك ابتلعت كلماتي ورحت في النوم.

بدأت علاقتي بديفيد تتشابك وتعددت لقاءاتنا؛ كنا خلالها نتحدث عن الحب وعن حق الواحد منا أن يشارك في اتخاذ قرار للآخر.

لم تعد لقاءاتنا كما كانت في البداية فقد أصبحت أكثر تعقيدًا، وأقل إرضاء لكلينا، أصبحنا نتوجس خيفة من المستقبل، ربما حانت اللحظة التي لاحقتنا طويلاً.

تأمل ديفيد موقفه واكتشف أنه لم يصل بعد إلى حالة الوقوع في حب فتاة أحلامه، ثم تأملنا موقفي أنا، وساورنا الخوف من أنه من السهل انتقالي من المرحلة الأولى إلى المرحلة التالية بسرعة، كان هذا رأى ديفيد، أما أنا فلا أعرف، فلم أعد أعرف شيئًا.

انحصر اهتمامي في اهتمام ديفيد بأحاسيسي وردود أفعاله عليها، فلم أعد أسعى إلى أن أتعرف على شعور ديفيد وإلى إظهار

شعوري أنا وما يقلقني. الواقع أنني أريد أن أوقعه في الفخ وأن أختار أنا النهاية بنفسي، أما الحقيقة فهي أنني أريد أن أستمر في السباحة في بحر ديفيد، لا أريد أكثر من أن يبقى بجانبي، أن يلمسني ويشعرني بالأمان، أريد أن أشعر بذلك لمدة قصيرة حتى أستعيد نفسي وذاتي. قلت لنفسي: أعطني ولو مثالاً واحدًا على حالة كهذه؛ قرب دون حب، أين الشخصان اللذان استطاعا أن يشتركا في سرير واحد بلا أي مشاعر أو أحاسيس؟

الحقيقة أنني لا أعرف مثل هذه الحالة، وأكذب لو أنني قلت: إنني رأيت مثل هذه الحالة؛ فالأمر عادة ما ينتهي بالحب. قلت لديفيد بشجاعة:

- حيث إننا لا نريد أن نتقارب جسديًا فالأفضل أن نبتعد عن بعضنا لفترة!

- لماذا؟ أرى فيك إنسانة رائعة وأسعد بالحديث معك وقضاء بعض الوقت معك.

- إذن فأنت لا تريد أن نبقى أصدقاء.

- أليس هذا ممكنًا؟

- لا، ليس هذا ممكنًا؛ لأنه ليس ما أريد أنا، أنا أريد أكثر من ذلك. لا أعرف إن كنت قد وقعت فعلاً في حبك، ولكنى أعرف أنني أريد الاقتراب منك بالشكل الذي مارسناه منذ عدة أسابيع، يشعرني

ذلك بالرضا، أما إذا كان الأمر يتعلق بالأصدقاء فعندي منهم ما يكفيني؛ وحيث إنني لم أتعرف عليك كصديق فإنني لا أريد أن أحتفظ بك كصديق.

بدا الحزن على ديفيد لما سمع منى، وتصورت أنه كان يتمنى أن يكون قد وقع في حبي بالفعل. وفجأة اتضح لي أنه ليس من الشاعرية في شيء أن نتناول أنا وديفيد أقراص معالجة الاكتئاب كل صباح معًا، أو على الأقل ليس هذا هو ما أحتاجه في الوقت الحاضر فأنا أحمل عبئي أنا الشخصي بالكاد، فما الذي يجعلني أضع أحمالاً فوق أحمالي. أنا لا أحتاج فارس أحلام يجيئني ممتطيًا حصانه، أريده يعمل في شركة للبريد السريع الدولي. أردت أن أنهي حديثنا الذي لا ينبئ عن جديد فقلت له:

- دعنا نبتعد لعدة أسابيع، بعدها نلعب لعبتنا الجماعية مرة أخرى ثم نختبر أنفسنا كأصدقاء، ما رأيك؟

تذمر ديفيد مما قلت. جلسنا في صمت داخل سيارتي أمام باب منزله. لم يغادر السيارة أمسك بيدي، بينما استمر الصمت ونحن نستمع إلى أغنيات فيل كولينز(*) ***Phil Collins*** في الراديو دون أن نعلق عليها.

(*) فيل كولينز (١٩٥١): مغن إنجليزي متعدد المواهب، يغني ويؤلف الأغاني، يعزف على البيانو والدرامز. قام بتمثيل عدة أدوار، اشتهر بأنه عازف الدرامز لفريق الجينيزيس (***Genesis***).

كان ديفيد يغفو للحظات من تأثير تدفئة السيارة وهو ما زال ممسكًا بيدي، بينما شعرت برغبة في قضاء حاجتي، لم يرغب ديفيد أن يترك يدي رغم أنني قلتها له واضحة وصريحة.

وبعد مرور نصف ساعة قلت له:

– ديفيد، اصعد إلى شقتك الآن، لا فائدة من ذلك كله فأنا أرغب في حل قاطع: إما كل شيء أو لا شيء. أما أنت فتريد الطريق الوسط، إذن لن نتفق!

أومأ برأسه موافقًا، فقلت له:

– ربما يبدو ذلك غير مناسب في الوقت الحالي، ولكنى فعلاً في حاجة شديدة إلى قضاء حاجتي، هل تسمح لي باستخدام حمامك؟

كنت جادة بالفعل في طلبي واصفرت عيني بعد أن امتلأت مثانتي، لم أكن راغبة في استخدام ذلك كحيلة!

رد ديفيد بسخرية: طبعًا، طبعًا!!

اغتظت جدًا من كلماته؛ لأنني فعلاً بحاجة إلى قضاء حاجتي. كنت في غاية الحرج لأنني لم أتمكن من الانصراف في كبرياء كما سبق أن قررت، وكنت على وشك أن أبدأ جولة من التوبيخ، إلا أن ديفيد ابتسم قائلاً: هيا اصعدي معي.

صعدنا معًا واتجهت مباشرة إلى دورة المياه ومنها إلى باب الشقة رغبة منى في إثبات أنني كنت جادة فعلاً، فإذا بديفيد يقول:

- هل تحبين أن تبقي لنشاهد فيلمًا معًا؟

وقفت حائرة بين المدخل وداخل الشقة؟ ماذا يعني هذا؟ ماذا يريد مني بالضبط؟ لا، لا أستطيع البقاء ولا أريد البقاء، يجب أن أنصرف فورًا، أليس هذا ما سبق وقررته؟! ثم أجبته قائلة: طيب، لا مانع!!

شاهدنا الفيلم معًا، ثم كان اللقاء في السرير، لقاء اعتبره هو لقاء الوداع؛ لذلك جاء ممتلئ بالإحساس لم ننطق خلاله بكلمة.

أمضيت معه الليلة وفى الصباح ودعت ديفيد بالكلمات التي طالما رغبت في أن أقولها: سوف أتصل بك! وانصرفت من منزله وأنا أكثر عنادًا منه وكبرياء.

يجب عليّ أن أستمر، فلم أعد أشعر بالتعاسة وإنما أشعر بأنني حرة، حرة رغم هذه النهاية المعلنة. أشعر كذلك بأنني مغرمة متجددة بعد أن قطعت شوطًا تجاه الحياة الطبيعية وبعد أن أذهب عنى ديفيد الرجفة. شكرًا يا ديفيد، ولكنني الآن بحاجة للعثور على الحب

الحقيقي. أحسست في هذه اللحظة أنني بحاجة لسماع موسيقى درامية لمواكبة الحدث.

آه! لو تعلموا أهمية هذه الموسيقى وتأثيرها في هذه اللحظة!

لقد خرج ديفيد من حياتي، اعتبرته رجل المرحلة الانتقالية، هكذا قالت لي أمي: قالت لي إنه ليس من الصواب أن تدخلي في علاقة عاطفية عميقة فور انتهاء أخرى بنفس العمق، الأفضل أن تكون هناك مرحلة وسط، يكون الطرف الآخر فيها قادرًا على أن يشفي جراحك ويمهد الطريق إلى الحب الحقيقي.

الحقيقة أن ديفيد لم يخرج من حياتي نهائيًا، فكثيرًا ما أفكر فيه وأتصل به من وقت لآخر، أما ديفيد فبقى صامدًا وأنا واثقة أنه لن يغير رأيه.

يتصل بي ديفيد بين الحين والحين ويدور بيننا الحوار الروتيني المكرر:

يسأل هو: هل يمكن أن نستمر معًا كأصدقاء؟

فأرد عليه قائلة: طبعًا، ولكن هل يمكن أن تستمر لقاءاتنا الحميمية؟

يجيب ديفيد: للأسف، لا.

فيكون ردى: إذن للأسف، لا يمكن لصداقتنا أن تستمر!!

استمرت المكالمات بيننا على مدى أسابيع حتى قررت أن أقبل أن نكون أصدقاء.

التقينا في إحدى الكافيتريات، فهذه هي الأماكن التقليدية للقاء. شربنا معًا مشروب الكاكاو. صحيح أننا كنا من الظاهر نبــدو مثــل باقي الموجودين ولكن ما بداخلنا كان معطلاً، فلم أعد أهتم بالاحتفاظ بديفيد كصديق. ولاحظت أنني لا أرغب أن أحبه، بل أريد الاحتفــاظ به كما تعرفت عليه. لقد كان بالنسبة لي بمثابة الشرنقة التي تحتويني بقوة والتي أنمو بداخلها وأقوى مثل اليرقة. هذا هو ما أحتاجــه أنــا الآن وهذا هو ما لا يريده ديفيد، وبالتالي فقد انصرفت.

قرأت في إحدى النشرات التي تصدرها الصيدليات أن معــدل الانتحار في ألمانيا يرتفع بصورة كبيرة خلال الشهور التي لا تظهر فيها الشمس ويقل فيها الضوء لفترات طويلة خاصة خــلال أســابيع أعياد الميلاد. أنا شخصيًا أجد أن هذا الكلام مقنع جدًا؛ فخــلال أيــام الشتاء يعتبر الشخص نفسه أسير المنزل باستثناء هؤلاء الأشــخاص الذين يفضلون الحركة، فهم يتمتعون بوقتهم خارج المنزل باســتمرار وفى كل فصول السنة. أما باقي الأشخاص فــيمكن اعتبــارهم فــي

مرحلة بيات شتوي، فهم يستفيدون بالكاد في الصباح الذي لا تشرق فيه الشمس: يذهبون إلى عملهم بشكل روتيني وفي المساء يسرعون لشراء احتياجات المنزل ويصلون بشق الأنفس إلى عشهم الدافئ بحذاء مبلل من شدة المطر. هناك يلقون بأنفسهم أمام جهاز التليفزيون ويتمتعون في أفضل الحالات بالدفء الذي يحيطهم به أفراد أسرتهم ثم يروحون في النوم، ربما بدا ذلك للبعض هو أفضل ما يمكن أن يكون عليه حال. إلا أن الأمر ليس كذلك؛ ليس من السهولة أن يجد الشخص أشخاصًا قادرين على احتوائه، خاصة إذا كان يعاني من فراغ داخلي، في هذه الحالة تشكل كآبة الشتاء خطرًا كبيرًا عليه.

أما أنا فقد كنت محظوظة لأن الحالة التي أمر بها قد بدأت مع بداية الصيف. لقد عشت شهورًا مشمسة ومضيئة تمكنت خلالها من أن أفيق.

ومع بداية موسم أعياد الميلاد عدت إلى حالتي الأولى وأخذت أزين شقتي بشكل مبالغ فيه حتى أصبحت تحتوى على ما يكفي أربعة أسواق لبيع سلع أعياد الميلاد. فأنا لا أجيد أعمال الديكور ولكني أكثر من عدد القطع الموجودة في المكان. كنت أرغب أن

يذكرني كل ركن من أركان الشقة بالعيد، لذلك بدأت منذ أول شهر ديسمبر في الاستماع إلى أغاني الأعياد لأشهر الفرق والمغنين، حتى أغنية "مريم العذراء" لفرانك سيناترا.. صحيح أنها ليست أغنية للأعياد ولكني كنت كلما سمعتها أشعر بالهدوء والارتياح. بدأت كذلك بلا توقف في إعداد كعك وبسكويت العيد وإشعال أعواد البخور الواحد تلو الآخر، كذلك بدأت في إعداد قوائم بأسماء الأشخاص والمواعيد المتفق عليها معهم لزيارة أحد أسواق الأعياد.

كم أحب الفترة التي تسبق الأعياد! وكم أحب المدن الكبيرة خلال هذه الفترة! فلا يشبع نظري من تأمل الأضواء التي تتلألأ في كل ركن من أركان مراكز التسوق، لدرجة أنني وجهت خطابًا إلى الإدارة المحلية في المدينة أطلب منهم فيه تخصيص مبلغ لتزيين الشوارع السكنية العادية؛ لأن سكان المدينة لا يقومون بذلك بأنفسهم. المعلوم للجميع أن أعياد الميلاد حدث اقتصادي في المقام الأول ومؤامرة من تجار التجزئة على المستهلك، ففي هذه المناسبة يبرز من يدعي أن بابا نوبل ما هو إلا أحد ابتكارات شركة كوكاكولا.

لا أحد يعرف مضمون هذه المناسبة، واختزل العيد في إهداء الأطفال ألعاب الفيديو. هل يحتاج الشخص للأعياد كمناسبة لزيارة أسرته الكبيرة؟ لا أستطيع أن أستسيغ هذه الآراء الحديثة، فأنا أعشق

الطقوس وأحب تبادل الورد بمناسبة عيد فالنتين، وأحب الرحلات الرومانسية خلال العام. ورغم أنني لست مقتنعة بموضوع الارتباط الأبدي إلا أنني أتمنى اليوم الذي أتزوج فيه لا لشيء سوى للاستمتاع بطقوس الزفاف.

هكذا أسعد بأيام شهر ديسمبر وأتجول في الشوارع المضاءة التي تستهلك كمًا هائلاً من الكهرباء، أهدى أصدقائي قوالب الشيكولاتة على شكل بابا نويل، وأدعوهم كل أسبوع إلى منزلي كي أقدم لهم أنواع الكعك والبسكويت الخاصة بالمناسبة، وأزينها بفروع صغيرة من شجرة عيد الميلاد. هذا لا يعني أنني أشتاق إلى ليلة عيد الميلاد، فهذا اليوم يعتبر آخر أيام الاحتفالات وبعدها ينتهي كل شيء.

ورغم أنني شخصيًا أسعى إلى الهدف بشكل مباشر فإننى أتمنى ألا تنتهي فترة ما قبل الأعياد أبدًا رغم أنني أعرف أنها لا تزيد على كونها مرحلة التمهيد لليلة العيد. لذلك عاهدت نفسي أن أحتفل باليوم كما لو كان آخر يوم، وأن غدًا لن يأتي.

لم يختلف احتفال أسرتي بأعياد الميلاد على مدى السنين، ولم يتسم بأي أجواء للاحتفال رغم ما نبذله من جهد. فكعادتنا كل عام نشارك أنا وأمي وخالتا والدتي المسنتان واللتان تقيمان في منطقة

الرور الصناعية، نشارك كلنا في الاحتفال في منزل جـدتي. نلتقـي جميعًا نحو الساعة الخامسة وندخن بشراهة بينما نؤدي طقوس التحية المعتادة: كيف حالك؟ ما أخبارك؟ وحيث إننا لا نلتقـي كثيـرًا فـإن الحديث بيننا يطول، عشر دقائق أو يزيد، رغم أن كل واحدة منا تبدو كما لو أن ليس لديها ما تحكيه، لأن تفكيرنا جميعًا يكون منصبًا على طبق الكفتة وسلاطة البطاطس التي تعدها جدتي.

بعد العشاء نبدأ مرة ثانية في التدخين ثم نـدخل إلـى مكـان الاحتفال ونتبادل الهدايا سابقين بذلك الوقت المحدد للاحتفال بـساعة كاملة. نتوجه بشغف إلى حجرة الاحتفال المغلقة وما أن يقع نظرنـا على شجرة عيد الميلاد المتلألئة نصيح جميعًا إعجابًا بها. أما أمـي فقد اعتادت أن توجه لجدتي ملاحظاتها ومجاملاتها حـول الـشجرة ومدى نموها، ثم نجلس جميعًا حول الشجرة وننشد بعض أغاني أعياد الميلاد المفضلة لدينا. كلما زدنا ثمالة زاد حماسنا في اختيار الأغاني الأصعب في الأداء، ورغم إمكانية أن نشكل كورالاً نسائيًا لا بأس به إلا أننا كنا نصدر أصواتًا متناقضة ونشازًا؛ فتارة تسرع واحدة منـا وتارة أخرى يرتفع صوت واحدة ثم تتجانس الأصوات مرة أخـرى وفى نهاية كل أغنية تقهقه أمي بخجل وفخر.

ثم نبدأ في تبادل الهدايا بطريقة سريعة وموجهة كما هي العادة في سلوك سيدات عائلة هيرمان. ثم، ثم ينتهي بذلك احتفالنا بـسرعة،

بينما الأسر الأخرى لم تبدأ بعد في إضاءة شجرة عيد الميلاد كي يبدأ الاحتفال. بعد الانتهاء من طقوس الاحتفال نتحول إلى جلسة رجالية لنحل أزرار البنطلون أو الجيب ونخلع حمالات الصدر ونبدأ بعض الألعاب الجماعية ولا مانع من أن يعلو صوتنا خلالها. ندخن جميعًا خلال اللعب بشراهة حتى يرهقني أنا شخصيًا، المدخنة الشرهة، كثرة التدخين؛ أما جدتي فتدخل في سباق مع شقيقتها لاحتساء الخمر من الزجاجة، ثم نبدأ في لعب الورق مقابل مبلغ من المال. في حوالي الساعة العاشرة نشعر بالإرهاق من كثرة التدخين فتحزم كل واحدة منا هداياها وتشكر الآخرين وتنصرف إلى منزلها كي تشاهد التليفزيون أو تلتقي ببعض الأصدقاء.

أعتقد أن احتفالنا لا بأس به ولكنه يفتقد إلى روح الاحتفال التي أتصورها؛ لذلك فقد سبق وقلت: إنني أستمتع بفترة ما قبل العيد أكثر من العيد نفسه.

رغم أن احتفالنا بعيد الميلاد في العام الماضي لم يختلف عن احتفالاتنا المعتادة، إلا أنني كنت قد وصلت إلى أسوأ حالاتي النفسية، فقد أثارني أفراد أسرتي بكلماتهم وأفعالهم المعتادة. فكنت طوال المساء في غاية العصبية وأنا عابسة ومتحفزة، حتى أنني استطعت خلال ساعة واحدة أن أضع علامة أمام ما تم إنجازه من القائمة التي

وضعتها مسبقًا لهذا الاحتفال، إلى هذا الحد أصبحت أعرف تصرفاتنا جميعًا مسبقًا.

ففي الساعة الخامسة وسبع دقائق سوف تتباهى أمي بابنتها الجميلة. في الساعة الخامسة والربع سوف تسألنا جدتي عما إذا كانت قد فقدت بعض وزنها، وقبل مراسم الاحتفال سوف توجه لي خالتاي العجوزتان بعض الأسئلة حول مستقبلي، ثم نسمع كيف أن جدتي قد تفوقت على نفسها في إعدادها لطبق سلاطة البطاطس.

أعرف مسبقًا متى سوف تنتقد أمي أصواتنا أثناء الغناء، كذلك أعرف من سوف يقول عند تبادل الهدايا: إننا كنا قد اتفقنا على ألا نتبادل الهدايا هذا العام. كلما وضعت علامة على أحد بنود القائمة التي أعددتها كدليل على معرفتي المسبقة به، زادت عصبيتي. كنت عند كل هفوة أبدأ مشاحنة تسيل بعدها دموعي مثل الفتيات المراهقات.

تعجبت عندما صارحت أمي بعد عدة أسابيع بما شعرت به من ضيق أثناء الاحتفال فوجدت رد فعلها إيجابيًا جدًا وتفهمت موقفي؛ لأنها عرفت من تجربتها السابقة ما أمر به أنا الآن وهو نوع من عدم التوازن النفسي. وبدأت أمي تشرح لي كيف أنه بإمكاننا أن نغير الطريقة التي نحتفل بها بعيد الميلاد، وبينما هي تصف لي تصورها

أخذت أومئ برأسي موافقة في نشوة وأنا أتصور احتفالاً بمعنى الكلمة، اقترحت أمي أن يكون احتفالنا متنقلاً بحيث نقيم الاحتفال كل عام في منزل واحدة منا؛ نبدأ من عندي أنا ثم تأتي أمي وبعدها جدتي وهكذا. دار هذا الحوار بيننا في شهر فبراير.

خلال الفترة التالية لم أكن متأكدة من أن شقتي الصغيرة الضيقة سوف تتسع لشجرة عيد الميلاد التي توليها عائلتي اهتمامًا شديدًا، شعرت أن الضغط العصبي الذي أعانيه يشبه ضيق قبعة راكب الدراجة البخارية، خاصة وأنني أعانى من حالة شرخ نفسي يتطلب أن يكون لي عش آمن يحتويني، وأحتاج خلال فترة أعياد الميلاد إلى مكان يشمله الدفء والأمان. فذهبت إلى أمي وحكيت لها عن مخاوفي وسألتها:

- هل سيعتبر الأمر عيبًا كبيرًا إذا استغنينا عن احتفال بعيد الميلاد في شقتي هذه السنة؟

ولما لمحت علامات العجب على وجه أمي بادرتها بقولي:

- لا أعنى أن نلغيه تمامًا!! أقصد ألا يكون الاحتفال عندي أنا، أعني: هل يمكن أن تبدئي أنت هذا العام؟ والسنة التالية عندي أنا... وهكذا؟

شعرت بالخجل الشديد فقد كنت أنا من بدأ بفتح فمه للحديث في هذا الموضوع، والآن ها أنا أسحب ذيلي وأنكمش. ولكن ما

جعلني أهدأ هو أننا كنا في مرحلة الإعداد ولم يعرف أحد بالموضوع سوى أمي؛ فقد تفهمت أمي الموقف ومدى احتياجي للعش الدافئ فقالت لي:

- ليست هناك مشكلة يا معذبتي، أبدأ أنا بتجهيز نفسي لهذه السنة، بشرط أن يأتي عليك الدور السنة التالية! وافقت فورًا وشعرت بارتياح شديد. فالسنة القادمة سوف تكون مختلفة تمامًا، ستكون السنة الحالية التي ركلتني وأساءت إليّ قد انتهت إلى غير رجعة.

يشاركني نيلسون في النظرة إلى فترة ما قبل العيد ويشترك معي في الرغبة في الحفاظ على هذه المرحلة، إلا أنه مضطر للاحتفال هذا العام خاصة وأن مساحة شقته تسمح بذلك، وكذلك لأنه يحتفل مع زوجته كاترين هذا العام لأول مرة وهما معًا بعيدان عن أسرتيهما. اقترح عليّ نيلسون أن أشاركهما الاحتفال بقوله:

- يمكنك أن تحتفلي معنا إذا أردت، فليس لك أصدقاء غيرنا.

أجبته بقولي: شكرًا، يبدو أنك نسيت أن لديّ أسرة!

اعتدنا أنا ونيلسون منذ أربع سنوات أن نلتقي يوم ٢٤ ديسمبر ظهرًا كي نشترى آخر مشتريات العيد، ثم يعود كل واحد منا إلى

منزله كي يغلف الهدايا التي اشتراها من كتب ورابطة للعنق وسي دي أو بطاقات سابقة السداد، لنهديها لأحبائنا.

ثم ألتقي بنيلسون مرة أخرى ونتبادل الهدايا قبل أن يذهب كل منا إلى أهله للاحتفال معهم. بدأنا منذ السنة الماضية ننشد بعض أغاني العيد تحت شجرة أعياد الميلاد في منزله، إنه شيء رائع ويبعث على الراحة.

أما هذا العام فلم ألتق بنيلسون وقت الظهر لشراء الهدايا؛ لأنه كان قد وعد زوجته كاترين أن يشتركا في تزيين شجرة عيد الميلاد، أعتقد أنه أمر رومانسي ولكنه غير اقتصادي بالمرة، فلو أنني أمتلك شجرة لعيد الميلاد لبدأت في تزيينها في نهاية شهر نوفمبر، لكن للناس فيما يعشقون مذاهب، لذلك اتجهت حوالي الساعة الرابعة إلى منزل نيلسون وكاترين. فتحت لي كاترين الباب واستقبلتني بالأحضان وهي تقول: شكلك رائع، وكأنك ذاهبة إلى احتفال تسليم جائزة الأوسكار.

أعتقد أنها محقة في ذلك؛ فقد اعتدنا أنا وعائلتي أن نخفي غياب شعورنا بفرحة الاحتفال وراء ملابس لامعة ومزركشة. لذلك فقد تزينت بشكل مبالغ فيه تمامًا مثل فتيات المواني الساقطات وارتديت فستانًا باللونين الأسود والذهبي. استقبلني نيلسون قائلاً:

أهلاً يا إيرما لا دوس. أقسم لك لو أنك كنت ترتدين حذاء مناسبًا لكنت التقطت لك صورة تحت شجرة عيد الميلاد؟؟ كان بهذا يشير طبعًا إلى حذائي الرياضي الذي أرتديه - فبادرته بقولي:

- ممكن تسكت خالص، معي حذاء سهرة لامع ويبرق للاحتفال، ولكني لا أستطيع أن أقود السيارة وأنا أرتديه.

ثم وضعت الحقيبة التي ملأتها بهدايا ساذجة على المائدة.

أعدت لنا كاترين الشاي بالقرفة وأحضرت بعض الكيك، ثم انصرفت إلى المطبخ كي تترك لنا المجال لنؤدي طقوس احتفالنا، تأثرت كثيرًا من تصرفها وشعرت بشيء من تأنيب الضمير، لاحظ نيلسون ذلك فقال لي:

- اهدئي، فهي التي صممت أن نقيم أنا وأنت احتفالنا المصغر على انفراد.

بادرته بقولي:

- هل كنت تنوى إلغاء احتفالنا؟

ابتسم نيلسون بشماتة وسحبني إلى الغرفة التي تضم شجرة عيد الميلاد التي عرفت منها ذوق كاترين، وتعجبت من عدم وجود بعض العلب الفارغة ضمن زينة الشجرة كما اعتاد نيلسون أن يفعل!!

بدا علينا الاسترخاء أثناء تناولنا الشاي وسماع موسيقى أعياد الميلاد، إلا أنني كنت بداخلي في غاية التوتر لأني كنت أريد تقديم الهدايا فورًا، ولما رأى نيلسون توتري سألني:

- شاي ثان؟

نظرت له نظرة غاضبة ثم رجوته:

- دعني أقدم الهدايا لو سمحت، لو سمحت!!

كانت هديتي لنيلسون عبارة عن آلة لدمج أوراق اللعب، فرح جدًا بهذه الهدية؛ لأننا أنا ونيلسون نستمتع بدمج أوراق اللعب أكثر من لعبها.

كان شكل الآلة رائعًا، فهي مكسوة بالجلد وتعمل كهربائيًا وتصدر صوتًا عاليًا. أعتقد أنها قطعة من لاس فيجاس وضعتها كهدية تحت شجرة نيلسون.

كانت ثاني هدية أهديها لنيلسون عبارة عن بطاقة مدفوعة مسبقًا لجلسات مساج.

فرح نيلسون جدًا بالهدايا وأراد أن يجرب الآلة الجديدة فورًا إلا أنني منعته من ذلك؛ لأني لم أكن أريد أن أنتظر كي أرى الهدية التي اختارها لي نيلسون.

قدم لي نيلسون هدية مغلفة بعناية مما يؤكد أن كاترين هي التي قامت بهذه المهمة، ولكنني لم أرد أن أثير هذا الموضوع، لن يكون الأمر (أكل وبحلقة) كما يقول المثل.

قدم لي نيلسون هدية وهي نسخة حديثة من لعبة *"Trivial Pursuit"* وهي لعبة المعلومات التي سادت خلال التسعينيات وقال لي:

- نحن جيل التسعينيات، أليس كذلك؟

فهمت فورًا ما يرمى إليه نيلسون؛ حيث إننا نعشق هذه اللعبة ولكننا نصاب بخيبة الأمل بعد كل دور نلعبه بسبب ضحالة معلوماتنا وصعوبة الأسئلة. إلا أن نيلسون يتوقع لنا نتائج أفضل بعد أن تم، ضمن قواعد اللعبة الجديدة، تحديد الفترة الزمنية التي تقع الأسئلة في مجالها. سعدت جدًا بهذا التغيير لأنه ينم عن ذكاء. أردت أنا أيضًا أن أفض الهدية وأبدأ في اللعب مع نيلسون فورًا، إلا أن الوقت قد تأخر وأصبح من الضروري أن أتوجه إلى احتفال الأسرة المتنقل. شكرت نيلسون شكرًا جزيلاً من كل قلبي وتوجهت إلى المطبخ كي أحرر كاترين من محبسها، عانقتها وهمست في أذنها: اللفافة في غاية الروعة! ثم أسرعت بحذائي الرياضي في طريقي إلى الاحتفال.

شعرت ببعض التوتر وأنا أتوجه إلى موقع جديد للاحتفال، ولكن قلبي كان يدق دقات مرحة. صعدت درجات سلم منزل أمي بحذائي الذهبي ذي الكعب العالي، فتلقيت تهنئة بالعيد بصوت أمي المرتفع بينما تفوح من فمها رائحة الخمر. هدأ قلقي عندما وجدت أمي نفسها في حالة قلق.

دخلت إلى المطبخ الضيق حيث وجدت خالتيّ العجوزتين وجدتي وقد بدأن في احتساء الخمر، وأخذن يضحكن وقد احمرت وجناتهن. جلسنا جميعًا حول مائدة المطبخ الصغيرة التي كنت منذ حوالي ستة أشهر أجلس حولها وأحملق في فنجان القهوة عازفة عن تناول قطعة التوست التي أعدتها لي أمي. سرت في جسمي فجأة حرارة مثل التي شعرت بها أثناء نوبة الخوف التي مررت بها، إلا أنها هذه المرة حرارة سعادة؛ فأنا راضية ومستعدة لتناول مشروب العيد.

زينت أمي شقتها بطريقة فخمة، على ما يبدو أن عصا النجاح السحرية قد أصابتها هي الأخرى، لدرجة أنها لم تنس قطتها الصغيرة فوضعت حول رقبتها شريطًا أحمر. حتى السلم الصغير الذي تستخدمه أمي في المطبخ لتصل إلى الأرفف العليا زينته كما لو كان مذبحًا في كنيسة. ما أكثر ما يمكن اكتشافه في هذا المكان!!

أشعر ولأول مرة منذ سنوات أنني طفل صغير سعيد بقدوم العيد.

كان المطلوب من كل واحدة منا – كما هو الحال في الحفلات – أن تحضر معها أحد لوازم الحفل. أحضرت خالتاي المشروبات التي يجيدان اختيارها، وأعدت جدتي سلاطة البطاطس التي تتفوق في صنعها، أما أنا فقد أعددت نصوص أغاني الاحتفال. كنا في كل عام نستخدم نسخًا متفرقة من أهم أغاني المناسبة. ولما لم تكن أي واحدة منا تجيد قراءة النوتة الموسيقية، فقد قررت هذا العام أن أطبع الأغاني بخط احتفالي جميل وأضعها في حافظة حمراء مزينة بأجراس صغيرة وبعض أوراق شجرة عيد الميلاد. سعدت السيدات بالفكرة وبدأنا الغناء، كنا مثل الكورال الحقيقي. بدت الشجرة التي أعدتها أمي في غاية الروعة، وفى هذه المرة أثنت جدتي على نمو الشجرة.

بدأت كل واحدة منا في فتح الهدايا التي تلقتها، بينما نحن نختلس النظر إلى وجوه الجالسات كي لا تفوتنا تعبيرات الوجوه عند فتح الهدايا.

كانت هدية أمي لي عبارة عن إطار بداخله صورتنا معًا عندما كنت في سن الخامسة، نظرت إلى الصورة ودمعت عيناي وكذلك

أمي وجدتي. أما خالتاي فقد أخذتا في شرب الخمر وهما تتأملان سيدات آل هيرمان أثناء بكائهن.

ثم حدث شيء لم يحدث من قبل؛ فبدلاً من أن نخلع حمالات الصدر بدأنا حوارًا تلقائيًا، جلسنا حول مائدة حجرة المعيشة، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث حول أحوالنا وعن سعادتنا بالاحتفال في منزل أمي، وأخذنا كذلك نحكي عن الأمور السيئة التي مرت بنا خلال العام الذي أوشك على الانتهاء. اعترفت أمي أنها كانت هي نفسها تعاني أثناء الفترة التي أمضيتها معها من نوبات قلق خوفًا عليَّ وهي ترى ابنتها تعانى أمام عينيها. تأثرت جدًا بهذا الكلام، فقالت لي أمي وهي تضمني إلى صدرها:

- أحبك قوى يا بنتي يا كبيرة يا حلوة.

لقد كان إذن أمرًا جيدًا أننا لم نخلع حمالات الصدر. ثم أخذت خالتي تعطس خمس مرات متتالية وأحمر وجهها، بدا الأمر في أوله مرحًا ثم انتابنا القلق عندما قالت: حساسية من القطط!! خاصة وأنها سيدة في الثمانين من عمرها، فقالت لها أمي: لماذا لم تنبهيني إلى ذلك من قبل؟

تمتمت خالتي بأنها لم تكن ترغب في تعكير جو الاحتفال، وفجأة بدأنا في الاستعداد للانصراف. يجب أن نخرج من هذا المكان

إلى مكان آخر، ورغم التوتر الذي ساد المكان إلا أننا وجدنا الموقف رائعًا. قسمنا أنفسنا إلى فريقين وركبنا سيارتين إلى منزل جدتي، فإذا بنا نجد أنفسنا في ذات المكان الذي اعتدنا أن نحتفل فيه كل عام في مثل هذا الوقت، بينما الجميع يخلع حمالات صدورهن ويغني نظرت إلى جدتي وغمزت لها بعيني؛ لقد كانت أثناء ركوبنا السيارة في الطريق إلى هنا تشكو من أنها ليست مستعدة لاستقبال ضيوف وأن منزلها مقلوب رأسًا على عقب، أما الآن وهي ترى أحباءها حولها فقد بدت عليها السعادة كما بدت عليّ أنا شخصيًا. تنفسنا بعمق كل على طريقته وأخرجنا العملات المعدنية من حقائبنا لنبدأ اللعب؛ لقد حضرنا إلى هنا لنقوم بهذه المهمة.

فكرت قبل رأس السنة أن أكف عن استخدام أقراص الاكتئاب التي أتناولها؛ فلم يعد هناك سبب في الاستمرار عليها. لقد وصفت لي الدكتورة كليفه أن أستمر على هذا الدواء لمدة ستة أشهر، وقد مرت بالفعل ستة أشهر، وأشعر أنني في حالة جيدة ولم أعد أصاب بنوبات خوف ولا أعيش في قلق بعد أن رتبت حياتي.

بدأت العمل على فترات متفاوتة لدىّ بعض شركات إدارة الدعاية، واختفت مشاكلي العاطفية باستثناء بعض الجذب والشد، واختفى غطاء الحزن عن العيون. وبدأت أشارك إيجابيًا في الحياة

اليومية. يجب أن أكون مستعدة أن أستغنى عن الأقراص، فهل أنا مستعدة؟ هل أنا سعيدة؟ الحقيقة لا.

ولكن السعادة ليست حالة مستديمة، فالسعادة هي الرغوة التي تغطى ماء الحمام الدافئ، ولكن الحمام الدافئ يكون بنفس الروعة بدون رغوة. ولكن هل ماء حمامي دافئ؟ ربما أشعر أنني أتوه في التشبيهات والمجازات التي أستخدمها. لنبدأ مرة أخرى.

لا أشعر بالسعادة ولكنى أيضًا لا أشعر بالتعاسة، أنا فقط على ما يرام.

قررت أن حالة على ما يرام لا تتساوى مع حالة السعادة التي تجعلني لا أتناول الدواء. لذلك قررت أن أستمر في تناول الدواء حتى الربيع القادم؛ لأني أعتقد أنه فصل مناسب للامتناع عن تناول الدواء؛ وذلك منعًا لظهور أعراض جانبية كما هو وارد في نشرة دواء علاج الاكتئاب. إذن أمامي ثلاثة أشهر حتى يتحول الأمر من حالة على ما يرام إلى حالة سعادة.

المعلوم لدىّ الجميع أن احتفالات أعياد رأس السنة تحمل معها بعض المشاكل، وخاصة هذا العام بالنسبة لي؛ فليس لدىّ صديق أتبادل معه القبلات لحظة قدوم العام الجديد.

رأس السنة هذا العام له طابع خاص؛ لأنني في حاجة إلى وداع العام المنصرم بهدوء وتدبر؛ فبيني وبينه حساب ما زال مفتوحًا، ويجب أن يسدد بأسلوب حكيم ورصين.

لذلك جاء قراري أن أحتفل هذا العام برأس السنة بمفردي، إلا أن نيلسون لم يوافق على ذلك، فأخذت أحاول إقناعه بعصبية شديدة بوجهة نظري: كانت بيني وبين العام الحالي علاقة خاصة جدًا، صفعني على وجهي بقوة وبصق في وجهي.

قال نيلسون:

- إذن فهذا أدعى أن تودعيه باحتفال تركلينه فيه في مؤخرته.

- أنت لا تفهم الوضع، أعتقد أن هذا العام كان يريد أن يوصل لي رسالة معينة، يريد..، أعني أنه يريد أن ينقذني.

- ينقذك بأن يصيبك بصدمة عصبية وحالة اكتئاب شديد؟

- ربما بدا ذلك جنونًا، ولكن يبدو أنه أراد أن يصفعني بقوة؛ كي أصل إلى الاقتناع بأنه ليس بمقدوري أن أسيطر بصفة مستمرة على كل شيء.

رغم تردد نيلسون إلا أنه بدأ في تفهم موقفي، فقلت له:

- طبعًا أنا لا أنوي قضاء الليلة في احتساء منقوع النبيذ، كل ما هنالك أنني أريد أن أكون وحدي وقت انتهاء عام وقدوم عام جديد، وأن أقبل الدرس الذي تلقيته، بل وأن أسعد في ذات الوقت

بفرصة جديدة وعام جديد. أعتقد أنك ستتصور يا نيلسون أنى أشبه ربة منزل اعتادت مشاهدة قناة أسترو(*).

رد نيلسون قائلاً: لا طبعًا ولو أنك تشبهينهم. أنا فاهم قصدك, ولكن تحبين أن تشاركي في حفل بعد منتصف الليل؟

قلت له: لسه مش عارفة ومش متأكدة ماذا سيحدث لي لمّا أنتهي من مراسم الوداع والاستقبال. خلينا نشوف! ولكن مش عارفة أروح فين!

الواقع أنى أعرف أن ديفيد سوف يقيم حفلاً في هذا اليوم ولكن لا أعرف أصدقاء ديفيد، ولا أعرف أيضًا إذا كان من الذكاء أن ألتقى بديفيد في مثل هذا الموقف المشحون بالعواطف وفى يوم رأس السنة بالذات.

جاء صوتي واضحًا حتى بدا كصوت ربة منزل منحرفة المزاج؟

- ساعتها سوف أقرر.

ثم جاء يوم رأس السنة، ولم أحتفل به وحدي، فقد قررت أن تكون صديقتي أننا معي. فهي أيضًا لم تصفِّ حسابها مع العام

(*) قناة أسترو: هي قناة مخصصة للاستشارات الحياتية في موضوعات الحب والصداقة والحياة العملية ... إلخ.

المنصرم؛ لذلك خلعت من على شقتي رداء الاحتفال بعيد الميلاد وكسوتها برداء رأس السنة: مثل أوراق الزينة المزركشة وخصلات من الورق الملون وقصاصات نشرتها في أنحاء الشقة، ثم أعددت لنفسي ملابس تليق بالمناسبة. أهم ما فيها أنني اشتريت ملابس داخلية حمراء جديدة، فهناك عادة إيطالية تقول: إنك لا بد أن تستقبل العام الجديد مرتديًا ملابس داخلية حمراء؛ لأن ذلك يجلب الحظ. المهم أن تكون جديدة ولم تستخدم من قبل. لم يفتني هذه المرة أن تكون الملابس الداخلية جديدة؛ لأني في العام الماضي ارتديتها مستخدمة. وقد لاقيت ما لاقيت من جراء ذلك. لم أنسَ كذلك أن أشترى لصديقتي "أننا" ملابس داخلية حمراء جديدة. ربما لم تكن تعرف هذه العادة الإيطالية من قبل. ليس من المعقول أن أتركها تجري في اتجاه السكين الحادة، خاصة اليوم.

ولما كانت رأس السنة حدثًا مهمًا بالنسبة لنا فقد قررنا أن نمتع أنفسنا قدر الإمكان؛ فأعددنا الشراب الخاص بالمناسبة مستخدمين نوعًا متواضعًا من الشمبانيا، ووضعنا على شرائح الخبز بعض الزبد والكافيار، شعرنا وكأننا روسيات ثريات ونحن ندخن السجائر الحريمي المزركشة.

كنا نحن الاثنتان في غاية التوتر لاعتقادنا أن العام الذي سينتهي اليوم هو السبب فيما عانينا منه وأننا الآن نبدأ صفحة جديدة،

فسعادتنا سوف تأتي محمولة على أكتاف السنة الجديدة. وبعد تناول الطعام قررنا أن تختلي كل واحدة منا بنفسها لبعض الوقت. عقدت النية على أن أكتب خطابًا للعام القديم ثم أتخلص منه ومعه بعض الأشياء المنحوسة بالحرق. أما العام الجديد فسوف أوجه له دعوة وأطلب منه بعض الطلبات، ولكنى سوف أراعى ألا يشعر بأنني أمارس عليه ضغطًا، ثم أقوم بإلقاء هذه الرسالة من الشرفة، استحسنت أننا هذه الفكرة بل ووجدتها رائعة.

جلسنا أنا وأننا على الأريكة وبدأنا نكتب بينما نحن نسمع أغاني المطرب التون جون. بدا منظرنا مثيرًا للسخرية، ولكننا أخذنا الموضوع مأخذ الجد ولم نتبادل النكات بل أخذنا نكتب في حماس بينما ألسنتنا مضمومة في ركن فمنا. بدا الأمر كما لو كنا أطفالاً في المرحلة الابتدائية أثناء حصة الإملاء.

بعد أن انتهينا من الكتابة قرأت كل واحدة منا للأخرى ما كتبت وجاء المضمون متشابهًا. فقد توجهت كل واحدة منا بالشكر للعام القديم على الدرس الذي لقنه لها، وأكدنا له أننا استوعبنا الدرس تمامًا واستأذناه في الانصراف.

وفي نهاية خطابي فعلت مثل أطفال المدارس الذين يعاقبون بالبقاء بعد انصراف باقي التلاميذ؛ بأن كتبت للعام القديم:

"وفي النهاية أرجوك أن تبول على نفسك"، أعتقد أنــه ســوف يفهم ما أقصد؛ لأنه سوف يسمح لي بدعابة بسيطة.

أخذنا نطرقع في زهو بكعوب أحذيتنا علــى أرض الطرقــة الخشبية حتى وصلنا إلى الشرفة بينما الموسيقى ما زالت مـسموعة. بدَونا أنا وأننا كما لو كنا ساحرتين شريرتين أنيقتين تقفان أمام شواية اللحم؛ فبعد أن أشعلنا الفحم بحرفية وتأججت النــار ألقينــا رســالتينا وسط اللهب، ثم ألقيت ببطاقة التهنئة التي أرسلها لي فيليب في عيــد ميلادي الخامس والعشرين؛ لأنها كانت تحمل صورة لنا معًا نفتعــل فيها السعادة. ألقيت كذلك بصورة لديفيد في النار تبعتها عبوة أقراص الدواء التي أتناولها، وفي النهاية ألقيت تقرير عيادة الطــوارئ. لــم يساورني القلق عندما شعرت أن إحساسي الآن أقل مما كنت أتصور أن أكون عليه، ولكن يبدو أن هذه هي مـشكلتي فأنــا أفتقــر إلــى الإحساس بنفسي. ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا أنا وأننا نرتعد من البــرد، فدخلنا إلى الحجرة ونحن نقول لأنفسنا: سوف يسير كل شيء على ما يرام، وليس من الضروري أن نرفع أيدينا بحماس إلى السماء.

جلسنا على الأريكة وشربنا من المشروب الذي قمنا بإعــداده، إلا أننا كنا في حيرة: ماذا نفعل في العشرين دقيقة الباقية حتى مولــد العام الجديد؟ إذا كنت من سكان المدينة فلن تكون في حاجة إلــى أن

تنظر إلى ساعتك كي تعرف موعد ميلاد العام الجديد، يكفيك ما يغطي السماء من صواريخ وألعاب نارية.

بينما الألعاب النارية تملأ السماء جلسنا نحن الاثنتان صامتتين نتأمل بعضنا البعض. وفجأة كما لو كنا قد أفقنا من غيبوبة أخذنا نتعانق ونقرع كأسينا، ثم خرجنا إلى الشرفة لمشاهدة سماء المدينة وقد غطتها الألعاب النارية ونحن نصيح: مرحبا أيها العام الجديد ثم ألقينا برسالتينا اللتين تحملان أمانينا ووعودنا وثقتنا في عام مجهول تمامًا بالنسبة لنا، ألقيناهما إلى الشارع فاستقرتا على الرصيف، كم أتمنى ألا يعثر أحد على هذه الرسائل! يتصور البعض أثناء احتفالات رأس السنة أن الحرب قد اندلعت؛ فالسماء يغطيها الدخان بينما يظهر بين الحين والحين بعض الشرر الأبيض والأحمر الذي يشبه البرق مصحوبًا بصوت بانفجار. سألت نفسي: هل يواسي الناس أنفسهم أثناء الحروب بأن يتصوروا أنهم في احتفال رأس السنة.

أشعلنا بعض الصواريخ الصغيرة وتبادلنا رمي الورق اللامع على بعضنا، ثم أشعلنا صاروخًا وضعناه على المائدة أمامنا. ولما كان هذا أقصى ما يمكن أن يسعدنا من الألعاب النارية فقد دخلنا بعد أن جاءنا العام الجديد المنقذ الذي طرد العدو، وسوف نعيش من الآن فصاعدًا في مملكة محررة.

فرغنا من الشرب وحاولنا أن نلعب لعبة مشتركة إلا أننا فشلنا، فألقينا طريقة الاستخدام في سلة القمامة، ثم بدأنا نغنى الكاريوكا ونلعب بالبلاى ستيشن، فجلسنا مثل دجاجتين القرفصاء أمام جهاز التليفزيون وأخذنا نغني أغنية الأب والابن لأنها سهلة وإمكانية الخطأ فيها قليلة. ثم ضقنا بهذا فأخذنا نتمايل بالميكروفون مثل نجوم الروك ونغنى أغاني الثمانينيات من القرن الماضي إلى أن وصلنا إلى أغنية "٩٩ بالونة" فرفضت أن أغنيها لأن سمعتي لا تسمح بذلك. وبعد أن كررنا عددًا من الأغاني أمام الميكروفون تعبنا جدًا فجلسنا ونحن نتصبب عرقًا وقد احمرت وجنتانا.

قالت أننا: وبعدين؟! الساعة الآن الثالثة صبحًا، وحيث إننا قد تشبعنا بالأدرينالين فلا يمكن أن نكتفي بهذا الاحتفال!

ترددت وأنا أقترح عليها:

- هيا بنا نذهب إلي حفلة ديفيد.

سألتني أننا: أنت متأكدة؟

فكرت قليلاً لأني لست متأكدة، ولكنى في أشد الحاجة إلى سماع الموسيقي ورؤية الناس وأن أحتفل بحريتي حتى لو كان ذلك مع ديفيد في مكان واحد.

لذلك استجمعنا ما تبقى فينا من طاقة وانطلقنا إلى هناك.

كانت شقة ديفيد مزدحمة ولكن ليس بالقدر المزعج، وهذه هي الميزة في احتفالات رأس السنة؛ فبعد نصف الليل تجد الشباب يتنقل كالرحالة من حفل إلى آخر للبحث عما هو أفضل. رأيت ديفيد فاتجهت نحوه لأتمنى له عامًا جديدًا سعيدًا، أسعده وجودي وضمني إليه ثم صاح في أذني: أود أن أراك ترقصين الليلة يا آنسة.

كان ديفيد هو الذي يتولى بنفسه الـ **DJ** أثناء الحفل – لذلك لم يشرب وبقي يقظًا طوال الوقت – أجبته بقولي:

– انتظر قليلاً حتى ألتقط أنفاسي!

ثم قدمت له صديقتي أننا فحياها بهدوء ثم انشغل بشيء آخر.

اختليت بنفسي في دورة المياه كي أختبر أحاسيسي ولكني احتفظت بهدوئي فالأمور تسير على ما يرام، من الواضح أن العام الجديد يبذل جهدًا منذ البداية. أثناء ركوبنا التاكسي أنا وأننا استعدنا وعينا بعد الحماس الهادر الذي بذلناه في الغناء فكان من الضروري أن نشرب مرة أخرى كي نشعر بالدفء، وبعد قليل كنا في أحسن أحوالنا بل وبدأنا نرقص، كنت أرقص فعلاً وأهز جسمي مع كل رقصة بالشكل الصحيح وسط حلبة الرقص المرتجلة. شاركت الجميع

الرقص، سواء كان الشاب جميلاً أم قبيحًا، ثم أخذت أتبادل القبلات مع الشاب الواقف بجانبي والذي لم أكن أعرفه، شعرت كأني مراهقة لأني حتى لا أعرف اسمه. ثم دخلنا إلى دورة المياه حيث ضمني إليه بجانب حوض المياه، ساعتها تذكرت ملابسي الداخلية الحمراء الجديدة وشعرت بالسعادة، ولما بدأ الشاب يقترب مني أكثر شعرت أن الأمر لا يعدو أن يكون تصرف مراهق فأبعدته عني وقلت له بعينين لامعتين:

- شكرًا، لقد أمضينا وقتًا جميلاً، ولكني سأنصرف الآن؟ أتمنى لك سنة سعيدة؟

ثم انصرفت وتركت ديفيد يتولى تتابع الأغاني، بينما أننا نتحدث مع كل من تقابله دون معرفة سابقة. تبادلت معها القبلات من خلال رسائل المحمول وخرجت عائدة إلى منزلي؛ فقد كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف صباحًا وبدأ ضوء الفجر ينير السماء، بينما كانت مدينتي هادئة جدًا فإن الشباب الذين كانوا أكثر حماسًا للألعاب النارية قد شربوا حتى الثمالة وذهبوا ليخلدوا إلى النوم.

لم يسمع في الشارع سوى صوت حذائي يدق على الرصيف حتى شعرت أنني أشبه بطلات الأفلام الألمانية مثل هيكة ماكاتش(*)

(*) هيكة ماكاتش: (١٩٧١) ممثلة ومغنية ألمانية شهيرة.

وهي تخرج مسرعة من إحدى عمارات برلين القديمة بعد أن صارحت يورجين فوجل[*] بحبها وتشعر بسعادة بالغة وملؤها الأمل.

كان عامل الحانة التي تقع بجانب منزلي قد بدأ في تنظيف المكان فابتسم لي وتمنى لي عامًا سعيدًا.

قلت في نفسي: لقد بدأ فعلاً عامًا سعيدًا، أيها الرجل الطيب.

ورددت له التهنئة ودخلت إلى منزلي.

يبذل العام الجديد جهدًا كبيرًا، معي، كما كنت أنا متسامحة معه. فبرغم ارتفاع إيجار الشقة التي أسكن فيها إلا أنني لم أحمله الذنب في ذلك ولا حتي ذنب تركي عملي في الحانة. ورغم كل ذلك فصحتي في تحسن لدرجة أنني لم أقم بزيارة طبيبتي النفسية الدكتورة كليفه منذ عدة شهور؛ فهي في إجازة وضع وبديلتها لا تعنيني كثيرًا، ثم إنني لست في حاجة لها؛ لأني أصرف أقراص علاجي بروشتة من طبيب الأسرة. أما جلسات العلاج لدىّ آنيت فإني أذهب إليها كل أسبوعين وفي هذه الأثناء لم يظهر على عقلي أي أعراض. تمكن العام الجديد بعد مضيّ عدة أسابيع أن يحرز هدفًا فقد استطاع أن يوفر لي وظيفة جيدة جدًا.

(*) يورجين فوجل: (١٩٦٨) ممثل ومغنٍّ وكاتب سيناريو ومنتج سينمائي ألماني.

اتصلت بي الوكالة التي كنت أعمل بها في الماضي وطلبت مني أن أعود للعمل ولو بصورة مؤقتة في أحد المشروعات كبداية، وجدت أن هذا الطلب يعتبر نوعًا من الوقاحة، أليست هذه هي نفس الوكالة التي سحبت البساط من تحت قدميّ وتسببت فيما أصاب دماغي. جاءت مقابلتي مع رئيسي السابق جيدة جدًا؛ فقد أسرف في إرضائي لأنه يعرف أنها الطريقة التي يمكن بها أن يكسبني.

طلبت منه مهلة للتفكير وحددت مرتبًا مرتفعًا. ويا للعجب، لقد وافق على الطلبين.

أبلغته بعد مرور ساعتين فقط بموافقتي على العرض، يبدو أني لم أتعلم كيف أثير اهتمام من يتعامل معي.

تم تكليف الوكالة التي أعمل بها بإعداد احتفال بمرور خمس سنوات على افتتاح قناة أطفال في التليفزيون، لذا يجب أن يكون الاحتفال لائقًا بمناسبة مرور خمس سنوات مع الأطفال الصغار؛ طلب مني أن أعد برنامجًا يتضمن ألعابًا كثيرة وأن أبتكر وجبات مجنونة.

سعدت جدًا عندما خصص لي لإنجاز هذه المهمة مكتبًا خاصًا لأعمل فيه مع زميلي المفضل ماكس، الذي يعمل أيضًا لدىّ الوكالة بشكل مؤقت.

كانت لنا معًا تجارب سابقة في بعض الاحتفالات تمكنّا خلالها من تهدئة بعض الحاضرين الذين فقدوا أعصابهم. أما الآن فقد شعرنا بأننا مديران حقيقيان في مكتبنا الخاص نستطيع أن نعد البرنامج على نحو ما نرى نحن.

لم ننجز خلال أول يومين شيئًا سوى الحديث في أشياء بلهاء، فقد تناقشنا كثيرًا في طريقة نرد بها على المكالمات التليفونية التي سوف نتلقاها من برنامج الأطفال. فكرنا في أن نتجاهل ذكر اسم الوكالة التي نعمل بها، ربما استطعنا أن نستقل فيما بعد عن الوكالة ويتم تكليفنا بأعمال خاصة بنا.

فكرنا أيضًا أن نقوم بطبع كروت للتعارف خاصة بنا، إلا أن مديري ستيفان وجد أن كتابة اسمي " كارو هيرمان" ووظيفتي "مديرة برامج السمر" ليس بالأمر الجيد، كما وجد أنه ليس من الضروري أساسًا عمل كروت تعارف للعاملين في البرامج المؤقتة. خاب أملي أنا وماكس وقررنا أن نقوم بأنفسنا بصناعة بطاقات تعلق على الصدر كالتي يحملها العاملون في المعارض. أمضينا أنا وماكس عدة أيام في جمع أفكار مرحة وكان من حسن الحظ أن أفكارنا جاءت متقاربة؛ فقد اتفقنا على ألا نستهين بذكاء الأطفال وأن نسمح لهم ببعض الدعابات التي يقوم بها الكبار. تصورت مثلاً أن يكون من

الطريف أن يتجشأ شخص كبير بصوت عالٍ ثم يدّعى أن الطفل الصغير هو الذي فعل ذلك؛ أنا متأكدة أن الطفل سوف يضحك على ذلك بشدة.

رأينا كذلك أنه من حق الطفل أن يعلن عن سخطه إذا كان هناك سبب لذلك؛ فإذا ضاق طفل بزميله في الحضانة وثار عليه، فما المانع أن يعبر عن ذلك.

كذلك يمكن السماح للطفل أن يختار ملابسه؛ فإذا أراد المراهقة. تبار ما سوف يكون - أن يذهب في أول يوم دراسي مرتدياالمراهقة. وبرمان والبوت الكاوتش، فلا مانع عندي ولن أعارض ذلك!! يبدأ الحذر في رأيي فيما يخص الملابس مع بداية فترة المراهقة. ولكن هذه ليست مشكلتنا أنا وماكس، الآن تركيزنا سوف ينصب على المرحلة السنية بين خمس وعشر سنوات.

بدأنا نقدح زناد أفكارنا ونجمع أفكارًا لبعض الألعاب، وأعددنا في البداية قائمة بالأشياء التي اتفقنا على استبعادها من الاحتفال، فلا حلول وسط في ثلاثة أشياء:

- المهرج.
- الحيوانات الأليفة.

- رسم وجوه الأطفال في صورة مهرج أو حيوان أليف.

كانت الفقرة الأولى في الحفل هي تقليد ومحاكاة الأهل. قررنا جمع عدد كبير من ملابس الكبار كي يتنكر بها الصغار ويستمتعوا بتقليد أهلهم، ثم نقوم بالتقاط صور عائلية يتولى فيها الأطفال دور الأهل. أعددنا فريقًا لموسيقى الروك وزودناه بآلات حقيقية كي يقيم أربعة أو خمسة أطفال حفلاً بموسيقى سابقة التسجيل ويقوموا بدور نجوم عالميين لهم جماهير غفيرة. أعجبت جدًا باقتراح ماكس عقد مسابقة في التجشؤ أو التعرف على صاحب الحذاء من خلال رائحته.

فكرت أنا في تحويل لعبة "صَلِّح" إلى لعبة "صلح" والفائز فيها هو من يصيح بأعلى صوت، بدا الانزعاج على وجه ماكس وهو يقول: ده أمر مزعج جدًا؟ قلت له: وهذا ما أريده بالضبط!

رغم أن ماكس شاب هادئ، ذكي ومرح إلا أنه بطيء بعض الشيء، وإن كان هو يعتبر ذلك نوعًا من الاسترخاء. وحيث إننا نكوِّن الآن معًا فريق عمل واحد وحيث إنني أريد العمل بروح الفريق فقد أقلمت نفسي على ذلك.

وبالفعل كنا نجلس في المكتب ثلاثة أيام في الأسبوع ونبتكر معًا كل ما يتعلق بخيال الأطفال، وعندما يشطح خيالي وأبدى رغبة

في أن نقدم للأطفال كمية صغيرة جدًا من المشروبات الكحولية يقوم ماكس بإعادتي إلى عقلي ويقول:

- أتصور يا كارو أنه ليس هناك أجمل من رؤية، طفل في الخامسة وهو سكران، ولكني في الحقيقة أخاف من أن نتعرض للعقاب.

لم أرغب أن أستسلم وأتنازل عن فكرتي بسهولة، لذلك سألت ماكس:

- أنت متأكد؟ أنا لا أقول لك أن يشربوا نوعًا عالي التركيز، بمعنى أن كمية صغيرة تضاف إلى العصير يمكن أن تجعل الموقف أكثر مرحًا. أنا مثلاً كنت وأنا صغيرة أشرب من كوب البيرة الخاص بأبي في السر!

حملق ماكس عينيه بشكل مسرحي وقال بنبرة قاطعة: لا.

زمجرت استنكارًا فأبدى ماكس اقتراحًا جديدًا:

ولكن ممكن تجعلي مشروبات الأطفال تشبه المشروبات الكحولية، كما يمكن إحضار الأكواب المناسبة ونصب فيها العصير، يصبح عندنا عصير عنب بدلاً من النبيذ، وعصير التفاح بدلاً من البيرة، وشراب الليمون بدلاً من المشروبات الأخرى!

طلبت منه على الفور: ساعتها نطلب من الكبار استخدام الأكواب البلاستيك.

رد عليّ ماكس لتهدئتي: طبعًا، طبعًا.

سألته: وكذلك نستخدم سجائر من اللبان؟

أجابني: طبعًا يا "كارو"، هي تبقى حفلة من غير سجاير لبان مع مسحوق فوار كي يشبه المخدرات!

واضح أن ماكس يفهم تفكير الأطفال وطباعهم أكثر مني.

مضى شهر ونحن نعمل معًا في الإعداد للحفل، ووضعنا برنامجًا بدا لنا أنه رائع.

فكرنا عدة أيام كيف نجد بديلاً واقعيًا عن الدم، وأن نحاول إقناع أصحاب قناة الأطفال بأن مسابقة أطول كلمة سباب وشتائم ليست إهدارًا للإنسانية ولكنها نوع من الألعاب التربوية الممتعة.

كنا نعرض على العميل مرة كل أسبوع ما أجزناه وكان يبدى رضاه إلا أنه لم يقبل فكرة المسحوق الفوار كبديل المخدرات؛ إحقاقًا للحق لم يكن ماكس يرغب في عرض هذه الفكرة أساسًا إلا أنني أنا التي أدخلتها سرًا ضمن قائمة العرض، عندما تأمل العميل في الفكرة استحسنها ولكنه أكد صعوبة تنفيذها.

اعتدت أن أتناول الغذاء مع ماكس، فكنا في بعض الأحيان نخرج بعد انتهاء العمل لنشرب مشروبًا ونتحدث عن الحب. ماكس يعيش حاليًا مرحلة فارقة في علاقة عاطفية؛ فهو وصديقته دائمًا الخلاف على مدى الشهور الماضية حتى أصبحت فترات خلافهم أطول بكثير من فترات صفائهم. ابتسمت في سرى وحمدت الله أنني قد مررت بهذه المرحلة وأنهيتها؛ لذلك فأنا أعرف جيدًا مدى صعوبة الانفصال. يبدو أننا نفضل خوفًا بلا نهاية على النهاية المخيفة، نشعر بالخوف من فقدان الطرف الآخر؛ لذلك لم أُسْدِ لماكس أي نصيحة. فأفضل شيء بالنسبة له هو أن تبادر صديقته بتركه وإنهاء العلاقة بينهما وبالتالي لا تصبح أمامه فرصة، لقد جربت ذلك وحقق نجاحًا ولكنى لن أقول له ذلك، لن أصارحه أيضًا بأنه سيكون في حاجة إلى صديقة مؤقتة خلال المرحلة الانتقالية، وأن مرحلة معاناته من آلام الفراق يمكن أن تستمر لمدة ثلاثة أشهر. مهما كان ما قلته له فلن يجدي شيئًا. لذلك تمنيت في قرارة نفسي سرًا أن يفترق عن صديقته في أسرع وقت؛ لأن ذلك سيعني الخلاص بالنسبة لماكس.

حقق العام الجديد النشيط آمالي بأسرع ما كنت أتصور؛ فبعد بضعة أيام جاء ماكس إلى المكتب مطأطأ الرأس: لقد قرر هو وصديقته أن يفترقا.

قلت له بلباقة: ياه!!

همهم ماكس بصوت منخفض: فعلاً.

شعرت بالمسئولية وقلت له: يا خسارة، وأنت عامل إيه؟

أجابني ماكس: لا أدري، ولكن أنا وهي على يقين أن هذا هو القرار الصحيح، ولكن الأمر مؤلم.

شعرت فجأة أن قلبي يدق بسرعة؛ فالموضوع يذكّرني بمأساتي الشخصية وما عانيته من ألم. وأنا لا أستطيع الآن أن أقوم بدور الصديقة الحقيقية وأن أواسي ماكس؛ لذلك خفضت رأسي وبدأت في العمل. لحسن الحظ لم يعد مطلوبًا منا الآن أن نبتكر ألعابًا مرحة؛ فالمطلوب في المرحلة الحالية هو توفير الأجهزة والأدوات المطلوبة للحفل والقيام بالأعمال التنظيمية. بعد انتهاء العمل عانقت ماكس قائلة:

- ارفع رأسك، ربما تكونان محتاجَين إجازة قصيرة؛ فالشخص يعرف قيمة رفيقه عندما يغيب عنه بعض الوقت. على فكرة، ممكن تتصل بي في أي وقت لو احتجت إلى أي نكتة سخيفة.

شكرني ماكس الذي انكمش ودخل بجسمه النحيل إلى سيارته.

أجبرت نفسي أثناء عودتي إلى المنزل على تحليل نفسي؛ فمن ناحية شعرت بمدى ما أنا فيه من نعمة مقارنة بماكس، شعرت

بالخجل من هذه الفكرة؛ فأنا لا أريد أن أفكر بهذه الطريقة وأسعد بأن هناك من هو أسوأ منى حالاً، ومن ناحية أخرى شعرت بأن فى داخلي نارًا تكاد تشتعل، شعرت بالدوار بمجرد التفكير في آلامي.

شعرت أن جسمي يخدعني ويدعي أنني بخير؛ فمجرد أن أسهو عنه سوف أشعر برائحة النار بداخلي، وإذا خدعني جسمي فإن ذلك يعني أنني أخدع نفسي فلا أستطيع أن أحمّل أحدًا ذنب ما يموج بداخلي.

أصبحت جلسات العلاج النفسي التي أتلقاها تصيبني بالتوتر, فقد سئمت الحديث عن نفسي وعن نوبات الخوف التى تنتابني، وأصبحت أشعر بالملل من التحليلات وربط الأمور التي أناقشها مع آنيت ببعضها على مدى الستة شهور الماضية. ستة شهور جمعت فيها حصيلة من المعلومات عن نفسي وتحدثت فيها مع الزملاء والأصدقاء حول ذات الموضوع. كل هذا بدون أي جدوى، فأنا غير قادرة على توظيف هذه المعلومات التوظيف الصحيح. يبدو كل شيء أثناء الجلسات منطقيًا، ولكن عندما أخرج إلى الشارع وسط الناس أقول لنفسي: ما المطلوب منى الآن بالضبط حتى أعود إلى حالتي الطبيعية؟

ترى آنيت مثلاً أنه ليس مطلوبًا مني أي شـيء، وأن الأمـر ليس مرتبطًا بالتعجيل بالشفاء أو الوصول إلى حالة الكمـال. الأمـر يتطلب مني فقط أن أقبل الوضع الذي أنا عليه الآن بكل ما يساورني من مخاوف لأن لها ما يبررها.

أما أنا فلست على استعداد أن أقبل هذا الأمر، لقد كنت علـى مدى سبعة وعشرين عامًا إنسانة طبيعية ومـن ثـم لا أسـتطيع أن أستوعب لماذا لا أعود إلى ما كنت عليه قبل المرض وأبحـث عـن حل لمشكلتي؛ أتصور أحيانًا أنني معقدة لدرجة تمنعني مـن عـلاج حالة نفسية بسيطة؛ أشعر أن داخلي قد امتلأ بطبقات متعبة ومنهكة!

هل أنا في طريقي إلى الشفاء؟ أم أنني أحاول إقنـاع نفـسي بهذا؟ يبدو أنني أحاول أن أقنع نفسي بهذا! ربما أحاول أن أقنع نفسي أنني أحاول إقناع نفسي بأنني في طريقي إلى الـشفاء. لقـد أصـبح رأسي يشبه متاهة من الاحتمالات لدرجة جعلتني ألاحظ أنني لم أعد أثق في نفسي. ملعونة هذه الدنيا!!

اتصل بي ماكس في عطلة نهاية الأسبوع وقال لـي: ممكـن أستغل عرضك في موضوع النكات السخيفة؟ حاولت كسبًا للوقت أن أبحث في رأسي عن واحدة وقلت: طبعًا، طبعًا، كيف حالك الآن؟

أجابني:

"بدونها! رغم أنني متأكد أنه كان القرار الصحيح، فإن الحياة فارغة بدونها!" بدونها!

تأثرت جدًا، وتمنيت لو أن أحدًا يتحدث عني بنفس الطريقة. ثم حاولت تغيير النغمة فقلت له: - هل كانت ضخمة لدرجة أنها كانت تملأ الشقة؟

ولما شعرت بسخافة ما قلت اعتذرت له بسرعة.

أجابني: ولا يهمك؟ ما رأيك نروح السينما؟ لا أطيق البقاء في البيت..

ذهبنا معًا إلى السينما واستمتعنا بها؛ لأن ماكس كان يحاول قدر إمكانه ألا يظهر تعاسته.

ويومًا بعد يوم بدأ ماكس يعود إلى نشاطه المعتاد، وكنت أحاول أن أقوم بدور الأم وأسأله كل صباح: شكلك أفضل اليوم!

وفي كل مرة يبتسم ماكس قائلاً: أكيد الفضل يرجع لك.

ثم أقهقه ويبدأ كل واحد منا في عمله. وفجأة لاحظنا أن نبرة الحديث بيني وبين ماكس تتغير شيئًا فشيئًا؛ فنظرات ماكس بدأت تأخذ طابعًا جديدًا، كذلك دعاباتي. تبادلنا النظرات لكي نبحر بماكس بعيدًا عن مشكلته، إلا أننا رسونا في الميناء الخاطئ أو على الأقل

في ميناء غير الذي كنا نريد الوصول إليه. لقد بدأت ألاحظ اهتمامي بملابسي أكثر من المعتاد، كما أصبحت أغمر ماكس بنكاتي ودعاباتي التي تحمل أكثر من معنى، والتي جعلت ماكس هو الآخر يرد عليّ بمثيلاتها.

أتصور أن الأمر أصبح واضحًا للعيان بحيث يشتم أي شخص يراقبنا رائحة الشواء، ويعتبر أن العلاقة بيننا أمر واقع، إلا أننا أخذنا نحن الاثنان نلف وندور حول أنفسنا خوفًا من أن تتحول العلاقة بيننا من صداقة عادية إلى علاقة لها مذاق جديد. فكل واحد منا يتصور أنه ربما كان مخطئًا في إحساسه. كنا نتحدث تليفونيًا عندما لا تتاح فرصة للقاء، كنا نتحدث عن كل شيء ما عدا هذا الموضوع، كنا نتحدث عن صديقته السابقة وعن صديقي السابق فيليب، فقد كان الحديث عنهما يبعدنا عن أن نهتم ببعضنا، لم نكن نثق في أنفسنا ولا في أحاسيسنا أو في أحاسيس الطرف الآخر إذا صح التعبير. بمرور الوقت أصبح الأمر لا يحتمل، فلم نعد نستطيع أن نخرج معًا لنتناول الطعام دون أن نقترب من حقل ألغام الألفاظ مزدوجة المعنى.

أصبحت أخجل من خوفي وجبني، كم أود أن أتجرأ وأسأل ماكس:

– ماذا يحدث لنا بالضبط يا ماكس؟ إحنا سوف نحب بعض والا إيه؟

ولكن للأسف لم أجرؤ على ذلك. ماذا لو كانت هذه العلاقة من درب خيالي؟ هل اشتياقي إلى شخص أسكن إليه يجعلني أتخيل أمورًا غير حقيقية؟ ماذا لو كان ماكس لا يفكر في الوقت الحالي في أن يكون هو السكن الذي يعجبني؟

بدأت أعد قوائم بما يعجبني وما لا يعجبني في ماكس مثلما تفعل المراهقات، حاولت أن أكون موضوعية بقدر الإمكان وشاعرية عند الضرورة. بدأت أحصى ماذا يعجبني في ماكس، كما لو كنت أجمع قصاصات؛ كان أولها الهدوء الذي يشع منه، وثانيها ظرفه الذي يجعله يعرب لي عن فرحته بأنه سيلقاني ثم سعادته بلقائي. لا يصدر هذا التصرف إلا عن فارس لم يعد موجودًا في هذا الزمن، ولكن ماكس كان يفعل كل ذلك حتى قبل أن تأخذ علاقتنا منعطفًا جديدًا. هل يكفى أننا نحب مشاهدة نفس الأفلام وسماع نفس الموسيقى؟ أسأل نفسي: هل تتجاذب الأقطاب أم يتقارب المتشابهان؟ ما هو الأصح؟ هل من علاماته أن يدق قلبي بسرعة عندما نلتقي؟

إذا كانت الإجابة بنعم فهذا أكبر دليل. أشعر داخلي بأحاسيس كلها رقة وهدوء. اعتبره شيئًا غير طبيعي، فليس لديّ وقت لا للرقة ولا للهدوء؛ لذلك لا أتصور أنها فكرة جيدة أن تربطني بماكس علاقة حب.

اتصلت بنيلسون وقلت له: فيه حاجة مش طبيعية بتحصل بيني وبين ماكس!

فرد قائلاً: وبعدين؟

أجبته بسرعة: أقول لك ماكس، ماكس زميلي في العمل.

فقال: فاهم طبعًا، هذه حاجة جميلة جدًا؛ فأنتم تفهمون بعضكم بصورة جيدة.

– أعتقد أن علاقتي بماكس علاقة أخوة.

– يا "كارو"، أنا وأنت زى الأخ والأخت.

استشعرت من نبرة صوت نيلسون أن كلامي أثاره.

– أنا فاهمة، بس بداخلي إحساس لا أفهمه؛ مثل زنا المحارم!

– أنا مش عارف فين المشكلة، أنت معجبة بماكس زى ما فهمت، وأنت كمان تعجبيه، استمرى!

– أنت تأخذ الأمور ببساطة يا نيلسون، افرض أن الموضوع كله من وحى خيالي، ممكن أكون باتصور أن حاله زى حالي؟

– إزاى تتصوري حاجة زى كده؟

– مش عارفة.

- شفتي؟

- هو الآخر توه خارج من تجربة عاطفية فاشلة، ومش ممكن ينزلق مع واحدة جديدة.

- ولم لا؟

سألت نفسي إذا ما كان نيلسون يحاول أن يلعب دور الشرطي المؤيد أم المعارض. ما أعرفه فقط هو أنني أصبحت شرطيًا قد نفد صبره، فقلت لنيلسون:

- يا نيلسون، حاجة مثل هذه أكيد نهايتها الفشل؛ لأن ماكس يحتاج إلى صديقة للمرحلة لانتقالية التي يمر بها. ولا أريد أن أكون أنا هذه الصديقة المؤقتة، أنا أريد أن أكون الجائزة الكبرى.

- اسمعيني جيدًا ياكارو، ما تقولينه مجرد تخاريف. أولاً لأن الانتقال من علاقة عاطفية إلى أخرى دون الحاجة إلى فترة انتقالية ربما يكون شيئًا نادرًا، إلا أنه موجود. ثانيًا: نظريتك عن المرحلة الانتقالية تخريف لا معنى له. وثالثًا: أنت مش الجائزة الكبرى، أنت نسخة معيبة ولكن نسخة معيبة ساحرة وحبّوبة. وإذا كان هناك من يرى ذلك فيكون هو الجائزة الكبرى. يكفي هذا، ضيعتي وقتي وأخذت تجلدين نفسك أمامي، اسمعي كلامي، تمسكي به وكفي عن

أن نتشكي ونتباكى؟

- نيلسون!

- نعم؟

- أنت أخذت هذا الكلام من أي فيلم؟

- على فكرة أنتي تغيظي!

- ضحكنا نحن الاثنان، وشكرته على عملية غسيل المخ التي أجراها لي، وأنهينا المكالمة.

- إذن إلى الأمام، إلحقي إقفلي عليه القفص! أعلني حالة الاستعداد. يكفي هذا الآن.

. جلسنا أنا وماكس فوق منط الأطفال الممتلئ بالهواء، أنا أدخن وهو يبدى قلقه خوفًا من أن ينفجر المنط من حرارة السيجارة. كنا قد اقتربنا من منتصف الليل وأوشك الحفل على الانتهاء بعد أن انصرف الأطفال وأولياء أمورهم، ولم يبق سوى مديري المحطة ومديري التسويق المتأنقين، ظلوا واقفين بين الألعاب المختلفة ويتبادلون التهنئة وهم يدخنون السيجار. أليس من المؤسف أن يكون المسئولون عن قنوات الأطفال الجميلة الظريفة، هم هؤلاء الشيوخ. ولكن كفاهم أنهم

اضطروا اليوم لاستخدام الأكواب البلاستيكية بعد أن صممنا أنا وماكس على ذلك.

لقد قمت بتجربة كل الألعاب التي قدمناها اليوم مرات ومرات. لقد ملأنا أنا وماكس أفواهنا ببودرة الكاكاو ثم بدأنا في الكلام وحل الفوازير، قمنا كذلك بتجربة العزف ضمن فريق موسيقى الروك وصحنا في وجه لوكاس.

ساعدنا الأطفال على ارتداء أزياء تنكرية وأخضعنا بعض الأهالي لأوامر الأطفال، شربنا معهم عصير التفاح حتى الثمالة ودخّنا معهم سجائر اللبان التي تسبب سرطان الرئة. كنا في منتهى السعادة رغم شدة الإرهاق.

خرجنا إلى الهواء الطلق نجر أقدامنا، ومن حولنا الربيع يحاول أن يقنعنا بقدومه. سألت ماكس: ماذا ستفعل الآن؟

- ليس لديّ فكرة، وإنت؟

- أنا أيضًا لا أعرف.

- خلينا نمشي من هنا لأني بدأت أشعر بالبرد.

- أنا ممكن أعطيك الجاكت بتاعي.

- إنت كده بتطعنيني في رجولتي!!

- هو أنا مش مسموح لي أقدم الجاكت بتاعى لصديقي العزيز علشان أحميه من البرد؟! هذا هو ما يطلقون عليه المساواة يا أستاذ.

أثناء عودتنا في السيارة كان صوت تـذمر التدفئـة يـوازى صوت التذمر داخل رأسي، لقد اشتقت لأي لمسة مـن مـاكس، أن يمسح على وجنتي مثلاً أو أن يمسك بركبتي، أتمنى ولو أي نوع من المجاملة أو الملاطفة؛ أرجوك. أنتظر أي علامة تشجعني على اتخاذ الخطوة التالية. أخرجني ماكس من أفكاري بقوله: تحبي نتفرج على *DVD* معًا عندي؟

رحبت بالفكرة واقترحـت أن نـشترى بعـض المـشروبات الروحية في الطريق. أتصور أن الكحوليـات تزيـد مـن شـجاعة الشخص، إن حالي يدعو للشفقة، إلا أن ماكس يشاركني هذه الأفكار السخيفة؛ من الواضح أن حاله هو أيضًا يدعو إلى الشفقة.

في شقة ماكس احتسينا بعض النبيذ، وشاهدنا أحد الأفلام، كنـا أثناء المشاهدة نعلق على ما نرى، لم نتمكن من التركيز في المـشاهدة ولو لمدة عشر دقائق متصلة... كنا نتكلم وننظر إلى بعـضنا الـبعض لمجرد الكلام. بدا ماكس متوترًا، وهذا ما أعجبني، يبدو أن قلبه يشعر بالخوف. عندما انتهى الفيلم اكتشفت أنني لن أستطيع قيادة السيارة بعد الكم الذي احتسيته من الشراب، فعرض عليّ ماكس أن أبيـت عنـده.

كنت أبدو كالكاذبة التي تبحث عن حجة لتبرر تصرفها. حاولت أن أدّعي الهدوء فقلت له: أفهم من ذلك أنك تريدني في سريرك؟

رد عليّ ماكس بصوت جاد قائلاً:

- هذا ما كنت أنويه منذ أن سمعتك تصيحين أثناء الحفل.

قلت في نفسي: "بهذه السرعة!".

بعد أن قمنا بكل الأعمال التي تسبق النوم من غسل الأسنان، وخلع العدسات اللاصقة، والبحث عن شيء للقراءة قبل النوم، وكذلك ضبط المنبه وإغلاق جهاز المحمول، لم يعد هناك شيء يمكن أن نفعله بعد ذلك للوصول إلى الخطوة الأخيرة. استلقينا بجانب بعضنا بعضًا على السرير في الظلام وكل منا في حالة توتر وتشنج تسري في جميع أعضاء جسمينا، أو على الأقل في أعضاء الجسم التي لا ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالعلاقة الحميمية.

اضطررت للضحك لأني تصورت أنه لا فائدة. ضحك ماكس معي إلا أنه بدا غير واثق من نفسه. سألته بصوت خافت: أليس من الغريب أن أكون أنا هنا الآن في سريرك في المكان الذي شغلته واحدة غيري قبل ذلك؟ كنت أشعر في قرارة نفسي بالضيق وعدم الراحة فليس هذا مكاني!

رد ماكس بصوت يغالبه النعاس: بالعكس، إنت لايقة جدًا في سريري.

عندما قال لي ذلك أخذت يده في يدي وقلت له:

- أنت عارف أني أتعب من معي جدًا؟

- نعم، أنا عارف؟

عرفت الآن مدى صدق إحساسي، فماكس يعرفني جيدًا، يعرف حالي عندما أكون ثائرة وعندما يعلو صوتي، ورغم ذلك يجد أنني أناسبه في سريره.

أمسكت يده وضغطت عليها فرد بنفس الضغط على يدي، استمررنا في تكرار هذه الحركة كما لو كنا قد استغرقنا في النوم، حتى رحنا فعلاً في النوم.

عندما استيقظت وجدت أن أيدينا لم تعد متشابكة، فاغتظت لأني فقدت فرصة التواصل مع ماكس، فقد كان نائمًا وظهره العاري المملوء بالنمش ناحيتي. أعجبني جدًا كل هذا الكم من النمش.

في الصباح وبعد أن تخلصت من تأثير الخمر أصبح من الصعب عليّ أن أبدأ بالمبادرة. بقيت في السرير مغمضة العينين وأخذت أفكر، فشعرت بالثورة على ماكس: لقد توقعت منه المبادرة.

وفجأة وقبل أن أقترب من ماكس فإذا به هو يقترب مني ويمسك بيدي، يا للمصادفة، بقينا في السرير مستلقيين وعيوننا مغلقة، وأخذنا نخطط للخطوات التالية. سألني ماكس بينما يدير وجهه عني: كيف كانت ليلتك؟

أجبته: جيدة جدًا رغم أنك شريك سرير غريب عليّ. قلت ذلك وأنا أضع يدي الأخرى على فمي.

قال ماكس وهو ينظر إلى الباب: شكرًا جزيلاً، وأنت كمان تعجبيني كشريكة سرير جدًا.

أعتقد أنه من الواجب أن نغسل أسناننا أو أن نأكل أي شيء، وإلا سوف نبقى طول اليوم ونحن متشابكا الأيدي ومغمضا العينين!

ستكون المخاطرة كبيرة بالنسبة لكلينا لو ترك الواحد منا الآخر يذهب. لذلك بقينا في السرير وبلعنا ريقنا وأخذنا نتحدث. بدأت أيدينا المتشابكة تترك مكانها الثابت كما لو لم تكن حركتها مقصودة – باحثة عن الرسغ والساعد. كنا أثناء الحديث نتحسس ذراعينا وكنا نلقي النكات ومعها قبضة خفيفة بالإصبعين. كنا نتحرك في غاية الحذر خوفًا من حدوث ما يمكن أن يفهم أنه سوء تفاهم. تصرفنا كما لم نتصرف من عشر سنوات مضت، كنا نستفز بعضنا البعض بالكلمات حتى تجيء حركات جسمنا متوافقة مع الكلمات، كنا نتحدث

بأي هراء حتى نتمكن من أن تصطدم أكتافنا ببعضها ووصلنا لدرجة أن ندغدغ بعضنا البعض. إنه شيء مخجل، ولكننا استطعنا بـذلك أن نقترب من بعضنا البعض، وعندما كنا نـستريح قلـيلاً مـن هـذه الحركات نكون في وضع متوازٍ، كانت الحركات التي أتينا بها خلال هذه الفترة بطيئة ولكنها تحتاج لالتقاط الأنفـاس. ضـممنا بعـضنا البعض كما لو كنا ملاكمين في الحلبة، ثم يتكرر المشهد!!

أخذت ذراع ماكس بين يديّ كما لو كنت أمسك بدمية وقربتها من وجهي، شممت رائحته وأخذ شعره يداعب أنفي، ثم أخذت أقبّـل ذراعه متخذة بذلك خطوة تتعدى حدود المسموح بـه، فـي المقابـل منحني ماكس قبلة على جبيني وأخذني بين أحضانه، أخذنا نتحـدث كي نصرف تركيزنا عن تصرفاتنا ولكننا استمررنا في تبادل القبلات على ذراعينا وأكتافنا ورقبتنا وأصابعنا، على رأسينا وكوعينا وأماكن متفرقة من جسمينا ما عدا الفم، فلم تصل القبلات إليه كما لـو كـان التراجع ما زال ممكنًا إذا لزم الأمر، ربما أصاب أحـد منـا الملـل فصاح في رفيقه:

– ما هذا الذي تفعله؟!

وأخيرًا وعلى استحياء تلاقت شفتانا، سألت نفسي لماذا احتجنا كل هذا الوقت؟

المهم أننا وصلنا إلى المراد. فكانت قبلات الفم هي المحور متناسية باقي أعضاء الجسم فلم نعبأ بها، لم يحدث بيننا سوى القبلات التي أمطرنا بها وجهينا حتى أحمرّا حمرة شديدة، تبادلنا نظرات التعجب لما وصلنا إليه. أعجبني منظر رأس ماكس وشعره وهو ما زال في السرير، أما هو فلا يجد فيه أي جمال، أخذت أعمل له تسريحات شعر مضحكة وأبدى إعجابي بوحدات النمش المنتشرة في جسمه، فقال لي: يمكنك أن تختاري واحدة منها إذا أردت. ورغم أنني وجدت هذا العرض لا يصدر إلا عن مراهق، إلا أنني تمالكت نفسي ونظرت إليه نظرة تعبير عن شكري، وحيث إن الاختيار صعب فقد قلت له: ممكن آخذهم كلهم؟ فرد قائلا: لا، لازم تختاري.

كلما وضعت عيني على واحدة من النمش تلألأت أخرى أمام عيني، وأخيرًا وقع اختياري على واحدة من النمش هائمة وحدها بعيدًا عن باقي النمش. ثم قلت لماكس:

- خلاص، أنا كده أملك واحدة من النمش، إذن لا شيء يقف في طريق حفل الزفاف؟

ولما ابتسم ماكس ابتسامة غريبة، تمنيت ألا أكون قد تجاوزت الحدود. ولكني في الواقع مستعدة أن أتزوج ماكس في التو واللحظة.

إلا أن مثل هذه القرارات لا يتم اتخاذها قبل غسيل الأسنان؛ لذلك تركنا السرير وتبادلنا القبلات في طريقنا إلى مكان لتناول الإفطار والقهوة.

وفى الطريق بدأ كلانا يسير على استحياء كما كنا فيما سبق؛ فكلمة نحن ما زالت جديدة علينا. بدا ماكس متشنجًا بعض الشيء خوفًا من أن يلتقي بصديقته السابقة في الشارع، بينما كنت أنا أخاف أن أتخطى حدودي؛ لذلك سرنا في الشارع معًا كما كنا: ماكس و"كارو"، وتناولنا إفطارنا وفى عيوننا لمعة خفية.

ثم عدنا إلى منزل ماكس وكلنا حنين للتلامس الذي افتقدناه فترة وجودنا خارج المنزل؛ لذلك بدأنا نتبادل القبلات في المصعد ثم في مدخل الشقة وفى كل مكان، إلى أن وصلنا إلى حجرة النوم، فعلينا الآن أن نعوض ما فاتنا.

ماكس ليس من النوع الذي يحب اللهو ولا الذي يخطط لأحاسيسه؛ فهو يعيش اللحظة الحالية، مما يجعلني أحسده على ذلك. كان ماكس يسعد حين يراني معه ويحزن عندما يبيت وحده، ويقول لي: إنه يفتقدني عندما أغيب عنه ويفرح عندما أعود إليه. ماكس يحب المكرونة التي أعدها له بنفسي. يومئ لي ماكس بعينه أثناء سيرنا بالسيارة ويقبل ذراعي الأيمن كما لو كان يأكل كوزًا من

الذرة: يأكله صفا صفا مستخدمًا يديه الاثنتين، من حسن الحظ أن سيارتي تعمل أوتوماتيكيًا فلا أحتاج لنقل السرعات لذلك لا مانع من أن أتركه يقبل ذراعي الأيمن طول الطريق. الأمور كلها تسير على ما يرام وهذا أمر لا أستطيع أن أتعامل معه.

تأملت سعادتي التي أعيشها بارتياب وقلت في نفسي: إذن، أين المشكلة أيتها البلهاء؟ فالسعادة بكل حلاوتها تغازلك وتقول لك: يا "كارو"، لا أعرف عما تتحدثين، فكل شيء على أفضل ما يكون!

أما أنا فلست ساذجة؛ لأنني أستطيع أن أميز بين سعادة وردية وأخرى حقيقية. سوف أصل إلى لب المشكلة بلا جدال؛ لذلك قررت أن أضع هذه السعادة موضع الاختبار.

الجو حولنا ربيع، أوقفت استخدام أدوية الاكتئاب وحصلت على وظيفة، صحتي بخير وأعيش حالة حب؛ إذن فكل الأمور مهيأة لسريان مادة السيروتونين(*) بالمعدل المطلوب، إلا أن هذا لم يعجب جسمي الذي تعوّد على هدهدة أدوية الاكتئاب وبدأ يتململ، فرغم أنني قد استغنيت - بمساعدة طبيبتي المعالجة - عن استخدام الأدوية ببطء وبالتدريج إلا أن جسمي بدأ يتذمر. فبدأت أشعر بالدوار لدرجة

(*) مادة السيروتونين: هي مادة تسمى ناقلاً عصبيًا يعمل على تنظيم مزاج الإنسان، لذلك يطلق عليه هرمون السعادة. (المترجمة)

أصابتني بالغثيان وأخذ قلبي يدق مثل الراقص الفاشل بدون أي إيقاع ولا انضباط، إنه ما يسمى خفقان القلب. بدأ شعور بالخوف يراودني؛ لذلك بدأ قلبي كما بدأت أنا نفسي خلال هذه المرحلة – مرحلة البين بين – يتعثر، نتج عن اضطراب قلبي اضطراب حالتي المزاجية، فالإحساس بالغثيان يثير الأعصاب، أضف إلى ذلك عدم قدرتي على التوصل إلى المشكلة في حالة السعادة التي أعيشها.

أصبحت حساسة جدًا: استيقظت ذات مرة مثلاً في منتصف الليل على نوبة بكاء شديدة بدون أي سبب، استيقظ ماكس جانبي، فأخذني بين ذراعيه، وبينما دموعي تنهمر أحاطني ماكس بجسمه كله كما لو كان قد وضع على جسمي غطاء، واستمر على ذلك حتى انتهيت من البكاء ورحت في النوم مرة ثانية. اشترى لي ماكس علكة ضد الغثيان، وداومت جاهدة على الاطلاع على شبكة المعلومات (الإنترنت) حتى أتأكد من أن هذه الأعراض هي فعلاً أعراض القرب من الشفاء وليست مؤشرات لأزمة قلبية، ومن ثم أقنعت نفسي أنها أعراض يمكن تحملها لأنها لن تلبث أن تزول. مرت ثلاثة أسابيع عانيت خلالها من هذه الحالة حتى أنني لم أعد أطيقها، ولم يعد جسمي يتحملها حتى قرر جسمي ألا يستمر على هذا الوضع، فقرر بين عشية وضحاها أن يعمل على خير ما يرام.

شعرت بالراحة؛ فقد عدت لأصبح مثل باقي أطفال الشارع الذي أعيش فيه، الآن تستطيع "كارو" أن تنزل من المنزل لتلعب مع الأطفال.

ورغم كل ذلك استمر مزاجي في الترنح كالمخمور، فما زلت أبحث عن الشعرة في طبق حساء كعادتي، وبدأت أتذمر. أخذت في البحث عن أسباب تافهة يمكن أن تنهي حالة السعادة التي أعيشها.

شعرت أن ماكس يثير أعصابي؛ فهو بطيء للغاية ولا يجيد التنظيم كما أنه يفتقد القدرة على إدارة الوقت، فلا يحضر في موعده أبدًا، ويحاول دائمًا أن يجد لذلك عذرًا فيقول: هكذا أنا؟

أما أنا فلا أعترف بمثل هذا الكلام، فعدم الحفاظ على المواعيد ليس عيبًا وراثيًا في الجينات، لذلك نحن قادرون على التخلص منه.

ومن صفات ماكس التي تثيرني أيضًا أنه يتحاشى الخلافات، مما أعتبره أنا شخصيًا افتقادًا للحماس والحمية؛ فهو مثلاً يتلقى الرسائل الإلكترونية ***e-mail*** السخيفة التي تصله من صديقته السابقة بكل هدوء؛ فعندما يقرأ الرسالة يغضب للحظات ثم يهز كتفيه ويعتبر الموضوع كأن لم يكن، وكأنما مُسح من ذاكرته. أما أنا فهذا الموقف يثيرني بشدة وأرى أن على ماكس أن يدافع عن نفسه، أن يثور وأن يحتج بشدة. إلا أن ماكس يحب كل الناس ولا يعتبر أي شخص

سخيفًا، حتى وإن كان مقتنعًا بذلك؛ فإنه يفضل ألا يصارح هذا الشخص برأيه ويعتبر أن خير الأمور الوسط.

تثيرني شخصية ماكس كما تثيرني الحموضة التي أشعر بها في معدتي، مما يجعلني أصرخ في وجه السعادة قائلة: مش ممكن يكون هذا هو الراجل الذي اخترته شريكًا لحياتي؟

أما السعادة فتنظر إليّ بهدوء لأنها تعلم تمام العلم أن ماكس بهدوئه يشكل القطب الذي يحقق التعادل المطلوب مع شخصيتي الثائرة الرافضة لكل شيء.

يتقبل ماكس أنني مدخنة لدرجة أنه اشترى لي طفاية سجائر صغيرة، وزين شرفة منزله بنباتات وزهور كي يكون المكان الذي أدخن فيه جميلاً.

لا يتبرم ماكس عندما أتابع برنامج مسابقات سخيف بل ويتابعه معي رغم عدم رضائه عنه، وزيادة في الإحساس بالمشاركة يختار أحد المتسابقين لتأييده بحيث يشاركني في السخط واللعنات إذا فاز المنافس.

يسعى ماكس جاهدًا أن يتذكر عدد قطع السكر التي أضعها في القهوة، وكذلك الكتب التي أنوى قراءتها وحتى نوع الحلوى التي تسعدني؛ كل ذلك يظهر أدب ماكس وحرصه على إرضائي.

أظهرت لي السعادة كل هذه الميزات وصاحت في وجهي في زهو: أي أسئلة أخرى يا "كارو"؟ ولكنى لا أقبل كل ذلك بسهولة، فأنا لا أثق في السعادة ولا حتى في نفسي قيد أنملة، فلا أتصور أن تسير الأمور بسهولة ويسر، فهذا ما لم أعهده أو أتعود عليه أبدًا. أنا على يقين أنني أنا التي سوف تدمر كل ذلك بأسرع ما يكون؛ فأنا لا أشك لحظة في أن ماكس متمسك بعلاقتنا ولن يفكر في إنهائها، بل على العكس؛ فلم أتعرف حتى هذه اللحظة على شخص صادق وأمين في عواطفه مع نفسه ومعي مثل ماكس.

ورغم كل ذلك فإن رأسي يطقطق مثل محرك بيربيفوم(*) المعطوب.

وحيث إنني متقلبة المزاج مثل الأطفال؛ فإنني أفتعل المشاحنات كي أستفز ماكس: فأتعمد أن أبيت بمفردي بعيدة عنه كي أثبت له أن وجوده أو عدمه سيان بالنسبة لي. كما أكرر على مسامعه أن ما بيننا لا يزيد على كونه مغامرة عاطفية وليس علاقة ثابتة، لدرجة أنني بعد شهر من بداية علاقتي بماكس قلت له بصراحة على سبيل الدعابة إنني لست مستعدة أن أوقع معه عقدًا لأننا ما زلنا في مرحلة التدريب وفترة الاختبار لم تنته بعد.

(*) محرك أبدي ينتج الطاقة من شيء، ويعطي بذلك المستخدم طاقة مجانية لا نهائية.

أما ماكس فقد بدا شجاعًا وشاركني الدعابة؛ غير أنني لمحت في عينيه أنه لا يعارض أن تأخذ العلاقة بيننا شكلاً رسميًا، وللحقيقة ولا أنا أيضًا، إلا أنني أخاف أن أفسد كل شيء.

أخاف أن أدخل في هذه التجربة ثم أكتشف بعد أسابيع أن عواطفي تتصرف عن ماكس فأبدأ في الإحساس بالملل وأثور لأتفه الأسباب عندما يقول ماكس أو يفعل شيئًا لا يرضيني؛ وقتها سوف يثور عقلي ويصيح في وجهي:

- شفتي، شفتي أنه ليس الاختيار الصحيح. شفتي؟ شايفاه تافه إزاي؟

أما الجزء الواعي المتبقي من عقلي فيرد قائلاً: إنه لا يوجد شخص كامل ورائع من جميع الجوانب، وإنه على الإنسان أن يتوقع صعوبات في علاقاته بالناس. ولكن صوت عقلي الهيستيرى يعلو على كل الأصوات ويصيح: لا وألف لا، لا بد أن يكون الشخص المحبوب هو الكمال بعينه!

همست لماكس قائلة: ممكن بعد عدة أسابيع يوصل بيننا الحال أننا لا نطيق بعضًا؟

رد عليّ: يمكن، ولكن ساعتها لن نقدر أن نغير في كده حاجة. من ناحيتي عندي إحساس إنك أنت الإنسانة التي أريدها!

قلت له: مش يمكن تكون هذه مجرد مرحلة وتمر، يمكن أن أكون أنا المرحلة الانتقالية في حياتك، وأنت بالنسبة لي الشخص اللي قدر يرجع لي إحساسي بذاتي؟؟

فرد عليّ: الحقيقة مش عارف! ولكن هو إحنا يعني لازم نتجوز بكره على طول؟ خلينا مع بعض طول ما إحنا الاثنين سعداء.

قال ماكس الذكي هذه الكلمات وهو يقبّل رأسي التي كنت قد وضعتها تحت إبطه:

كفاك هذا يا حمالة الهموم وارفعي رأسك من تحت إبطي كي أستطيع أن أقبلك أنت، لا شعرك!

أتلقى الصفعات من كل جانب من العالم المحيط بي، فقد قالت لي آنيت الطبيبة النفسية مثلاً: يا "كارو"، استمتعي باللحظة التي تعيشينها!!

بينما قال لي نيلسون: ما هذا التخريف، أنت سعيدة ولا تحاولي إقناع نفسك بالعكس!

أما أمي فقالت لي: رائع يا حبيبتي.

وقالت لي أننا: كل شيء ماشي على ما يرام. فين بقى المشكلة، ماكس مش غريب الأطوار زى فيليب ولا معقد زى ديفيد،

ماكس يعرفك من سنين وما زال يراك حلوة، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

قلت لهم كلهم: أنا عارفة، عارفة، بس.. بس؟

يتحملني رفيقي بمنتهى الصبر، فعندما أحتاج أن أكون وحدي فإن ماكس يتركني وحدي. وعندما أقرر أنني لا أحتاج لذلك فإنه يستقبلني في أي وقت وبدون استئذان، يغمرني بالقبلات والأحضان والتدليل.

ولما كنا أنا وماكس نعمل في وظيفة حرة فقد تمكنا من تنظيم أوقات عملنا؛ وحيث إن الصيف لا يطاق في المدينة الكبيرة، فقد قررنا أن نمضي خمسة أيام على شاطئ مايوركا(*)، فحجزنا في فندق ثلاث نجوم يقع على الشاطئ مباشرة وبه حمام سباحة رائع حاز إعجابنا أنا وماكس، بعد أن اتفقنا في الرأي على ألا يكون شكل حمام السباحة تقليديًا، مربع مثلاً أو على شكل كلوي، وإنما رأينا أنه كلما كان به التفافات وانحناءات زاد إعجابنا به. أخيرًا وجدنا ضالتنا فقررنا أن نحجز عن طريق الإنترنت الذي سارع بالرد وإرسال إشعار الحجز باسم السيد هيرمان وحرمه.

(*) جزيرة «مايوركا»: إحدى أهم وأكبر جزر الباليار السياحية، والتي يقصدها سنويًا أكثر من ١٥ مليون زائر، وتقع بين القارتين الأوروبية والأفريقية في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يحدها من الشمال جزيرة مينوركا والتي تعني «الصغرى»، ومن الجنوب تقع جزيرة الشباب «إيبيزا».

باقي أربعة أيام على الرحلة، مما جعلنا أنا وماكس في حالة توتر. اشترينا معًا بعض الكتب وكريمًا للشمس وبعض ألعاب الشاطئ، وحاولت أثناء كل ذلك أن أتقبل وضع وجود شخص آخر معي وألا أتشكك في كل شيء. ولكن في ذات اللحظة التي شعرت فيها بالسعادة ولا آخذ حذري، حدث شيء عرقل مسيرتي فكان أن تعثرت.

بينما أنا أضع المايوه البيكيني في حقيبة السفر إذا بالماضي القريب يلاحقني قبل يوم واحد من سفري. لم أهتم بأشعة الشمس الخفيفة التي تطل على غرفة نومي؛ لأنني أشعر بالسعادة فأنا على موعد مع شقيقة هذه الشمس التي تشرق على إسبانيا، فهي في نظري أكثر جاذبية من تلك التي أراها أمامي الآن.

وبينما أنا أطوي قطع المايوه الصغير إذا بي أشعر بقلق، فلم أهتم بذلك؛ عندي من الأسباب ما يقاوم هذا القلق، إلا أن عصبيتي لم تقبل ذلك وظهرت بوجهها القبيح مرة أخرى. بدأت أشعر بهزة في داخلي ثم تحولت إلى رعشة شديدة. حاولت أن أقنع جسمي أنه ليس لديّ وقت لمثل هذه الرعشة وأن أتجاهل ما يحدث بأن أتحرك بسرعة داخل الشقة. بدأت أنقل صفوفًا من الكتب من مكان إلى آخر وأختار بوجه عابس بعض الملابس والأحذية وأضعها داخل حقيبة

السفر، بينما أطلقت الموسيقي عالية حولي كما لو كنت أريد أن يطغى صوتها على الصوت الذي يعلو بداخلي، إلا أنه وللأسف كان أعلى صوتًا من كل ذلك، فكان مثل مغنية لامعة تريد استقطاب المستمع فأخذت تعلو بصوتها فوق صوت الموسيقى.

إن ما يدور بداخلي الآن يشبه نفس الحالة التي مررت بها منذ عام أثناء التسوق؛ شعرت أن وحشًا كاسرًا يتسلل ليهددني ويهاجمني، فأخذت أتوسل إليه كي يبتعد عنى وأقول لنفسي: احتفظي بهدوئك وسيطرى على الأمر. بدأت أحاور نفسي وأوجه لها الأسئلة: ماذا ينقصك الآن؟ ماذا يثير فيك كل هذا الخوف؟ ماذا يؤلمك؛ فرد عليّ صوت بداخلي: لا أعرف ولكن الألم لا يحتمل، لا أستطيع أن أجد سببًا لهذه الحالة، فأنا في حالة جيدة وسوف أسافر غدًا مع الشخص الذي اخترته بنفسي، وعندما أعود سوف أبدأ فورًا في تنفيذ مشروع جديد كلفتني به الوكالة التي أسعد بالعمل فيها، لكل ذلك لا أعرف أين تكمن المشكلة؟ وطلبت من هذا الصوت بداخلي أن يتركني لحالي وأن ينصرف، ولكن من الواضح أن الخوف يحبني جدًا ومتمسك بي، لذلك بقى معي ولم ينصرف عني.

حاولت أن أهدأ وأن أصرف انتباهي عما يدور بداخلي فتنفست بعمق، أخذت حمامًا دافئًا وأمسكت كتابًا أخذت أقرأ فيه، ثم

حاولت أن أنام بينما أشاهد أي تفاهات في التليفزيون، ربما ساعد ذلك على أن أهدأ قليلاً ولكنه ليس الحل، فلا شيء ينفع. فكرت أن أبتلع حبه من الدواء المهدئ الذي يستخدم عند الحاجة ولكنني تراجعت. فقد توقفت عن استخدام دواء الاكتئاب منذ ستة أسابيع، ولا أريد العودة إلى استعمال الأدوية بعد أن نضجت نفسيتي وقررت أن تساعد نفسها بنفسها، فقبعت على الأريكة مثل الكتكوت الذي خرج من البيضة لتوه وأنا شبه غائبة عن الوعي.

قلت لنفسي: سوف أقهر هذا الخوف ولن أقبل أن ينتصر عليّ. نجحت بشكل ما أن أوقفه على بُعد ذراع مني قبل أن يصل إليّ. كلفني ذلك قوة وإصرارًا كبيرين؛ لأنني ما زلت أشعر بهذا الخوف رغم أنه على مسافة مني ولكنني واثقة أنه لن يتغلب عليّ.

مضى اليوم وفى المساء كانت حقيبة السفر معدة، ورغم أنني كنت أرغب فى أن أبيت الليلة وحدي، فإننى ترددت وذهبت إلى ماكس كي أمضي الليلة عنده حتى يكون بجانبي عند الضرورة. أعد لي ماكس الشاي وضمني إليه وأخذ يطمئنني بكلمات رقيقة.

أما أنا فلا أريد أن أشرب ولا أن أسمع؛ ففي داخلي صراع عنيف يزداد سرعة، فطلبت من ماكس أن يتركني وحدي، وأخذت أجول في الشقة مثل المجنونة. أخذت أصيح في وجه ماكس لأن

رائحة الطعام الذي كان قد طلبه لنفسه رديئة تجعلني أرغب في التقيؤ. ثم صرخت في وجهه لأنه يشاهد التليفزيون بدلاً من أن يهتم بي، ثم بدأت أشعر بالبرد الشديد. لم أعد أطيق أي شيء، كل شيء حولي يثير أعصابي، أشعر بأن شيئًا ما بداخلي يؤلمني ويزيدني توترًا. أشعر بأنني أهتز مثل أوتار الكمان، ثم، ثم استسلمت، تناولت الحبة المهدئة ودخلت السرير، وأخذت أبكي حتى جاء ماكس وأخذني بين ذراعيه بينما تنبعث منه رائحة البيتزا ولم يقل شيئًا. أخذت أبكي وأنتحب وأعتذر عن تصرفاتي، لم أستطع التوقف عن البكاء فقد كنت أشعر بالخوف، خائفة من الخوف نفسه وهو يطل عليّ بوجهه القبيح ويذكّرني بالأيام المؤلمة التي مرت بي ويقول لي: إن الأمور ليست على ما يرام كما تصورت؛ فـ "كارو" ما زالت تعاني ولا تستطيع أن تعتمد على نفسها.

وقلت في نفسي: إنني لن أستطيع وأنا بهذه الحال أن أسافر غدًا، ماذا لو أصابتني النوبة وأنا على الشاطئ وسط الناس، من الذي سوف يمد لي يد المساعدة؟ ليس هناك أطباء ألمان. هدّأ ماكس من روعي وقال لي:

– نامي الآن وبكره الصبح شوفي: إذا كنت قادرة أن تسافري، نسافر، لو لم تستطيعي فلا نسافر، بسيطة!

أجبته بقولي: بس إحنا دفعنا الاشتراك فعلاً، ولن نسترد منه شيء لو اعتذرنا في وقت متأخر؟

- مش مهم خالص يا "كارو"، أنت تعبانة ولهذا لن نسافر. أنا بكرة ممكن أشوف يمكن نقدر نغيّر ميعاد الحجز!

ماكس يعرفني جيدًا لذلك عرف أنني بحاجة إلى شيء يصرفني عن التفكير، فأدار لي تمثيلية إذاعية.

بدأ القرص المهدئ يأتي بمفعوله وبدأ الخوف ينام بداخلي، ولكن بمجرد نومه استيقظ الحزن بداخلي وأخذ يلعب في رأسي، شعرت كأن الحزن غطاء يمد أطرافه ويلفني داخله. لم أعد أستطيع المقاومة فبقيت في مكاني وتصورت أنني قد نمت فعلاً، فربما لا يستطيع الحزن أن يصل إليّ.

استيقظت في الصباح على أشعة الشمس تطل من خلال النافذة على استحياء، كنت منهكة تمامًا مما مررت به البارحة، وكذلك بسبب إحساسي أنني لم أشف تمامًا كما تصورت أو كما حاولت أن أقنع نفسي، فضلاً عن أنه مطلوب مني الآن أن أتخذ قرارًا، إما السفر أو البقاء هنا. نظرت بجانبي فوجدت جسمًا ملؤه النمش، فسرى داخل جسمي دفء يشبه الدفء الذي ينبعث من جهاز تدفئة السيارة؛ دفء جميل يتدفق بداخلي. حاولت أن أتصور أن النمش

المنتشر على ظهر ماكس يبدو في هيئة أشكال مختلفة، فلم أفلح في أن أجد سيارة كبيرة أو دبًّا أو ما شابه، فكرت في الاستعانة بقلم للربط بين وحدات النمش، ولكني اكتشفت أنني أحاول بذلك أن أصرف انتباهي عن اتخاذ قرار، هل يمكن أن نكون بعد ثماني ساعات فقط من الآن جالسين في الطائرة في طريقنا إلى قضاء إجازة؟ أخذت أراقب نفسي بموضوعية: أشعر أنني أفضل من الأمس بكثير، ولكنى لست على ما يرام رغم أن الخوف قد ذهب عني ولو مؤقتًا، إلا أن الذهول يقبع بداخلي. فلم أعد أثق في أحاسيسي ولا في جسمي؛ فالخوف يمكن أن ينقضَّ عليَّ فجأة كما فعل أمس ويلقى حبل رعاة البقر حول رقبتي مثل الذبيحة. أشعر بعدم الأمان والقلق لأنني لا أعرف متى وأين يمكن أن يحدث لي مكروه، أريد أن أكون قادرة على السيطرة على جسمي على الأقل. هل أطلب بذلك الكثير؟؟

لا أعرف على وجه التحديد سبب خوفي من إمكانية الإصابة بمرض السرطان أو انسداد الصمامات حتى أجابتني "آنيت" الذكية: لا يحتاج الأمر لذكاء، فهذه الأمراض تداهم الشخص فجأة ودون مقدمات، ويمكن أن تقضى عليك.

أجبتها بقولي: يمكن أن أموت من الإيدز، ولكنه لا يثير الخوف بداخلي.

فردت عليّ قائلة: ممكن تحمي نفسك من الإيدز،، ولكن ليس من الممكن أن تقومي بفحص للسرطان كل شهرين، معنى هذا أنه من الممكن أن يكون المرض داخلك ولا تكتشفينه إلا متأخرًا جدًا.

صحيح ما تقول "آنيت"؛ فأنا كثيرًا ما أصاب بالتوتر في سريري ليلاً عندما أشعر بأي ألم غير معتاد، وأخاف أن أموت قبل أن يساعدني أو يسعفني أحد.

هذه هي الحال بالنسبة للأشخاص الذين لا يتحملون عدم قدرتهم على السيطرة على الأمور، فيقعون فريسة لمرض لا شفاء منه, نفس الخوف الذي ينتابهم عندما يشعرون بالوحدة، تمامًا كما مررت به مرات ومرات.

إذن، فأنا لديّ نزوة شديدة الرغبة في السيطرة انطلاقًا من عدم اعتمادي على أي شخص، فأنا أتحكم في وظائف جسمي وعقلي تمامًا لدرجة أنني أتعجب من رغبة كل منهما في الدفاع عن نفسه والإمساك بزمام نفسه. لذلك لا عجب الآن وأنا أرقد في سريري أن يهاجمني الخوف فجأة، فأنا التي أتحمل وزر حضوره. بدأت هضبة النمش تتحرك بجانبي وتهمهم، ثم استدار ماكس ناحيتي وسألني: كيف حالك اليوم؟

غمرته بالقبلات وقلت له وأنا أتنهد: مش عارفة، أنا أحسن كثيرًا ولكن فكرة أن أبعد عن البيت كل هذه المسافة تؤرقني، أنا لست خائفة، ما يخيفني هو الخوف نفسه.

داعب ماكس شعري ونهض من السرير وهو يتحدث عن الكرواسون للإفطار، وعندما أغلق باب الشقة وراءه اكتشفت أنه انصرف ليحضر بعضًا من الكرواسون.

تأملت حقيبة سفر ماكس المُعدَّة وأنا ما زلت مستلقية على السرير وفكرت في حقيبتي التي تركتها في شقتي. فكرت في جوازات السفر وإمكانية أن نكون الليلة حول حمام السباحة في إسبانيا نتناول مشروب السنجريا من الأكواب البلاستيكية.

اتصلت بآنيت في العيادة وردت عليّ بالفعل فسألتها إذا لم يكن لديها عمل في الوقت الحالي. أنا على يقين أن الأطباء النفسيين يشمون رائحة التوتر عن بعد. حكيت لها عما حدث أمس واليوم وعما أنوى فعله غدًا، وسألتها عن إمكانية حصولي على موعد لمقابلتها اليوم؛ لقد كنت أريد أن أتحدث إليها قبل أن أتخذ قرار السفر في إجازة. وفعلاً سمحت لي بمقابلتها اليوم ظهرًا، وهو موعد مناسب جدًا لأن الوقت سوف يكون كافيًا لي ولماكس للذهاب إلى المطار بعد لقاء "آنيت"، مما جعلني أشعر بالارتياح. أحضر ماكس الكرواسون

والمربى والقهوة، وأخبرني أنه سوف يسمح لي أن أتناول الإفطار معه اليوم في السرير للظروف الحالية.

أثار هذا الأمر ضحكي لأنني أنا التي كنت أمنع تناول أي مأكولات في السرير؛ فأنا أكره الفتات الذي يتساقط أثناء الأكل، أما اليوم فالفتات هو أهون الأضرار. أخذت أحدث ماكس عن خططي بينما فمي ممتلئ بالطعام.

قلت لماكس: بعد الإفطار نجمع حقائبك ونذهب إلى شقتي ونحضر حقائبي أنا، بحيث نكون مستعدين تمامًا للسفر، وبعدها نذهب بكل الحقائب لجلسة العلاج النفسي. ساعتها سوف أقرر إذا ما كنت قادرة على السفر أم لا.

استحسن ماكس الفكرة رغم أنها سوف تلغي فكرة محاولة تغيير الحجز، شعرت بالحرج الشديد فتساقطت الدموع من عيني وقلت لماكس:

- أنا آسفة أني أسبب لك كل هذا التوتر!

رد ماكس قائلاً: يا عبيطة، أنا عارف من الأول إنك متعبة.

قلت له: لا.. آسفة، لو لم نسافر، ممكن أصلح الموضوع وأدفع لك المبلغ الذي ضاع في الهواء بسببي، ولكن بالتقسيط!

– ممكن تهدى نفسك بعض الشيء، تكاليف الرحلة كلها ليست بالكبيرة، كمان نحملِ هم الفلوس، لو إننا فعلاً لن نسافر. هدوء من فضلك!

ساعتها شعرت أنني فعلاً قد هدأت بعض الشيء؛ فأيًّا كان القرار فإن رفيق الرحلة سوف يستمر في حبه لي.

لم تأتِ زيارة "آنيت" بجديد، حكيت لها عن الخوف الذي أشعر به وسألتها إذا كانت هذه الأعراض هي أعراض مرحلة سحب الدواء من الجسم، لقد جاءتني هذه الفكرة في السيارة وأنا في طريقي إلى هنا. استحسنتها كثيرًا لأنها لو صحت فسوف أعتبر هذا التفسير سليمًا وأغلق ملفه لأنه مقنع و بهذا أستريح.

وحيث إن "آنيت" من أشد المؤيدين لنظرية فرويد وتمارس العلاج النفسي فإنها لا تفضل استعمال الأدوية إلا أنها لم ترفض فكرتي تمامًا، أما تفسيرها فكان كالآتي:

ربما أصابك خوف مما يعرف بهلع اللحظة الأخيرة، فالسفر في إجازة مع ماكس هو خطوة مهمة في علاقتك به، أليس كذلك؟

همهمت بكلمات غير مفهومة؛ لأنني لم أكن أرغب في أن أتنازل عن فكرتي في اعتبار هذه المرحلة هي بسبب الكف عن تناول

الدواء، فهو مبرر أفضل من أن تصف لـي "آنيـت" أن الموضـوع معقد. ابتسمت "آنيت" قائلة:

- قلت لي: إن الموضوع بدأ وأنت تعدّين الحقائب قبل سفركم بيوم واحد، وقلت لي كذلك: إنك من أسابيع مرت لم تكوني مطمئنـة لعلاقتك بماكس ولا حتى لنفسك.

جلست في الكرسي الدوار وأخذت أمد شـفتي الـسفلى مثـل الطفل العنيد المتذمر.. استرسلت "آنيت" في الكلام قائلة:

- أعتقد أنك خائفة من أن تُحرمي من هذه المشاعر الجميلـة، أو أن تزول عنك. وتصورت أن هذه الإجازة فرصة كـي تنـدمجا أكثر؛ لذلك فأنت خائفة من أن تكون الخسارة أكبر إذا ما افترقتمـا. ولكن دعيني أقول لك يا "كارو": إن هذه هي الحياة. أتذكر أنك قلـت لي ذات مرة: إنك مستعدة للمقامرة، وإنك لا ترفضين السقوط إذا مـا كنت قد مررت بمرحلة صعود سابقة.

فكرت في كلام آنيت ووجدته معقولاً إلا أن شيئًا ما بـداخلي يمنعني من أن أحس هذه الكلمات، مما يمنعني من الشعور بالراحـة التي لم أشعر بها منذ حوالي سنة رغم وجود تفسير منطقي للأمـور. وكما هي عادتي ورغبة مني في الوصول إلى ما أريـد أن أسـمعه صحت قائلة: طيب! كيف أتخلص من هذا الإحساس؟!

ابتسمت "آنيت" ابتسامتها التي اعتدت عليها وقالت:

- يلزم أن تتعلمي أن تسمحي لهذه المخاوف بأن تطفو على السطح، فهي إشارة إلى أن جسمك يريد أن يبلغك رسالة.

ولما كانت هذه هي المرة المائة التي أسمع فيها هذا الكلام فقد قلت لها وأنا ثائرة والدموع تترقرق في عيني: - أنا لا أريد أن أسمح للخوف بأي شيء؛ فالخوف شيء فظيع وغير محتمل. ممكن تفهميني كيف يمكنني أن أعيش مطمئنة وأنا عارفة أن الخوف متربص بي وممكن يفاجئني في كل لحظة؟ أنا تصورت أنى شفيت وبقيت سليمة؟

- لا تنسي يا "كارو" أن حاجات كثيرة تغيرت، حياتك أصبحت أفضل وأجمل وأكثر توازنًا عن السنة الماضية، لا بد أن تعرفي أن نفسيتك لن تتغير وتتجدد بالكامل. كنت تعانين من مخاوف ثقيلة وفظيعة تراكمت بداخلك على مدى سبع وعشرين سنة، مش ممكن طبعًا تتخلصين منها مائة بالمائة.

سألتها بصوت منخفض: يعني أسافر مايوركا واللا لأ؟

- مش أنا التي تقرر ذلك، فإذا كنت ناوية أن تسافري ممكن أكتب لك بعض نقط مهدئة طبيعية تأخذينها معك. مرضى كثيرون عندي استخدموها واستراحوا عليها. ممكن تأخذينها أول ما تشعرين

بالقلق، عدا هذا فأنت تتصرفين في حالة الطوارئ بطريقة سليمة بأن تحاولي أن تهدئي وأن تبحثي داخلك عن سبب الخوف وتحليله وأن تصرفي انتباهك عنه بعمل شيء آخر.

طلبت منها زيادة في الاحتياط أن تكتب لي النقط المهدئة وقرأت اسمها "نقط ***Rescue***"؛ فشعرت بشيء من الاطمئنان.

ودعتني "آنيت" بعناق حنون ثم خرجت من العيادة إلى المدينة الدافئة، والآن عليّ أن أتخذ القرار. جلس ماكس يقرأ خارج العيادة في انتظاري، وعندما رآني ظهرت على وجهه ابتسامة ليس بها أي ترقُّب؛ فأيًّا كان قراري فإنه سوف يقبله.

- قلت له: بينا على المطار؟

- سألني بقلق: أنت متأكدة؟

- مش قوى، بس أنا عايزة أسافر فورًا.

- هذه هي ما تسمى إجازة آخر لحظة؛ يعني إجازة

- ***Last-Minute*** .

وجدت مايوركا كما هو متوقع، كما يكرهها الجميع وكما أحبها أنا؛ الناس حولك في كل مكان، كبار وصغار، في كل مكان الألعاب التي تملأ بالهواء، والمشروبات لا حصر لها، أما عن بوفيه الطعام؛

فحدِّث ولا حرج، فهناك من الطعام ما لـذ وطـاب، الفتيـات فـي المراقص (الديسكو) يرقصن بدون أن يعوق حركتهن أي شيء، هذا هو الجو الذي أفضله وأحبه، ولو كنت في منزل صغير هادئ، - في منطقة التو سكانا مثلاً - لما تحملته البتة، فأنا أحتـاج الحيـاة مـن حولي، صحيح أنني لا أريد الاختلاط بالناس، ولكنى أحتاج أن أراهم وأن أشعر أنى لست وحدي.

مرت خمسة أيام كاملة لم نفعل فيها شيئًا؛ فلم تكن لنا رغبـة في مشاهدة معالم الجزيرة، لم نفعل سوى أن نقرأ، ونحن مـستلقون في الشمس، نسبح ونأكل ونتبادل القبلات. تركنا كل ما يمكن أن يثير الأعصاب أثناء الإجازة، فماكس يشاركني عدم الرغبة فـي التجـول داخل الجزيرة، ولا مشاهدة معالمها الأثريـة، ولا حتـى ممارسـة الأنشطة الرياضية، فلا نحن نريد أن نسبح مع الدولفين، ولا مشاهدة الحيتان، كما لم نرغب في استئجار بانانا بوت، ولا الرقص بحمـاس في الديسكو.

لقد شكلنا لأنفسنا جزيرة خاصة بنا وسط كل هـؤلاء النـاس؛ شعرنا بالاطمئنان وسط هذه الحياة الصاخبة، فتصورنا أننا نـشاركهم فيما يفعلون، وعندما يأتي المساء، كنا نشعر مثلهم بالإرهاق.

التقطنا كثيرًا من الصور، لنا نحن الاثنان فقط، كيـف نبـدو عندما نأكل، ونحن نغازل بعضنا بعضًا، حتى ونحن نائمان.

كنا نشرب كل مساء مشروب السنج ريا الشهير، بينما نحن نلعب الورق في شرفة الفندق، شربنا من الأكواب والزجاجات، وحتى من الأكواب المخصصة لفرش الأسنان.

ورغم أننا أمضينا الإجازة مثل أشخاص في الخمسين من عمرهم، إلا أن هذا هو نوع الإجازة الذي أفضله.

بدأ جسمي يشعر بالاسترخاء، إلا أن الخوف قد حاول بين الحين والآخر أن يتسرب إليّ خلال الإجازة، وقتها أشعر بالرعشة، فأسارع بتناول نقط "آنيت" السحرية، ثم نسير أنا وماكس بأقدامنا الحافية على الشاطئ، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها. وفجأة أتصور أنني أفقد كل علاقة بماكس، لمجرد كلمة أو تصرف يأتي به، حتى لو كان تافهًا، كما لو كانت العلاقة بيننا تشبه التلامس المتقطع، تارة يصبح كل شيء على أفضل ما يكون، وفجأة لا أشعر تجاهه بأي عاطفة، ولا ألبث أن أجدها تعود، خلال هذه الفترة تمر دقائق، وربما ساعات، يلعب الشيطان خلالها برأسي، خلال اللحظات التي لا أشعر فيها بالسعادة.

لست ساذجة كي أتصور أن الأمور تسير دائمًا بلا مشاكل، حتى أجمل العلاقات يأتي عليها لحظات، يتمنى كل طرف فيها أن

تحل مصائب الدنيا على الطرف الآخر، ولكن أتصور أن هذا يحدث بعد مرور مدة طويلة على العلاقة، اكتشفت أني لا أعرف شيئًا عن الحب، ولا عن العلاقات الطبيعية بين الناس، أقل مشكلة تجعلني أتردد، فعندما أفكر مثلاً أن مايوه ماكس الغريب، ربما يكون سببًا في انفصالي عنه، وفي لحظة، أجد نفسي أتراجع في قراري، يصيبني هذا التردد، وحالة البين بين بالدوار، وأشعر أنى جبانة.

لم أرغب حتى الوقت الحالي أن أوقع عقدًا ثابتًا مع ماكس، ولكنه سوف يبقى بالنسبة لي هاويًا، ربما يمكنني القول: إنه الزبون الدائم لديّ. لا يعني هذا أنى أحاول أن أنظر حولي، بحثًا عن شخص آخر، أو عن حياة مختلفة، من المؤكد أن ماكس هو الساكن الوحيد في وكالة قلبي، ولكنى لا أجد في نفسي الثقة الكافية للدخول في علاقة دائمة.

رغم أننا في فصل الصيف فقد استقبلنا وطننا بذراعين مفتوحين، ومبللين، عدنا إلى وطننا، بعد أن أحرقتنا الشمس من شدة تعرضنا لها، وببطون ممتلئة ظهرت أمامنا، من كثرة الطعام والشراب أثناء الإجازة.

رغم أن الجو الممطر يثير غضب الكثيرين، إلا أنى أحب هذا الجو. يتحدثون في الراديو عن أبرد صيف منذ عدة سنوات،

ويسمعوننا موسيقى تنتقد سوء الأحوال الجوية؛ فأثناء عودتنا في التاكسي، سمعنا المذيع يتساءل مرتين: متى سوف يعود الصيف الحقيقي؟ أما أنا فأشعر بالسعادة لعودتي، رغم أنني قد أمضيت إجازة رائعة، وأتشوق إلى اللحظة التي أدخل فيها إلى سريري الوثير، وأن أرتدى الملابس الثقيلة، فأنا في حاجة دائمة إلى التغيير.

أمضى كل واحد منّا أنا وماكس الليلة في شقته، فماكس يذهب مبكرًا إلى عمله، أما أنا: فأريد أن أخلو إلى نفسي؛ لأنني أخاف أن أفقد استقلالي الذي اكتسبته بشجاعة، خلال الشهور الماضية، فيجب أن أكون محصنة في حالة انفصالي عن ماكس. لا أريد أن أفقد الخيط الرفيع الذي يربطني بذاتي؛ لذلك قررت أن أبيت ثلاث ليالٍ على الأقل كل أسبوع في شقتي، رغم أن ماكس يجد أن هذا هراء، صحيح أنه لم يصارحني بذلك، لكنى أشعر بذلك.

حاولت في اليوم التالي أن أعيد ترتيب البيت، فتخلصت من الطعام المتبقي من الأسبوع الماضي، وأفرغت الطفايات من أعقاب السجائر، لا أريد أن تأتي شقتي عندي في المرتبة الثانية؛ لذلك أخذت أنظف وألمع كل جزء فيها، بما في ذلك النوافذ.

اطلعت على الرسائل الإلكترونية الخاصة بي، لا لأني أنتظر رسائل، ولكن لأن هذا هو الأمر المعتاد، وبالفعل وجدت رسالة من

الوكالة الإعلانية التي أعمل بها، يطلب منى فيها ستيفان – المدير الذي أعمل تحت رئاسته أحيانًا – أن أقوم بتنظيم لقاء إعلامي.

وصلتني أيضًا رسالة من صديقي – غير المؤكد – ماكس يقول فيها: إنه يفتقد الأجزاء التي لم تحرقها الشمس في جسمي.

كتبت لستيفان بالموافقة على العرض، بشرط أن يسمح لي بتنظيم بعض الأشياء بدون مشاركة توماس جوتشالك. أما ماكس فكتبت له: إنه يسعدني أن نلتقي على عشاء فاخر خلال الأيام القادمة، وأبلغته أني ما زلت في حاجة إلى الانفراد بنفسي، حتى أشعر بأني أفتقده فعلاً. أريد إجابة قاطعة من أحاسيسي تجاه ماكس، وبالفعل جاءت الإجابة في قلب الليل. استيقظت حوالي الساعة الثالثة صباحًا وأنا غير قادرة على التنفس، قلبي ينبض بشدة داخل صدري، جسمي كله ساخن، كما لو كان يكوى بالنار، شعرت وكأنني أقف وسط عاصفة.

لقد تمكّن منى وحش الخوف، وهاجمني أثناء النوم، عاتبته بأن هذا ليس من شيم الفرسان الإنجليز، ثم قررت أن أجتهد لأنقذ نفسي.

فكرت في أمي، ولكنها قالت لي: إني لست في حاجة إلى طبيب الطوارئ، فما أعاني منه ليس أزمة قلبية، ولكنه نوبة خوف، وعليّ أن أتعامل معها بنفسي.

بدأت أتنفس بانتظام، وخرجت إلى الشرفة بملابسي الداخلية، ولكن الوحش الكاسر يعرفني تمام المعرفة، واستعد لذلك، فسخر مني قائلاً: لا داعي لهذه الحركات معي. استمر الصخب داخل جسمي، بحيث انتابني شعور، بأني أريد أن أهرب من هنا، وأجرى بعيدًا عن هنا، ولكنى غير قادرة على الجري، وحتى لو كان بمقدوري ذلك، مم أهرب؟ ومن أين لي بمكان أشعر فيه بالأمان؟

وفجأة بدأت أقنع نفسي بأنني في أمان، وأنه لن يحدث لي أي مكروه، ورغم أن الهدوء كان يسود المكان حولي، فقد كانت بداخلي حرب طاحنة.

لن أبكي الآن، فليس هناك وقت للبكاء، توجهت بساقين مرتعدتين إلى الحمام بحثًا عن الأقراص الزرقاء، ولأني أرتعد فقد سقط القرص الأول على الأرض، ثم ابتلعت القرص الثاني وعدت إلى سريري وأنا أترنح.

حاولت أن أشغل نفسي بأن أقوم بِعدّ الخطوط الموجودة في غطاء سريري، ولكن شعرت بطنين في أذني، وضربات قلبي لا تريد أن تهدأ، شغلت نفسي بأن أعدّ أسماء المقاطعات الألمانية المختلفة، ولكن بلا فائدة؛ فالقوة المسيطرة عليّ حاضرة بشدة، ولا تقبل أن يطغى عليها أحد، فصاحت في وجهي بقولها: "عليك أن تحاربي للحصول على حقك في المشاركة في الحياة".

في السرير، انكمشت في نفسي، بحيث أصبحت في أصغر حجم ممكن؛ فلو تم إرسالي كطرد في البريد الألماني، لما تكلف أكثر من عشرة يورو لا غير، وفي بطء شديد بدأ قرص الدواء يأتي بمفعوله.

في الصباح لم يتغير شيء، فقد تمكن مني الخوف، فعندما استيقظت، شعرت بأن جسمي كله مسام مفتوحة، فقد تأكدت أنني لن أستطيع أن أخدع نفسي بعد اليوم، وأقول: إن هذه النوبة كانت استثناءً وعارضًا غير مدروس في رأسي، لن أتلقى مكالمة تبلغني بالآتي:

"صباح الخير يا سيدة هيرمان، محدثك هو موللر، من مركز التشغيل، لقد حدث أمس شيء خارج عن إرادتنا، فقد أخطأ المتدرب الجديد بالأمس، وقام بتبديل بعض الكابلات دون قصد، نرجو المعذرة إذا كان ذلك قد تسبب لكِ في بعض الاضطرابات، نعدك ألا يتكرر هذا الأمر".

لا، لن يحدث ذلك، وعليّ أن أقر أن هناك خللاً ما بداخلي، فقد أصبت بالجنون، وأصبحت في حاجة إلى مساعدة، لقد خسرت المعركة؛ لأني أخطأت في كل ما فعلت خلال العام الماضي، لقد أعدت الممثلة المتمكنة بداخلي سيناريو متقنًا بعنوان "شفاء نفسي"، لدرجة جعلتني أصدقه.

أما الآن فقد نظر إليَّ الواقع شذرًا، وأبلغني بما هو أسوأ. ليس هذا فقط، فلو افترضت أن الأمور تسير على ما يرام، كيف يمكن لي أن أجعلها تسير على ما يرام فعلاً؟ كم تمنيت أن أكون أكثر غباءً، وأن أقبل فكرة اعتبار الأمور: كما لو أن! أريد أن أكون ممثلة فاشلة أو كاذبة. كي أقتنع بذلك، أرجوكم جميعًا: أريد أن أتعافى، وأن أعود إلى ما كنت عليه.

لاحظت أنني لا أعرف رأسي من رجلي، ومشوشة جدًا، فأخذت علبة سجائري، ولملمت سيقاني، وخرجت من المنزل، إلى أين؟ لا أعلم، أريد فقط أن أذهب بعيدًا عن هنا، أخذت أتجول في المنطقة المحيطة بالمنزل، وأنا أبكي وأدخن.

اتصلت بآنيت وماكس، وتركت لهما رسالة باكية على جهاز تسجيل المكالمات، وأخيرًا اتصلت بعيادة الطبيبة النفسية الدكتورة كليفه، رغم علمي أنها في إجازة لرعاية طفلها، طلبت القائم بالعمل في عيادتها، أخذت نفسًا عميقًا وتحدثت إلى الممرضة.

قالت لي بصوتها الرفيع: مدام هيرمان، لم تحضري إلى العيادة منذ فترة طويلة، حوالي تسعة أشهر، أليس كذلك؟

قلت لها: إني أعاني منذ أن توقفت عن تناول أقراص العلاج؛ لذلك أريد أن أتحدث إلى الطبيب، أجابتني بقولها: آه، إنك لم تتعرفي على الطبيب الجديد! للأسف لا يمكن الحصول على مواعيد اليوم،

فالدكتور مشغول جدًا، ما هي الحالة بالضبط؟

قلت بشجاعة: لا أعرف بالضبط، ولكن الحالة ليست من السوء، بحيث إني أبحث عن موس الحلاقة كي أنتحر به، ولكني رغم ذلك لا أريد الانتظار للغد.

ردت الممرضة: ها هو الدكتور قد حضر، سوف أوصلك به.

رد على صوت رجالي: أهلاً يا سيدة هيرمان، كيف حالك؟

ولما لم أكن أطيق العبارات الجوفاء، فقد قلت له:

– مع احترامي الشديد لشخصك، عليك أن تتصور خالي، وأنا أتحدث باكية إلى الممرضة، وأطلب منها موعدًا فوريًا!

جاء سؤال الطبيب بموضوعية شديدة، حيث إنه قد تعود على ما هو أعنف من ذلك عبر التليفون:

– أين تكمن المشكلة بالضبط؟

أمطرته بالأسئلة؛ لأن صبري قد نفد، وأردت أن يعرف الطبيب حالتي، ويساعدني:

– لا أعرف من أين أبدأ، انتهيت من استخدام حبوب علاج الاكتئاب منذ عدة أسابيع، وها هي حالتي الآن سيئة جدًا، هل هناك

علاقة بين الاثنين؟ هل المطلوب مني العودة إلى تناول الأقراص؟ هل أصبت بالجنون؟ اعتقدت أني شُفيت!

رد الطبيب: لا أستطيع أن أجيب عن كل هذه الأسئلة من خلال التليفون.

- مفهوم طبعًا، لذلك لم أطلب استشارة تليفونية.

- سوف أحاول أن أجد لكِ موعدًا اليوم بأي طريقة، هل يناسبك الساعة الخامسة والنصف مساء؟

- جميل، شكرًا جزيلاً، وأعتذر عن حالتي المشوشة.

لاحظت أني قد رفعت صوتي، مطالبة بما أريد، طبعًا! هذه أنا! أعترف بأن تصرفي لم يكن مقبولاً.

شعرت ببعض الهدوء؛ لأني أريد أن أستخرج كل ما عندي.

ها أنا ذا وقد تجردت من كل شيء، أعرض عليكم كل أسراري، كل مخاوفي، كل قلقي، كل آثامي، سوف أسمح لكم بالاطلاع على كل كبيرة وصغيرة، وسوف أجيب عن كل الأسئلة بصراحة شديدة، بقدر ما أستطيع، سوف أضع كل الأحمال عن كتفي، وأعترف بكل خطاياي، لن أكذب بتاتًا، سوف أتصرف دومًا بطريقة صحيحة، ولكل ذلك أرجوكم، أخرجوني من محنتي!

اتصلت بي "آنيت" ردًا على مكالمتي، فعرضت عليها المشكلة، وأنا أبكي: ماذا حدث لي بالضبط، ولماذا يحصل مرة ثانية؟ هو أنـــا بعمل إيه غلط؟

حاولت "آنيت" أن تهدئني قائلة:

يا "كارو"، أنت لا تعملين أي شيء خطأ، أعتقد أن المشكلة في تماديك في العلاقات؟

- ماذا يعني هذا؟ لا أفهمك، تماديت في علاقاتي مع من؟

- في علاقتك بنفسك، وبالآخرين، وبماكس بالذات، وهذا هـــو ما يخيفك.

أربكني هذا الكلام، فتراقـصت أمـــام عينـــي كـــل مواقـــف ومعلومات العام الماضي، تمامًا مثل الموسيقى الإلكترونية، ومضات سريعة، جعلتني من شدة ضوئها لا أستطيع الرؤية، هل يمكن لأحـــد أن يساعدني، ويخفض هـــذا الضـــوء، ويعيـــد تشغيلي مرة أخرى، لا أريد هذه المرة أن أعرف أي شيء، ولا أن أستخلص أمرًا، ولا حتى أبحث عن شيء كي أفهمه، لا أريد إلا أن أكون، وحبـــذا لـــو كنـــت [illegible] صحة جيدة، ثم توسلت لآنيت كالطفل الصغير:

- أرجوك، لم أعد أتحمل، أرجوك ساعديني على الشفاء.

[illegible] قائلة:

لا تخافي يا "كارو"، أنت قادرة على ذلك، وسوف ننجح، ولكن اتركي لنا بعض الوقت، اصبري قليلاً.

وافقتها رغم أنني لم أفهم ماذا تقصد؟ ولكنى لا أريد أن أعرف ماذا تقصد؟ فقد تعبت، أنهيت المكالمة بقولي: موعدنا بعد غد.

عرضت عليّ "آنيت" الحضور قبل الموعد بقولها:

- ممكن تحضري قبل ذلك لو أردت.

يبدو أنها قلقة عليّ، ولكنى لا أرغب في الذهاب إليها قبل الموعد، حدثتها عن موعدي مع الطبيب النفسي اليوم، وأعتقد أن هذا يكفي.

جلست على الرصيف في الشارع، وأخذت أدخن سيجارة، وفجأة شعرت أنني قد هبطت من أعلى إلى الأرض. فقد تم إخطار جميع المسئولين، ويمكن للعمل أن يبدأ مرة أخرى، شمرت عن ساعدي وقلت: هيا إلى إعادة البناء يا "كارو"، فليبدأ العمل.

اتصل بي ماكس وقال: آسف، كنت في اجتماع، ما أخبارك؟

أجبته بصوت واثق ما لبث أن تحول إلى بكاء، فقد جاء صوت ماكس المألوف بالنسبة لي ليظهر لي أنني ما زلت في حاجة إلى من أركن إليه:

أحسنَ الآن، أنا على موعد مع الطبيب النفسي اليوم، وكمان اتصلت بآنيت.

رد عليّ بقوله: تحبي نروح نأكل آيس كريم قبل ميعاد الدكتور، أنا ممكن أحصل على إجازة باقي اليوم ، أو تفضلي أن تبقى وحدك هذه الفترة؟

جاء العرض في موعده، فلم يكن يسعدني الآن أكثر من أن أتناول الآيس كريم مع صديقي - المؤقت -، فلا أريد أن أبقى وحدي، ولا أريد التفكير في أي شيء، لذلك مررت على ماكس في الوكالة، واصطحبته إلى إحدى الحدائق، جلسنا نتناول الآيس كريم - السويدي - وأخذنا نراقب بعض الناس، ممن يمارسون رياضة المشي في الحديقة، شعرت براحة تسرى في داخلي، وشعور بقبول للواقع.

قلت لنفسي: ما حدث قد حدث بالفعل، وسقط الطفل في البئر، فلا طائل من وراء الصياح والتحذيرات، ومطالبته بالحرص، لقد جاء الآن دور عملية الإنقاذ.

الإكتئاب حدث سخيف!

كم هي مستخفة بالمتلقي، تلك الجملة، التي يقولها طبيبي النفسي، الذي يشبه نجوم البوب!

جلست أمام طبيبي في عيادته، التي هي في الواقع عيادة الدكتورة كليفه، وتأملت مشروب البيوناده الموضوع أمامه.

سوف نبدأ معًا من نقطة الصفر، ولكن علينا الوصول للهدف بأقصى سرعة، وفي أسرع وقت، ساعتها فقط سوف أثق في تشخيصه، وبناء عليه، قمت بتسميع ملخص أحداث العام الماضي، بداية من فقدي لموقع عملي، وانتهاءً بصديقي المؤقت، الذي يجلس في انتظاري خارج غرفة الكشف.

لخص الطبيب المؤقت الوضع في كلمات قليلة:

- بمعنى أنك توقفت عن تناول حبوب الاكتئاب منذ ستة أسابيع، بعدها بدأت تنتابك نوبات من الخوف!

- بالضبط، لذلك أريد أن أعرف من سيادتك السبب، هل هناك علاقة بين نوبات الخوف والتوقف عن استخدام الأقراص؟ هل يعني ذلك أنني إذا توقفت عن الدواء، سوف أستمر في الشعور بالخوف؟ هل المفروض الآن أن أعود إلى استخدام الدواء؟ ولو كان الأمر كذلك، فلماذا؟ ماذا يحدث لي بالضبط؟ كيف يمكن أن أعود إلى حالتي الطبيعية؟

ابتسم الطبيب وقال:

- واحدة، واحدة يا سيدة هيرمان. أنا لا أعرف حالتك بالتفصيل، كي أستطيع أن أقول لكِ أين تكمن المشكلة بالضبط؟ لا أعتقد أن إصابتك بنوبات خوف بعد التوقف عن استخدام الأقراص، كان من قبيل الصدفة، السؤال الآن هو: لماذا توقفت عن استخدام الأقراص؟

قلت له:

- الواقع أني أستخدم هذه الأقراص منذ أكثر من سنة، وكانت حالتي قد بدأت فعلاً في التحسن، واستقرت الأمور، وتصورت أن الأمور أصبحت على ما يرام، ثمَّ فوجئت بأنني بدون دواء، مجرد شيء مهلهل، وأني غير قادرة على الاستمرار في الحياة، إنه إحساس فظيع!

انتهيت من كلماتي، وأجهشت بالبكاء. تأملني الطبيب - نجم البوب - كما لو كنت حيوانًا مسليًا، ثم أخذ يدون بعض الملاحظات في الملف الخاص بي أمامه.

همهمت بكلمات وأنا أبكي:

- لم أعد أعرف من أنا بالضبط؟ ومن أصدق؟ أشعر بأن كل شيء بداخلي معقد.

ناولني الطبيب منديلاً، بدأت أشعر أنه يتفهم الموقف، ثم قال:

- الواضح أنك لا تدركين أهمية العقد! العقد تربط الأشياء ببعضها، وليس من الحكمة أن نحل العقد على وجه السرعة، ربما كان من الأفضل، أن نحتفظ بها بعض الوقت لنحمي أنفسنا.

تأملت كلمات الطبيب, فوجدت فيها تشبيهًا جميلاً، توقفت عن البكاء، وقلت لنفسي:

ليس من الضروري صرف كل أشباح الماضي، والحاضر، والمستقبل في التو واللحظة، استجمعت أفكاري وقلت للطبيب:

- أنا لازم أبدأ في ترتيب الأمور، من المؤكد أن هناك شيئًا غير سليم، ونوبات الخوف دليل على هذا. لا يمكن أن أتعايش مع هذه النوبات، ولا طبعًا يمكن أيضًا أن أتناول دواء علاج الاكتئاب باقي عمري؟

سألني الطبيب بتحدٍ وهو يرشف رشفة من مشروبه: ولم لا؟

- لأن هذه الحبوب تعالج الأعراض فقط، وأنا أريد معرفة السبب، وأن أمحوه تمامًا، كي أستطيع أن أعيش مثل الناس الطبيعيين.

فجأة قال الطبيب بعصبية:

- مدام هيرمان، أرى رغبتك في عدم الاستمرار على الحبوب أمرًا محمودًا، ولكن صدقيني، عندي من المرضى من هم على استعداد أن يفعلوا أي شيء، في مقابل زيادة الجرعة التي أكتبها لهم. افرضي أنك تتناولين أقراصًا لعلاج ضغط الدم أو أي مرض في القلب، هل تسألين عن تأثيرها أو المدة التي سوف تستخدمينها خلالها؟ أنت تستخدمينها لأنها تساعدك، لا أفهم لماذا يرفض الناس هذا الأمر مع الأمراض النفسية، ويريدون أن تسير الأمور من تلقاء نفسها، هل يطلب أحد ذلك من ضغط دمه؟

أعتقد أن الطبيب قد أعطاني بذلك دشًا محترمًا، ولكنني لن أستسلم بسهولة، فقلت له: لكن التشبيه غير صحيح؛ فالحبوب تمنحني الإحساس بكوني في حالة جيدة، بينما بداخلي فوران شديد، لدرجة تجعلني أشعر بأن اللهب سوف يخرج من أذني، أنت فاهم ماذا أقصد؟

حملق الطبيب - نجم البوب - في وجهي صائحًا:

- أنا لم أقل إنك سوف تستخدمين الأقراص باقي حياتك، كل ما في الأمر أنني لا أعتقد أن توقفك عن الأقراص قبل أن تشفى تمامًا فكرة صائبة.

- لكن حالتي كانت جيدة، بل جيدة جدًا، عدت لعملي مرة أخرى، وأعيش حالة حب، هل هناك ما هو أفضل؟

– ولكن لديك بعض الشكوك في هذه العلاقة!

– قلت له بصوت متذمر:

– لا، أنا عندي شك في نفسي بشأن هذه العلاقة، فلم أعد أثق في نفسي، فضلاً عن أن هذا الموضوع ليس لـــه علاقـــة بوضـــعي الحالي.

رد عليَّ الطبيب بنفس النبرة:

– من الذي قال لك هذا؟

– أردت أن أداعبه فقلت له:

– نبرتك في هذا الأمر تشبه نبرة "آنيت"، أخصائيتي النفسية!

رد مكملاً الدعابة:

– وكيف هي نبرة أخصائيتك؟

– تقول: إن مشكلتي تكمن في مفهومي للعلاقة بينـــي وبـــين نفسي، وبيني وبين الآخرين.

– هذا يعني أن أخصائيتك النفسية ليست سيئة!

أعلن عن إعجابي بطبيبي النفسي – نجم البوب –، رغم أنـــه يبدو جامدًا ومعجبًا بنفسه، مثل إعجابي به؛ فهو حاسم ومباشر فـــي

كلامه، يمسك بزمام الأمور ويعاملني بخشونة، لأنه لم تفزعه طريقتي في الحديث.

صارحته بكل هذا، بل وقلت له: إنه ظريف ومتعب في ذات الوقت. رد عليّ قائلاً:

- صدقيني، أنا أيضًا أجد أن الأمر متعب معكِ، فأنا لا أتعامل مع كل المرضى بهذه الطريقة، صعب جدًا أن أصل إلى مفاتيح شخصيتك، أشعر أنني في حاجة إلى (شنيور)، كي أتمكن من الدخول إلي شخصيتك، ممكن أن أشبهك بحائط خرساني، فأنت تغيرين مسار الحديث بسرعة، وتطلقين النكات، وتنشرين حولك سحرًا وجاذبية.

قلت له بصوت حازم.

- أريد أن أعرف تشخيصك لحالتي، وبصراحة؟

- الحقيقة، لا أعرف بالضبط؛ لأننا لم نتحدث معًا بما فيه الكفاية، ولكني أعتقد أنك تعانين من اكتئاب حقيقي، بل وأتصور، أنك تعانين منه منذ مدة طويلة، لدرجة أنه أصبح على مدى السنين اكتئابًا مزمنًا، اكتئابك من النوع الذي يستطيع أن يخفي نفسه بصورة كبيرة، واستطعت أنت أن تبني له درعًا واقيًا.

أصبت بدهشة شديدة، فلم أكن أرغب في أن أسمع هذا الكلام، أنا لا أعاني من الاكتئاب، ربما يميل مزاجي أحيانًا إلى الكآبة بسبب الظروف، ولكن هذا لا يعني أنني مصابة بالاكتئاب. قلت له بشجاعة:

- لا أعتقد هذا، فأنا لا أشعر بالحزن، ولا أمضى وقتًا طويلا في التفكير والتأمل، ولا أعاني من مشاكل في النوم، ولا دوافع مضطربة.

كانت هذه هي أعراض الاكتئاب التي أعرفها.

رد الطبيب بهدوء: سيدة هيرمان، خلال النصف ساعة التي جلست فيها أمامي، بكيت ثلاث مرات، وقمت أنا بوضع خط تحت كلمة اكتئاب ثلاث مرات.

ثم قام بوضع الدفتر أمامي، ليريني الخطوط التي وضعها. صحيح! لقد بكيت، ووضع هو خطوطًا. استرسل الطبيب في الحديث قائلاً:

- في اللحظة التي تبكين فيها، يبدو عليك الحزن الشديد، وعندما يظهر عليك الاكتئاب، يظهر لفترة قصيرة، فإذا لم تلاحظيه بدقة، فإنه لا يلبث أن يختفي، ويختبئ خلف خوفك على سبيل المثال. لقد قلت بنفسك: إنك تتناولين الأقراص عند إصابتك بنوبة خوف، فتشعرين بمفعولها وتهدئين، ولكنك تشعرين بعدها بخذلان وانقباض شديد.

- هذا هو ما أشعر به الآن، تمامًا وبمعني الكلمة.

امتلأت عيناي بالدموع، ولكني حاولت ألا أجعلها تنهمر، فلم يعد لديّ أي دليل على عكس ما قاله الطبيب. طلبت منه فترة استراحة قصيرة، ذهبت إلى المرحاض؛ كي أجمع شتات نفسي، ولكنى لم أستطع، جلست على المرحاض؛ وأخذت أحرك رأسي على إيقاع فوضى الأفكار التي تدور فيها، وعندما عدت إلى مكتب الطبيب، حاولت أن ألطف الجو بيننا بدعابة فقلت له:

- كررت أخصائيتي النفسية قولها إنني أفتقد الشعور بذاتي، وأيًا ما كان معنى هذه العبارة، فأرجو أن نتأملها معًا، حتى لو لم يكن رأينا في صالح "آنيت" التي توليني رعاية شديدة.

الواضح أنني لم أحسن عرض الدعابة، فقد رد عليّ الطبيب قائلاً:

- من قال لك إن هذه العبارة غير صحيحة؟ أنتِ فعلاً لا تشعرين بذاتك لدرجة أنك لم تلحظي أنك مصابة بالاكتئاب.

شعرت بأن الطبيب قد أحرجني بدرجة شديدة، مما أصابني بشيء من الضيق، أعتقد أنه لا يمكن لأحد أن ينكر عليّ حقي في دعابة ألقيها على شخص ما، هذه هي فلسفتي الخاصة، ولكنها من المؤكد ليست فلسفة الطبيب، مع الأخذ في الاعتبار أنه لا يطيقني، وأعلم جيدًا، أنه يريد أن يخرجني عن صمتي.

قال لي الطبيب:

مدام هيرمان: ألم تلحظي أي شيء؟ أنك في منتهى الذكاء، والواضح أنك تملكين قدرًا كبيرًا من معدل ذكاء شعوري بمعنويات الآخرين، إلا أن كل هذه الصفات لا تنطبق عليك أنت، ولا تنفذينها مع نفسك، فأنت تسرعين الخطا أمام أحاسيسك، حاملة لوحًا كبيرًا يمنع نفاذها إلى داخلك.

قلت له وأنا أشعر بالفعل بثقل اللوح الخشبي أمام رأسي: ياه؟؟

رد عليّ بقوله:

- هل تعلمين أن النفس البشرية تستخدم عجزها عن الإحساس بالأشياء عند الصدمات كدرع واقٍ، تحتمي خلفه، كل هذه أشياء طبيعية، بل ومفيدة؛ لأنها تحميك من الإحساس بما لا تطيقين ولا تتحملين، فهناك شيء مجهول جعلك ترغبين في حماية نفسك، فأنت لا تشعرين بذاتك إلا عندما يفوت الأوان، وعندما تفرغ أحاسيسك شحنتها على هيئة نوبات من الخوف. علينا الآن أن نبحث عن الأشياء التي يمكن أن تكون قد أدت إلى هذه الأعراض.

ها أنا قد عدت إلى العنصر الأساسي في حياتي، حيث أستطيع أن أتحدث عن نفسي، ومن ثم ألقيت أسرار طفولتي بابتسامة خالية من التكلف أمام الطبيب، حتى اهتز المشروب الذي وضعه الطبيب أمامه، إليكم ما أحتفظ به في خزينة ذكرياتي:

أولاً: اعتداء جنسي من أحد أقرب أقاربي.

ثانيًا: ضرب، وافتقـاد للحنـان مـن أم غير قـادرة علـى تربية ابنتها، مع الأخذ في الاعتبار، أنها كانت هي نفسها تعانى من الاكتئاب.

ثالثًا وأخيرًا: أب لم يستطع أن يقنعني بأنني وحـدي محـور حياته، رغم الحالة التي أنا عليها.

- تفضل أيها الطبيب، وأختر ما يحلو لك من هذه الأسباب!

ولولا أنى رأيت ملامح وجه الطبيب - ولحساسية الموقـف - لصحت بصوت عال: انتهى الدور وماتت الشاة (كما يحدث في لعبة الشطرنج)!!

بدت الدهشة على وجه الطبيب، فأنا أنسى دائمًـا أن الحمـل الثقيل الذي أحمله على كتفي لا يدعو إلى الفخر، ولا الزهو.

لخص الطبيب الموقف في كلمات قليلة:

- هذه ثلاث صدمات، قد تكفى الواحدة منها وحدها، لتـصل بك إلى ما وصلت إليه الآن، ورغم أن تشخيص حـالات الاكتئـاب يحتاج إلى بعض التأني والتروي، إلا أنني أستطيع أن أؤكد في هـذه الحالة، وبنسبة مائة بالمائة، أن هذه هي أسباب الحائط الواقي، الـذي أقمته بداخلك، فهذه نتيجة طبيعية.

كان تشخيصه واضحًا مما جعلني أصمت تمامًا، نظر إليّ الطبيب باهتمام وسألني:

- ما هو إحساسك الآن؟

- أنا حزينة!

- لماذا؟

- لا أعرف، ربما لأني أشعر أن هذا الأمر غير منصف؛ فلم يعاملني أحد من هؤلاء الأشخاص بطريقة سليمة، لم تكن هذه طريقة للتعامل مع طفلة، وثورتي الآن، لأن الأمور كان يمكن أن تكون مختلفة تمامًا.

- بالضبط، أما الخبر السعيد؛ فهو أنك تشعرين الآن بشيء داخلك.

- نعم. الموقف هنا بسيط، أما المواقف الأخرى، فليست من السهولة بمكان، بحيث يمكن تحليلها، هذه هي مشكلتي، نوبات الخوف تنتابني في أوقات لا أشعر فيها بالحزن، بل وتسير الأمور فيها على أفضل ما يكون، وقتها أبدأ في التفكير والتعمق، وأحاول أن أدمج في رأسي أشياء لا تمت لبعضها بأي بصلة. ساعتها أشعر أن رأسي يشبه لعبة إيجاد قطع الصورة، وضمها لبعضها، ولكنها سيئة الصنع،

لدرجة أن قطعها لا تصلح لأن تكمل بعضها، ممـــا يثيرنـــي بـــشدة، ويدفعني للبحث عن سبب، تتنازع الأفكار في رأسي مثل مجموعـــة من أطفال الحضانة، كل واحد منهم يصيح، ويرفض أن يقــف مــع باقي المجموعة في صف واحد.

- إذن عليك أن تقلعي عن ذلك!

- عن ماذا؟

- عن التفكير.

خرجت بعد ساعة من عيادة طبيبي النفسي الجديد وقد تمكنت من الحصول على موعد جديد، وكذلك على روشتة لصرف حبـــوب علاج الاكتئاب.

وجدت ماكس ما زال جالسًا في غرفة الانتظـــار، ويتـــصفح نشـــرة عـــن مرض "فرط النشاط" (هيبر أكتفيتي)، أعتقد أنه مرض لا يمكن لماكس أن يصاب به أبدًا.

شعرت بتأنيب ضمير لتركي له طول هذه المدة في انتظاري، فالشمس مشرقة في الخارج، ولو كنا نعلم أنى سأحتاج هـــذا الوقـــت الطويل، لكان بإمكان ماكس أن يخرج للتنزه وشرب القهوة، إلا أنـــه فضّل أن يجلس في انتظاري وسط مرضى نفسيين. شعرت تجاهـــه بعاطفة جياشة، وقلت له وأنا أضمه إلىّ:

- أنا آسفة أن الموضوع استغرق كل هذا الوقت!

- ليست مشكلة.

- لا، بل مشكلة.

- لا.

- لا، بل هناك مشكلة.

- عندما أقول لك يا "كارو" ليست مشكلة، يعني أنها فعلاً ليست مشكلة. انتهينا!

طبعت قبلة على صدر ماكس، حيث لم تمكّني قامتي من الوصول لأعلى من ذلك، ثم خرجنا من العيادة، بعد أن كنا قد اقتربنا من المساء، ما زال الجو دافئًا، فتوجهنا إلى المتنزه.

لم يسألني ماكس كثيرًا، فهو يعلم تمامًا أنني سوف أحكي له، عندما أصل إلى حالة تسمح لي بذلك. بينما أنا مستلقية على ظهري، وأتأمل الشجر من حولي، أخذ ماكس يقرأ في كتاب، ويلعب بأصابعه في (صرتي). كنت أحاول تلخيص زيارتي للطبيب النفسي، وأهميتها بالنسبة للفترة القادمة، لم أتصور أبدًا، أنني قادرة على أن أقلع عن التفكير والتحليل، ولا عن رغبتي في فهم كل شيء، وتغييره، لقد

اعتبرت كل هذه المراحل، هي دوري الوحيد في هذه اللعبة: أن أفهم وأطبق ما فهمت. تذكرت الكلمات التي قالها لي الطبيب:

- أقلعي عن التفكير، لا تداومي على التفكير في ذاتك، ولا في الحلول الممكنة، ابتعدي عن الأحاديث الفلسفية مع علماء النفس الجالسين حول طاولة المطبخ، لا تقتربي من جنون، أنت قريبة منه بالفعل، فحياتك الآن مستقرة، حاولي الاستمتاع بها.

رغم أنني لمحت في وجه الطبيب ملامح أفراد فريق الهيبيز، فإنني وجدت أنه محق فيما قال، فربما كانت الفرصة الوحيدة لقبول الأمور، هي عدم التفكير فيها. عليك أن تبحثي عن المساعدة، وأن تلقي بالمسئولية عن كاهلك، عليك أيضًا أن ترضي بالأمر الواقع، وتكفي عن الصراع.

لقد نصحني الطبيب النفسي بعدم المبالغة في الذهاب إلى جلسات العلاج النفسي، واقترح عليّ أن أكتفي بجلسة واحدة كل ثلاثة أسابيع، لا لأنه من غير المؤيدين لجلسات لعلاج النفسي، ولكن لأن الشخص في مثل حالتي يكون ضعيفًا، مما يفضّل معه البعد عن تحليل الأمور أو الحديث عن الذات.

إذن فسوف أعود لاستخدام علاج الاكتئاب. أعلم أن تأثير المادة الفعالة يبدأ بعد تناول الأقراص بفترة بسيطة؛ أي أنني لن

أشعر بالخوف بعد اليوم. شعرت وأنا مستلقية في المتنـزه، والنمل يسرح فوق جسمي ويعمل على إعداد بنيته التحتية، بأن هدوءًا ما يسرى بداخلي، اقتنعت بالخطة الجديدة، لقد وجدت أخيرًا قطعتين متكاملتين من لعبة القطع المتكاملة، قررت أن أتوقف عن التفكير، وأن أستمتع بحياتي السعيدة؛ فحياتي فعلاً سعيدة. هذا ما أكده لي الإصبع الذي يداعب (صرتي).

إذا كانت الأقراص سوف تقوم بتنظيم ما يدور في رأسي، فلمَ لا؟ ربما استطاعت بعض الأمور أن تحل نفسها بنفسها، على مدى الأيام. فحل العقدة يكون أسهل، عندما نتركها تُحل من نفسها، ودون استخدام العنف ولا القوة، إذن... اتركيها تحل نفسها بنفسها، وأقلعي عن التفكير، وليكن ذلك من الآن فصاعدًا.

خاتمة

استيقظت قبل ماكس لقضاء حاجتي، كما أردت أن أغسل أسناني، قبل أن أتلقى قبلة الصباح الأولى، ولكن الواضح أن ماكس كان قد استيقظ قبلي، فقد سبقني، ووضع لي معجون الأسنان فوق فرشة أسناني، فضلاً عن وجود شيء جديد فوق رف الحمام، لقد قام ماكس بوضع كوب ماء على الرف، ووضع بجانبه أول قرص من أقراص علاج الاكتئاب.

وقفت لعدة لحظات دون أن أتحرك، كي أتأمل هذا المنظر الرومانسي، ثم استدرت دون أن أغسل أسناني، وعدت بثقة كبيرة إلى سريري.

- استيقظ يا صاحب النمش، إذا سمحت؟

- لا تسميني صاحب النمش.

- أنا أسميك كيفما أشاء.

- لا، لا يمكنك ذلك طالما لا يوجد بيننا عقد.

- هذا هو الموضوع الذي كنت أرغب أن أتكلم معك بشأنه.

المؤلف فى سطور:

سارة كوتنر

سارة كوتنر من مواليد عام ١٩٧٩ في مدينة برلين، تعمل مقدمة برامج، ذاعت شهرتها من خلال برنامجها "استعراض سارة كوتنر"، وكذلك برنامج "كوتنر"، كما عملت مع محطة ***ARD*** لعدة مرات، كان آخر برامجها هناك بعنوان "إعلانات سارة كوتنر المبوبة". صدرت لها مقالات مجمعة، سبق نشرها في العمود المخصص لها في جريدة "زود ويشة" ***Sd2***، وجريدة "ميوزيك إكسبريس"، في كتاب أصدرته دار نشر "فيشر"، والتي صدر عنها أيضًا كتاب يضم مقالات "طبقة عمود الثلج الرقيقة لنصف ثلثي المعرفة"، وكذلك "تواجد الحاضر المستمر والمرهق".

تعيش سارة كوتنر في مدينة برلين، التي تحبها، وتعد رواية "نسخة معيبة" هي باكورة رواياتها..

المترجم فى سطور:

ناهد شفيق رضوان الديب

المؤهلات العلمية:

- ليسانس اللغة الألمانية وآدابها (كلية الآداب – جامعة القاهرة)
- ماجستير اللغة الألمانية وآدابها (كلية الآداب – جامعة القاهرة)
- دكتوراه الأدب الألمانى جامعة هايدلبرج (ألمانيا الغربية)

المناصب الإدارية:

- مدير مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية (جامعة القاهرة ٢٠٠٧ – ٢٠١٠)
- رئيس قسم اللغة الألمانية وآدابها (كلية الآداب جامعة القاهرة ٢٠٠٥ – ٢٠٠٧)
- المدير المصرى والممثل القانونى للمدرسة الألمانية الإنجيلية – القاهرة ١٩٩٤ – ٢٠٠٤)
- المشاركة فى المؤتمرات والندوات فى الداخل والخارج (مصر، كندا، ألمانيا)

- المشاركة فى إصدار مجلة الدراسات الجرمانية (كليـــة الآداب – جامعة القاهرة)
- الإشراف على الرسائل العلمية الجامعيـــة ومناقــشتها (جامعـــات القاهرة، عين شمس (الألسن – التربية)، حلوان، الأزهر، المنيا.

عضوية الجمعيات واللجان العلمية:

- عضو اتحاد الجرمانيات الدولى ***(IVG)***
- عضو مؤسس لفرع جمعية اللغة الألمانية بمصر ***(Gfds)***
- عضو اتحاد خريجى جامعة هايدلبرج.
- عضو اللجنة العلمية الدائمة (لجنـــة اللغـــات) المجلـــس الأعلـــى للجامعات.
- عضو اللجنة العلمية الدائمة (اللغة الألمانيـــة) جامعـــة الأزهـــر، عضو اللجنة العلمية – أكاديمية الفنون.

التصحيح اللغوى: رفيـــــق الــزهـــــار
الإشراف الفنــى: حســــن كـــامـــــل

عملت سارة كوتنر منذ العام 2000 مذيعة فى الإذاعة الألمانية، ثم مقدمة برامج حوارية فى التليفزيون، وصحفية ذات عمود ثابت فى جريدة ألمانية معروفة.

وفى عام 2009 فاجأت كِوتنر الجميع بنشر أول رواية لها بعنوان "نسخة معيبة". وعلى الرغم من أنها باكورة إنتاجها الروائى، فإن الرواية استمرت لعدة شهور على رأس قائمة الكتب الأفضل فى ألمانيا. وربما يمكن إرجاع نجاح الرواية إلى كونها ليست مجرد وصف تجربة سيدة شابة تفقد عملها، ويتركها صديقها فتصاب بحالة اكتئاب، استمرت لمدة عام، لكنها جاءت فى الواقع لتلمس روح العصر بصدق متناه، وتخاطب الرجل والمرأة والشباب والشيوخ على حد سواء.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح